

# غيم ميسو



5.9.2014

# أنقذني



## رواية



غيوم ميسو

أنقذني

@ketab\_n  
رواية

ترجمة: محمد التهامي العماري

المركز الثقافي العربي

سما للنشر

غيوم ميسو

أنقذني

العنوان الأصلي للرواية:

**Sauve-moi**

By: Guillaume Musso

© XO Éditions 2005

All rights reserved

الكتاب

أنقذني

تأليف

غيوم ميسو

ترجمة

محمد التهامي العماري

الطبعة

الأولى ، 2014

الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9953-68-692-9

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

**الدار البيضاء - المغرب**

ص.ب : 4006 (سیدنا)

42 الشارع الملكي (الأحاس)

هاتف : 0522 303339 - 0522 307651

+212 522 305726

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب : 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف : 01 352826 - 01 750507

+961 1 343701

Email: cca\_casa\_bey@yahoo.com

«التفكير فيك يسرع من خفقان  
قلبي ، وهذا هو الشيء الوحيد  
المهم بالنسبة إلي» .



هذا اليوم هو اليوم الأول مما تبقى من حياتك.  
 جملة نقشها أحدهم على أحد مقاعد  
 سانترال بارك.

إنه صباح من صباحات كانون الثاني / يناير بخليل نيويورك،  
 ساعة زحف النهار على الليل . . .

نحلق عالياً وسط السحب الراكضة نحو الشمال فوق جزيرة إليس  
 وتمثال الحرية. الجو بارد، والعاصفة الثلجية تشنّ المدينة بكمالها.  
 وفجأة يخترق السحب طائر فضيّ الريش، ويهدّ نازلاً بشكل  
 عمودي باتجاه صفّ ناطحات السحاب المرتسم في الأفق، تاركاً نفسه  
 ينقاد بقوة غامضة تسحبه نحو شمال مانهاتن، متوجهاً ندائف الثلج.  
 يحلق فوق غرينويتش فيلاج وتايمز سكوير وأبر ويست سايد بسرعة  
 مذهلة مصدرًا صرخات إثارة خافقة، ليتهي به المطاف إلى النزول عند  
 باب مدخل حديقة عمومية.

نحن نوجد عند طرف حديقة مورنينج سايد، على مقربة من  
 جامعة كولومبيا.

في أقل من دقيقة سُيضاء الطابق الأخير من عمارة صغيرة بالحي .

في هذه الأثناء تستمتع شابة فرنسية تدعى جولييت بومان بالثواني  
الثلاث الأخيرة من النوم .

6:59:57

:58

:59

7:00:00

\*

لما رنّ الجرس ، أرسلت جولييت ذراعها بشكل عشوائي نحو منضدة السرير فطُوحت بالراديو - المنبه على الأرض موقفة بذلك فوراً «صفارته» المزعجة .

خرجت من فراشها وهي تفرك عينيها ، ووضعت رجليها فوق الأرضية الخشبية اللامعة ، وسارت بعض خطوات على غير هدى قبل أن تتعثر قدمها بالسجاد الذي زلق فوق الشرائح الخشبية المصقوله . قامت مسرعة والتقطت نظارتها التي كانت تبغضها ، لكن قصر نظرها يضطرها إليها ، ذلك أنها لم تطق قط العدسات اللاصقة .

عكست لها مجموعة المرايا غير المتتجانسة ، المُقتناة من متاجر الآثار القديم ، صورة امرأة في الثامنة والعشرين من عمرها ، بشعر متوسط الطول ونظرة لعوب . قامت بتكتسيرة عابسة في المرأة ، ثم حاولت على عجل إعادة تصفيف شعرها وترتيب بعض خصلاته الذهبية التي كانت مفتولة حول رأسها . كان قميصها المفتوح وسرورها القصير المخرم يجعلانها تبدو مثيرة وجامحة . غير أنّ هذا المشهد اللطيف لم يكن ليذوم : إذ سرعان ما التفت في غطاء صوفي سميك ، وضغطت إلى بطنها السخانية التي كانت لا تزال تحتفظ ببعض الدفء ؟

ذلك أن نظام التدفئة لم يكن يوماً مزية من مزايا هذه الشقة التي تكتريها مع كولين منذ ثلاث سنوات.

نهدت وهي تقول بحسنة: «هذا ونحن ندفع ألفي دولار في الكراء!».

نزلت درجات السلم بقدمين مضمومتين وهي مدثرة، ثم دفعت بخاصرتها بباب المطبخ دفعة خفيفة. قفز القط الرمادي المخطط السمين الذي كان يراقبها منذ دقائق إلى ذراعيها ثم فوق كتفها معرضاً بذلك عنقها للخدش.

صاحت وهي تمسكه بإحكام وتعيده إلى الأرض:  
- توقف يا جان كامي!

ماء الهرّ تعبيراً عن سخطه ثم قصد سلته وتكون. وضعت جولييت في هذه الأناء وعاء ماء على النار وأدارت زرّ المذيع:

«... واصلت العاصفة الثلجية التي شلت واشنطن وفيلاديلفيا منذ 48 ساعة زحفها باتجاه الشمال الشرقي من البلاد، لتصيب نيويورك وبوسطن.

هكذا استيقظت مانهاتن هذا الصباح تحت طبقة سميكة من الثلج شلت حركة السير وبطءات من إيقاع الحياة في المدينة.

هذا وسيؤثر سوء الأحوال الجوية على حركة النقل الجوي: فقد ألغيت كل الرحلات المنطلقة من مطاري JFK ولاغوارديا، أو أُجلت. كما أن حالة الطريق سيئة للغاية، وتنصح السلطات بتفادي التنقل بالسيارات قدر الإمكان.

وإذا كان المترو سيشتغل بشكل طبيعي، فإن حركة الأتوبيسات

ستعرف الكثير من الاضطراب. وتعلن شركة أمتراك (Amtrack) للقطارات أنها ستقلص خدماتها. كما أنّ متاحف المدينة ستغلق أبوابها لأول مرة منذ سبع سنوات، وكذلك الشأن بالنسبة إلى حديقة الحيوان والمعالم السياحية الرئيسة.

وستواصل هذه العاصفة الناتجة من التقاء كتلة هوائية رطبةقادمة من خليج المكسيك وأخرى باردة آتية من كندا، تقدمها خلالاليوم باتجاه إنجلترا-الجديدة (New England).  
لهذا ننصحكم بتوكى أقصى درجات الحذر.

أنتم تنصتون لإذاعتكم مانهاتن على الموجة 4.101.  
إذا أعطيتمونا عشر دقائق على مانهاتن 4.101، سنضع العالم  
«بين أيديكم...»

شعرت جولييت بقشعريرة وهي تنصلت لهذه الأخبار. عليها أن تتناول شيئاً بسرعة لكي تستدفع. بحثت في الدوّلاب: لا لقهوة ذاتية ولا شاي. اضطررت وهي تشعر بالخجل إلى التقاط كيس الشاي الذي استعملته كولين الليلة السابقة.

ثم وقفت عند حافة النافذة وهي لا تزال نعسانة لتلقي نظرة من خلال الزجاج على المدينة المكسوة بمعطفها الأبيض.

كانت الفرنسية الشابة مفعمة بالحنين لعلمها بأنّها ستترك مانهاتن قبل نهاية الأسبوع. ولم يكن هذا بالقرار اليسير. فقد كان عليها أن تخضع للأمر الواقع: فهي إن كانت أحبت نيويورك، فنيويورك لم تبادلها الحب نفسه، ذلك أن هذه المدينة لم تحقق أياً من آمالها وأحلامها.

فبعد المرحلة الثانوية، درست بالأقسام التحضيرية الأدبية ثم

حصلت على ماجستير من السوربون دون أن تنقطع عن التمثيل في نوادي المسرح الجامعي. بعد ذلك جرى قبولها للدراسة بمدرسة فلوران لتكوين الممثلين، حيث اعتبرت من بين الطلاب الواعدين. وبالموازاة مع ذلك واصلت اجتياز اختبارات أداء الممثلين، وشاركت في التمثيل بثلاث وصلات إشهارية أو أربع، كما مثلت أدوار كومبارس في بعض الأفلام التلفزيية، لكن كل هذه الجهد لم تثمر شيئاً. هكذا أخذت تتخلى شيئاً عن طموحاتها، راضية بأدوار في عروض بالأسواق الممتازة ومجالس الشركات، وفي مسرحيات تعرض في حفلات الميلاد، أو التنشيط بيورو ديزني عبر التتكر في شخصية الدبدوب ويني.

ورغم أن أفقها كان يبدو مسدوداً، فإن ذلك لم يثبط من همتها، بل واجهت الأمر بجرأة واختارت السفر إلى الولايات المتحدة وكلها أمل بأن تجد موقعاً لها بيرو دواي. كان وضعها لما حلّت بنيويورك وضع شابة تستفيد من الإيواء والإطعام مقابل الخدمة. ألم يقولوا إن

من ينجح في نيويورك يستطيع النجاح في أي مكان آخر؟!

ترك لها اشتغالها برعاية الأطفال خلال السنة الأولى وقتاً فارغاً استغلته في تحسين إنجليزيتها، والتخلص من لكتتها، ومتابعة دروس في الفن الدرامي، لكن كل اختبارات الأداء التي اجتازتها لم تسفر إلا عن أدوار صغيرة في مسرحيات تجريبية أو طلابية، تُعرض في مسارح صغيرة أو في أحد المخازن أو قاعات الكنائس.

ولكي تكسب قوتها، اشتغلت فيما بعد في عدد من الأعمال الصغيرة: أمينة صندوق لدوام جزئي بسوبر ماركت، منظفة بفندق حقير بشارع أمستردام، نادلة في مقهى . . .

وأخذت قرار العودة إلى فرنسا قبل شهر. ذلك أن كولين ستريك

الشقة لتقييم مع صديقها، فلم تعد لها الشجاعة ولا الرغبة في البحث عن امرأة أخرى تقتسم معها الكراء. لقد حان الوقت لكي تعرف بفشلها، ذلك أنها لعبت لعبة فيها كثير من المجازفة، وخسرت. اعتقدت لفترة طويلة أنها أذكى من الآخرين، مستخفة بفخاخ الروتين والالتزامات، لكنها تشعر اليوم بالضياع، بحيث فقدت كل المعالم والدعامات. يُضاف إلى هذا أن كل مَدْخَراتها نفت، وتأشيرتها كفتاة تحظى بالإيواء والإطعام انتهت منذ مدة طويلة، مما يجعلها أجنبية في وضع غير قانوني.

وقد كانت رحلتها إلى باريس مقررة بعد يومين، إذا سمحت الأحوال الجوية بذلك.

هيا يا صغيرتي، كفاك أسى على حظك العاثر!  
بذللت جهداً لتقوم وتتوجهت إلى الحمام. تخلّصت من غطائها، وزرعت ملابسها الداخلية وقفزت داخل مخدع الاستحمام.  
صاحت حين أحست بدفع الماء المثلج على بشرتها:  
- آآاه!

فقد استحمت قبلها كولين، ولم تترك قطرة ماء ساخن.  
قالت جولييت في نفسها إنه أمر غير لطيف.

كان الاغتسال بالماء البارد حصة تعذيب حقيقي، لكنها، لطبيتها، سارعت إلى التماس الأعذار لصديقتها: فكولين أنهت مساراً دراسياً متألقاً في المحاماة، وهي تجتاز اليوم مقابلة تشغيل لدى مكتب مرموق بالمدينة.

لم تكن جولييت نرجسية ذلك الصباح رغم أنها قضت وقتاً أطول قليلاً من المعتاد أمام المرأة، لكن سؤالاً صار يقلق راحتها أكثر فأكثر: أما زلت شابة؟

لقد أتمت الثامنة والعشرين. لا تزال شابة بالطبع، لكن ينبغي الاعتراف بأنها لم تُعد كما كانت في العشرين.

اقربت من المرأة وهي تجفف شعرها، حدقَت في وجهها فأبصرت تجاعيد صغيرة عند زاوية عينيها.

إن مهنة التمثيل التي تشّقّ على الرجال هي أصعب بالنسبة إلى النساء: لا يُقبل منها التقصير، في حين قد يعُدّ علامات جاذبية وتميز لدى الرجال، وهو أمر طالما ضايقها.

تراجعت إلى الوراء. كانت لا تزال تملك نهدين رائعين، لكنهما لم يعودا ولا شكّ في انتسابهما نفسه قبل ستين من ذلك.

كلا، إنك تتوهمين.

لطالما رفضت جولييت إجراء «تعديلات» على جسدها: تعزيز ابتسامتها بالكولاجين، إزالة تجاعيد الجبين بواسطة توكسين البوتوكس، إبراز عظام الوجنتين، إضافة نقرة في الخد أو الذقن أو تغيير الصدر... قد يكون ذلك سذاجة منها للأسف، لكنها كانت ترغب في أن تفرض نفسها كما هي في الواقع: على الفطرة، بوصفها ذات حس وأحلام.

المشكلة هي أنها فقدت الثقة في نفسها. ذلك أنها اضطرت إلى التخلّي عن آمالها تدريجياً: في أن تصبح ممثلة مسرح وأن تعيش قصة حب حقيقة. قبل ثلاث سنوات، كانت تتخيّل كلّ هذا ممكناً. كان بالإمكان أن تصير جوليا روبيرس أو جولييت بينوشيه. ثم أرهقتها الحياة اليومية شيئاً فشيئاً. كان كراء الشقة يلتهم كلّ مالها. لقد مضى زمن طويل لم تشتري فستاناً واحداً، واضطررت إلى أن تقتنات على المعلميات والمعجنات.

لم تصرّ لا جوليما روبيرس ولا جولييت بينوشيه، بل راحت تعمل نادلة بإحدى المقاهي مقابل خمسة دولارات للساعة، وبما أنّ هذا لم يكن يكفي لأداء الكراء، فقد اضطرت للقيام بشغل آخر في عطلة نهاية الأسبوع.

استمرّت تتحدث إلى نفسها في المرأة وهي تقول:  
أما زلت قادرة على الإغراء؟ على إثارة الشهوة؟ لا شك في ذلك،  
لكن حتى متى؟

حدّقت في عينيها وقالت محذّرة:  
- ستأتي يوم غير بعيد لن يلتفت فيه رجل إليك...  
وفي انتظار ذلك، ارتدي ملابسك بسرعة إن كنت لا ترغبين في التأخير عن العمل.

لبست باستعجال سروالاً طويلاً لاصقاً وزوجاً من الجوارب القصيرة، ثم سروال جينز أسود وقميصاً مخططاً أضافت إليه كنزة وسترة صوفية ذات أهداب.

وقع بصرها على الساعة الجدارية، فذُعرت من تأخّرها. حريّ بها ألا تتأخر أكثر لأنّ مشغّلها ليس متساهلاً، وحتى لو كان آخر يوم لها في الشغل، فإن سوء الأحوال الجوية لن يشفع لها.

نزلت السلم باندفاع، والتقطت قبعة ووشاحاً ملوناً كان معلقاً بمشجب ثم صفت الباب خلفها محاذرة ألا تجزّ رأس قطها المتھور الذي أطلّ بأنفه متطلعاً إلى الثلج المتراكم خلال الليل.

وما كادت تتجاوز عتبة الباب حتى لفحتها هبة قارسة. لم يسبق لها أن رأت نيويورك بهذا الهدوء. فقد تحولت مانهاتن في غضون بضع ساعات إلى محطة تزلّج ضخمة، وجعل الثلج شوارع المدينة العملاقة تبدو كمدينة شبح تتعدّر فيها حركة المرور. تراكم الثلج على

الأرصفة وفي ملتقىات الطرق والشوارع التي عادة ما تكون صاحبة  
ومزدحمة، لم يُعد يجوبها غير السيارات الرباعية الدفع وبعض سيارات  
الأجرة الصفراء وقليل من المارة الذين انتعلوا المزاج.

رفعت جولييت رأسها وقد استرجعت عطر الطفولة فالتفقطت  
بضمها ندفة ثلج. كادت تسقط فباعدت بين يديها حتى تستعيد توازنها،  
ومن حسن حظها لم تكن محطة المترو بعيدة، وكان يكفي أن تحاذر  
حتى لا تنزل... .

فات الأوان. هوت في رمشة عين ووجدت نفسها على الثلج  
الناعم. مرّ بجوارها طالبان دون أن يساعدانها على الوقوف، بل راحا  
يضحكان منها بخبث، فساورها شعور بالخزي وكادت عيناها تدمعن.  
لقد بدأت يومها على نحو سئٍ بكل تأكيد.



وامتزج بعضاً ببعض تماماً،  
هي نصف حية وأنا نصف ميت.  
فيكتور هيغوا

على بعد كيلومترات من هناك، عبرت سيارة لاند روفر رباعية  
الدفع موقف سيارات مقبرة بروكلين هيل الحالي .  
على ركن الواقية الأمامية الأيمن، تكشف بطاقة مغلقة بالبلاستيك  
عن هوية السائق ومهنته :

الدكتور سام غالواي  
شارع مستشفى ماتيوس  
مدينة نيويورك

رُكنت السيارة قرب المدخل ، وترجل منها شخص في الثلاثين  
من العمر. كانت بنيته الضخمة ومعطفه الطويل وبذلته المقدودة على  
المقاس توحى بالمتانة والأناقة ، لكن نظرته الغريبة - إحدى عينيه  
زرقاء والأخرى خضراء - كانت تلفّها الكآبة .  
كان الجو بارداً وقارساً. عقد سام غالواي الوشاح حول عنقه  
ونفخ في يديه ليدهمها. خطأ بعض خطوات في الثلج باتجاه المدخل .

كان الباب الحديدى لا يزال مغلقاً، لكن مبادرة سام بتقديم هبة في السنة الماضية للمقبرة مساهمة منه في العناية بالمقابر منحه الحق في الحصول على مفتاحه الخاص.

كان يواطِب على زيارة المكان مرة في الأسبوع صباحاً قبل الالتحاق بالعمل بالمستشفى. وقد غدا ذلك طقساً أشبه بمخدّر.

إنها الوسيلة الوحيدة ليستمر معها...

فتح سام الحاجز الحديدى الصغير المخصص عادة للحراس، وشغل نظام الإنارة قبل أن يترك رجله تقدّمه آلياً عبر الممرات.

كانت مقبرة شاسعة كثيرة التلال أشبه ما تكون بالحدائق، يقصدها العديد من المتنزهين في الصيف للاستمتاع بتنوع أشجارها وممراتها الظلية، لكن سكونها هذا الصباح لا تشوش حركة ولا شدو عصفور باستثناء الثلج المتراكم على شكل طبقات صامتة.

بعد قطع ثلاثة متر، وصل إلى قبر زوجته.

كان الثلج قد غطى الشاهد الغرانيتى الوردى تماماً، فكشف سام بكلّه عن جزئه العلوي ليبرز ما كتب عليه:

فيديريكا غالواي

(1974-2004)

ترقد الآن في سلام

مشفوعة بصورة بالأبيض والأسود لأمرأة في الثلاثين من عمرها، بشعرها البني المصقول في شكل جدائٍ، ونظرتها الهاربة من التحديق في آلة التصوير.

نظرة يتعدّد الإمساك بها.

قال بصوت ناعم:

- صباح الخير. البرد قارس هذا الصباح، أليس كذلك؟ رغم أن فيديريكا ماتت قبل سنة، فهو ما زال يكلّمها كما لو كانت لا تزال حية.

مع ذلك لم يكن سام متدينًا. لم يكن يؤمن بالرب ولا بحياة أخرى مفترضة. لم يكن يؤمن في الواقع بشيء آخر خارج الطب. كان طبيب أطفال ماهراً ورحيمًا بمرضاه بحسب شهادة كل من يعرفونه. ورغم صغر سنه، نشر العديد من المقالات في مجلات طبية، وتلقى عروضاً من مؤسسات مرموقة وهو يُرسم بعد في منصبه. تخصص سام في مجال الطب النفسي، وبالضبط في مجال «المرونة» النفسية التي تنطلق من مبدأ أن الناس، بما فيهم أولئك الذين حطّمّتهم أسوأ المآسي، يستطيعون أن يسترجعوا القوة لإعادة بناء أنفسهم دون أن يستسلموا للنكبات. كان جزء من عمله إذن يتمثل في معالجة الصدمات النفسية الخطيرة التي يتعرّض لها بعض الأطفال: كالمرض والاعتداء والاغتصاب وموت أحد الأقارب...

لكته إن كان يجد القوة لمساعدة مرضاه ليسترجعوا زمام حياتهم، فقد كان يبدو غير قادر على الامتثال لتلك النصائح التي كان يسديها لمرضاه، بعد أن رزئ بموت زوجته قبل عام من ذلك.

كانت قصة علاقته بفيديريكا بالغة التعقيد. تعارفاً منذ بداية طور المراهقة، ونشأ معاً في بدفورد - ستوييفيسنت، وهو حيّ بغيض في بروكلين، معروف بتجارة الكراك وبمعدل جرائم قتل قياسي.

رحل والدا فيديريكا اللذان ينحدران من كولومبيا من شوارع ميدلين وهي لا تزال في السادسة من عمرها، دون أن يعلما بأنهما

يستجيران من الرمضاء بالنار. ولم يكدر يمضي عام واحد على إقامتهم بأميركا حتى أصيب والدها برصاصة طائفة خلال تبادل لإطلاق النار بين عصابتين متناحرتين بالحي. هكذا وجدت فيديريكا نفسها وحيدة مع أم غرقت شيئاً فشيئاً في الكحول والمرض والمخدرات... . ترددت على مدرسة متداعية، تحيط بها القذارة وهيأكل السيارات المتفحمة. كان الهواء ملوثاً، والجو مكهرياً ومروجاً للمخدرات يتربصون دائماً بزوايا الشوارع.

لمّا كانت في الحادية عشرة من عمرها، باعت هي نفسها، متنكرة في ملابس الفتيان، المخدرات بمنزل حقير لتوزيع الكراك يقع بشارع بوشويك. كان ذلك لأنّها كانت تعيش ببروكلين وسط الثمانينيات، ولأنّه السبيل الوحيد للحصول على المخدرات التي كانت أمّها بحاجة إليها. علمتها أمّها القاعدة الأساسية لإجراء الصفقة: ألا تسلم البضاعة أبداً قبل قبض الدولارات من المشتري.

في الثانوية الإعدادية التقت بغلامين أصغر منها بقليل وجدتهما مختلفين عن الآخرين: سام غالواي وشايك باويل. كان سام يمثل مثقف الصّفّ، إذ لم يكن الكتاب يفارق يده، وكان طفلاً وحيداً ربيته جدّته. كان أيضاً الطفل «الأبيض» الوحيد بالمدرسة، وهو ما كان يجرّ عليه كثيراً من العداوات في هذا المكان ذي الغالبية الأفرو أميركية. أما شايك، فقد حبته الطبيعة بقوة خارقة. كان وهو في الثالثة عشرة ضخماً الجثة شأن معظم راشدي الحي، لكنّه كان يخفى خلف مظهر الولد الشرير هذا حسناً مرهفاً.

اتّحد الثلاثة لكي يتمكّنوا من العيش وسط الجنون المحيط بهم. ونشأت بينهم صدقة دعمها ما بينهم من تكامل، وعثر كل واحد منهم

على توازنه بفضل الآخرين. الكولومبية والأبيض والأسود: القلب والذكاء والقوة.

نجحوا في البقاء بعيداً عن دوّامات الحي. كانوا قد عاينوا ما يكفي من الويلات التي جرّتها المخدرات الصلبة على محظتهم، وهو ما صرفهم عنها إلى الأبد.

لم يخطر ببال سام وفيديريكا بأنهما سيغادران هذه البالوعة يوماً. كانت حياة الناس هناك معلقة بخيط رفيع، وكان خطر الموت المحدّق بهم باستمرار يصرفهم عن التفكير في مشاريع طويلة المدى. لم تكن لهم إذن طموحات حقيقية لأنّ لا أحد من محظتهم كانت له طموحات.

لكن، ويخالف كل التوقعات، وبفضل الظروف أيضاً، استطاعا تجاوز هذا الوضع معاً. ذلك أن سام ما كاد يتخرّج طبيباً حتى اصطحب معه رفيقة صباح، وكان طبيعياً أن يتزوجها إذن.

استمرّ الثلوج يسقط ندفاً ثخينة وكثيفة، ولم يحوّل سام بصره عن صورة زوجته. كانت فيديريكا تبدو في الصورة قد عقدت جداول شعرها حول فرشاة طويلة، وهي ترتدي الوزارة التي اعتادت ارتدائها لما كانت تمشط شعرها. وكان سام هو من التقى هذه الصورة. لم تكن واضحة تماماً، وهو أمر طبيعي، لأنّه لم يكن من السهل تصوير فيديريكا.

لا أحد في المستشفى مطلع على أصل سام الاجتماعي، ولم يكن يتحدث عن ذلك لأحد أبداً. حتى لما كانت فيديريكا حية، لم يكن يعود لذلك العالم الذي تركه إلا نادراً. والحقيقة أنّ التواصل -

على وجه التحديد - لم يكن من مواهب زوجته. فلuki تحتمي من حملة طفولتها بـن نفسها مبكرًا بفضل الرسم عالماً لا شيء يمكن أن يزعجها فيه. كان ذلك أشبه بحقيقة واقية على قدر من السماكة بحيث إن حذرها لم يخف حتى بعد مغادرتها بيد-ستوي بفترة طويلة. ومع مرور الزمن قال سام في نفسه إنه سينجح في «علاجها» مثلما عالج كثيراً من مرضاه، لكن الأمور لم تسر على هذا النحو. وفي الشهور التي سبقت موتها، كثيراً ما كانت تلجم إلى عالم الرسم والصمت. وبذلك زاد التباعد بينهما.

إلى أن حل ذلك المساء المسؤول الذي فتح فيه الطبيب الشاب باب البيت ليكتشف أن زوجته قررت مغادرة تلك الحياة التي لم تُعد قادرة على احتمالها.

شعر سام فجأة بحالة من الخدر. لم تصدر عن فيديريكا أي علامات واضحة توحى أنها مقدمة على الانتحار، بل كانت تبدو خلال تلك الأيام الأخيرة أكثر هدوءاً. وهو يدرك الآن مبعث ذلك الهدوء حيث إنها كانت قد حسمت أمرها، واستسلمت لهذا الحل كما لو أنه الخلاص.

مر سام بكل المراحل: اليأس، الخزي، التمرد... وهو ما زال حتى الآن لا يكاد يمرّ يوم دون أن يتساءل:  
ماذا كان على أن أفعل ولم أفعل؟

كان الشعور بالذنب الذي ينهشه يمنعه من أن يسلم بوفاتها. لا سبيل «للإعادة بناء حياته». احتفظ بخاتم الزواج في أصبعه، وواظب على العمل سبعين ساعة في الأسبوع، وكثيراً ما كان يقضي عدة ليال متتالية في المستشفى. كان يشعر أحياناً بالغضب من فيديريكا، آخذًا عليها اختفاءها دون أن ترك له ما يتمسك به:

لم تترك له الكلمة وداع ولا تفسيراً. لن يعرف قطّ على وجه التحديد ما الذي قادها إلى القيام بعمل شخصي وحميمي كهذا، لكن الأمور اتّخذت هذا المجرى. هناك أسئلة تظلّ بلا أجوبة هكذا، وينبغي أن يقبلها كما هي.

هو يعلم في قرارة نفسه بالطبع أن زوجته لم تُشفَّ تماماً من طفولتها. ظلّت تعيش بذهنها في أجواء حي بيد-سْتوُيْ الفقيرة، محاصرة بالعنف والخوف وشظايا زجاجات الكراك.

هناك جروح لا تندمل ولا تشفى، وهي حقيقة عليه أن يتقبّلها حتى وإن كان يصرّح يومياً لمرضاه بعكس ذلك.

تردّدت تحت ثقل الثلج في أقصى المقبرة طقطقة شجرة عجوز. أشعّل سام سيجارة، ومضى كعادته كلّ أسبوع يحكى لزوجته أهم الأحداث التي وقعت له في الأيام الأخيرة.

توقف بعد هنيهة عن الكلام، واكتفى بوجوده هناك إلى جوارها مستسلماً للذكريات التي حاصرته. كان البرد القارس يلفح وجهه، وشعر بنفسه على خير ما يرام لما لفته دوامة من ندائف الثلج فكست شعر رأسه ولحيته الناثنة. إنه بصحبتها.

تنتابه في بعض الليالي أحياناً، بعد فترات مداومة مرهقة، إحساسات غريبة أقرب إلى الهلوسة: يتهيأ له سماع صوت فيديريكا، وتتراءى له في إحدى زوايا الغرفة أو في منعطف أحد ممرات المستشفى. كان يعلم جازماً بأنّ كل هذا غير حقيقي، لكنه كان يرتفضي ذلك كما لو كان وسيلة ليشعر بأنها لا تزال برفقته.

ولمّا اشتدّ به البرد، قرّر أن يعود أدراجه إلى السيارة، لكنه ما كاد يخطو بضع خطوات حتى رجع على عقيبه فجأة.

- كنت أرغب منذ زمن طويلاً أن أقول لك شيئاً يا فيديريكا . . .  
وتقطع صوته .

- شيء لم أُبَحْ لك به قطّ . . . لم أُبَحْ به لأحد . . .  
توقف لحظة كما لو أنه لم يكن قد حسم أمره بعد في الاسترداد  
في هذا البوح .

أيلزم البوح بكل شيء للمحبوب؟ لم يكن يؤمن بهذا، لكنه  
واصل مع ذلك .

- لم أُبَحْ لك بهذا لأنك . . . إن كنت فعلاً هناك في الأعلى،  
فلا شك أنك تعرفيه .

لم يشعر بقوة حضور زوجته مثلما شعر بها هذا الصباح. لعل  
مرد ذلك لهذا المنظر الأخاذ، لكلّ هذا اللون الأبيض المحيط به،  
والذي يشعره هو أيضاً بأنه موجود في وسط السماء .

تحدث إذن دون انقطاع لمدة طويلة، واعترف لها أخيراً بما كان  
يعصر قلبه منذ سنوات .

لم يكن الأمر يتعلق بخيانة زوجية ولا بمشكل بينهما ولا بقضية  
مالية. كان الأمر يتعلق بشيء آخر .  
أمر أخطر بكثير .

حين فرغ من بؤحه، شعر بالسلوى والإنهاك في آن واحد.  
وقبل أن يقفل راجعاً إلى السيارة، استجمعت قواه وقال:  
- كل ما أتمناه هو أن تكوني لا تزالين ثابتة على حبي . . .

أن ينقد المرء حياة إنسان أشبه بالوقوع في الحب: لا مخدر أفضل من هذا. إنـثر ذلك يـسـير لـأيـام فـي الشـوارـع فـيـلـاحـظ أـنـ كلـ شـيءـ تـغـيـرـ. يـتـهـيـأـ لـهـ أـنـهـ صـارـ خـالـدـ، كـمـاـ لـوـ أـنـ حـيـاتـهـ هـيـ التـيـ أـنـقـذـتـ.

مقططف من فيلم «القبر المفتوح» لمارتـن سـكـورـسيـسيـ

### شارع مستشفى ماتيوس الخامسة والربع مساء

أنهى سام جولته على مرضاه بزيارة الغرفتين نفسيهما. كان يترك هذين المريضين إلى نهاية الجولة، ربما لأنّه يتبعهما منذ زمن بعيد، فانتهى به الأمر ربما، من دون أن يُقرّ بذلك، إلى أن صار يعاملهما كما لو كانوا من أقربائه.

دفع بـلطـفـ بـابـ الغـرـفةـ 403ـ مـنـ مـصـلـحةـ أـمـراـضـ سـرـطـانـ الأـطـفالـ.

- مساء الخير أنجيلا.

- مساء الخير دكتور غالواي.

إنها مراهقة في الرابعة عشرة من العمر، نحيلة وشاحبة، جالسة القرفصاء على السرير الوحيد الموجود في الغرفة وقد وضعت على ركبتيها حاسوباً بألوان فاتحة بهيجة.

- هل من جديد هذا اليوم؟

حكت له عن يومها بأسلوب ساخر. كانت في وضعية دفاع دائمًا، وكانت تكره أن ينظر لها الآخرون بعين العطف، وتبغض أن يشفقوا من مرضها. لم تكن لها أسرة بالمعنى الحقيقي للكلمة. فقد تخلت عنها عند ولادتها بمستشفى الولادة بمدينة صغيرة من مدن نيوجرسي. كانت طفلة متمرة وغير اجتماعية، تقاذفها الملاجئ والأسر طويلاً، وقضى سام وقتاً طويلاً ليظفر بثقتها. وبما أنها أقامت عدة مرات بالمستشفى في الماضي، فقد كان يستدعيها أحياناً لطمئن الأطفال الذين يصغرونها قبل خضوعهم لعلاج أو جراحة.

وكعادته لما كان يراها تضحك، فكر أنه من الصعب تخيل الخلايا السرطانية وهي بصدده اجتياح دمها.

فقد كانت الطفلة تعاني من نوع خطير من سرطان الدم، وسبق لها أن تعرضت لعملية زرع، لكن جسدها كان يرفض النخاع المزروع.

- هل فكرت فيما قلته لك؟

- بشأن العملية الجديدة؟

- نعم.

لقد بلغ بها المرض إلى مرحلة إن لم تخضع فيها لعملية أخرى، فستحتاج الخلايا الأروممية كبدها وطحالها، وتتسبب في موتها.

- لست أدرى ما إذا كنت أملك القوة لتحمل ذلك يا دكتور. هل يلزمني القيام بعلاج كيميائي آخر؟

- نعم، للأسف. ينبغي أيضاً عزلك في غرفة معقمة.

كان بعض رفاق سام لا يوافقونه في إصراره على علاجها، ويررون أنّ من الحري به أن يتركها تعيش بسلام آخر لحظات حياتها.

فقد كان جسدها على قدرٍ كبير من الإنهاك بحيث إن نسبة نجاح عملية جديدة لا تتجاوز خمسة بالمئة، لكن سام كان متancockاً بها بحيث لم يكن يتصور فقدانها.

قال في نفسه: حتى لو كانت نسبة علاجها واحد على مليون، لن أتردد في خوض التجربة.

- سأفكر في الأمر يا دكتور.

- بالطبع، تريني. أنت صاحبة القرار.

كان يلزم الثاني. فقد كانت أنجيلا شجاعة، لكتها لم تكن صلبة.

تفحص سام بطاقة المتابعة الطبية اليومية وأشار عليها، ثم هم بالخروج لما بادرته قائلة:

- انتظر يا دكتور.

- ماذا؟

نقرت الفتاة على شاشة حاسوبها فشغلت الطابعة التي أخرجت ورقة عليها رسم غريب. كان سام قد شجعها لكي تنسى مرضها على ممارسة مختلف الأنشطة الفنية، فصار التصوير والرسم يساعدانها في الآونة الأخيرة على تحمل كآبة حياتها اليومية.

نظرت إلى عملها باهتمام، ومدّت يدها راضية إلى سام.

- خذ، لقد رسمته لك.

تناول الورقة وتفحصها باندهاش، إذ ذكرته الدوامات الأرجوانية التي تكتسح فضاء الورقة ببعض رسومات فيديريكا. كانت تلك هي المرة الأولى التي ترسم فيها حسب علمه رسوماً لاتصويرية. هم بأن يسألها عمما يمثله ذلك، لكنه تمالك نفسه لما تذكر أن زوجته كانت تكره أن يُطرح عليها هذا السؤال.

- شكرأ لك، سأزبن بها مكتبي .  
طوى الورقة ووضعها في جيب وزرته. كان يعلم بأنها لم تكن  
تحب الثناء عليها، فأعرض عن ذلك، واكتفى بأن قال وهو يتوجه نحو  
الباب:

- نامي جداً.  
- سأموت، أليس كذلك؟  
توقف عند عتبة الباب تماماً والتفت إليها. ها هي أنجيلا تناديه  
من جديد:

- إن لم يزرعوا لي هذا النخاع العظمي من جديد، سأموت؟  
قفل راجعاً إليها بمهل وجلس على حافة السرير. راحت تنظر  
إليه بمزيج من التجاسر والوهن، وكان يعلم بأنّ مظهر التحدّي هذا  
يخفي كثيراً من الجزع .  
فقال موافقاً:

- نعم، قد تموتين .  
سكت هنيهة ثم أضاف:  
- لكن ذلك لن يحدث .  
ثم قال :

- أعدك بذلك .

\*

مقهى ستاربكس - الشارع الخامس  
الرابعة وتسع وخمسون دقيقة

- كوب كابوتشنو كبير وفطيرة بالتوت البري من فضلك .  
- في الحال .

بينما كانت جولييت تلبي طلب زبونها، مضت تنظر من خلال الزجاج: توقف الثلج عن السقوط منذ الصبح، لكن البرد والرياح ظلا يشلان المدينة.

- تفضل.
- شكرًا.

ألقت نظرة على ساعة المقهى الجدارية: لم يفضل لها غير دقيقة وتنهي الخدمة.

- أعطني إكسبرسو ماكياتو وزجاجة إيفيان.
- في الحال.

إنها آخر زبونة في آخر يوم عمل، وفي غضون يومين وداعاً نيويورك!

قدّمت لإحدى بنات الهمي الفاتنات ما طلبته من مشروبات، فاستدارت وانصرفت دون أن تشكرها.

لما كانت جولييت تصادف النساء النيويوركيات في المقهى أو في الشارع، كانت تنظر إليهن بفضول وغيره. كيف السبيل لمقاومة هؤلاء النساء ذوات القدوة المشوقة المعتدلة، اللباسات على غرار مجلات الموضة، العارفات بكل القواعد والأعراف؟

قالت في نفسها: إنهن يتحلّين بكلّ ما لا أتصف به أنا: متألّقات، رياضيات، واقفات من نفوسهن... يتحلّثن بوثوق ويعرفن كيف يستعرضن محاسنهن وكيف يُخضععن الرجال... لا سيما وهن ينعمن «بالأمن المالي»، أي يحظين بعمل جيد يدرّ عليهم مداخيل وفيرة.

قصدت مستودع الملابس ونزلت بذلة النادلة ثم عادت إلى قاعة

المقهى الواسعة وفي نفسها شيء من الخيبة، ذلك لأنّ ليس بين العاملات من تمنت لها حظاً سعيداً «good luck» قبل انصرافها. أمّا بيدها باتجاه الكونتوار، لكنّهم أجابوها بحركة فاترة، فانتابها ذلك الشعور الدائم بأنّها غير مرئية.

عبرت الصالة الواسعة لآخر مرة. وبينما كانت تهم بالخروج، ناداها صوت قرب المدخل بالفرنسية:

- آنسة!

رفعت جولييت بصرها نحو رجل خطّ المشيب رأسه وكست وجهه لحية تائق في حلاقتها. كان جالساً إلى طاولة قرب النافذة. رغم كبر سنه، كان كلّ شيء فيه يشي بالقوة: كتفان عريضان وقامة طويلة يجعلان أناث المقهى يبدوأمّا في متنها الصغر. تعرف الشابة الفرنسية هذا الزبون، فقد كان يتربّد على المقهى أحياناً، ولا سيما في وقت متّاخر من المساء، بل إن جولييت سمحت له مراراً، لما يكون رئيسها غائباً، بإدخال كلبه الأسود الضخم ذي الاسم الغريب: كوجو.

- لقد جئت لتوديعك يا جولييت. تهياً لي أنك ستعودين قريباً إلى فرنسا.

- كيف علمت ذلك؟

اكتفى بأن ردّ:

- سمعت بالأمر.

أشعرّها كلام الرجل بالطمأنينة والخوف في الآن نفسه. كان انطباعاً غريباً.

أشار إلى كوب أمّامه وهو يقول:

- لقد سمحت لنفسي أن أطلب لك عصير تفاح ساخن.

ذهلت جولييت إذ بدا لها أن الرجل يعرفها جيداً رغم أنها لم تتحدث إليه قط في السابق. شعرت بنفسها أمامه كتاب مفتوح . قال :

- اجلسي لحظة.

ترددت ثم تجرأت على النظر إليه مطرولاً، لكنها لم تلحظ في عينيه أيّ عداء، بل مجرد مزيج من الحس الإنساني العميق والتعب الشديد فضلاً عن شعلة ملتهبة تعذر عليها تأويلها.

وقررت أخيراً أن تجلس قبالته، وأخذت رشفة من عصير التفاح . كان الرجل يعلم أن الشابة الفرنسية تخفي وراء مظهر المرح النشيط شخصية ضعيفة متربدة .

لم يكن يود مبالغتها، لكنه لم يكن يملك كثيراً من الوقت . كانت حياته معقدة وأيامه طويلة ومهماته ليست دائمًا ممتعة، لذلك دخل رأساً إلى لب الموضوع :

- ليست حياتك فاشلة بخلاف ما تظنين . . .

- لماذا تقول لي هذا؟

- لأنّ هذا هو ما تردد़ فيه كلّ صباح أمام المرأة .  
جفلت جولييت مصعوبة .

- كيف عرفت هذا . . .

لكنَّ الرجل لم يترك لها المجال لتنهي كلامها، واسترسل قائلاً :  
- الحياة في هذه المدينة صعبة للغاية .

قالت مؤيّدة :

- هذا صحيح . كلّ واحد يعدُّ في ركنه دون أن يأبه بجاره . فالناس يعيشون في الزحمة ، ومع ذلك تقتلهم الوحدة .

أجاب وهو يباعد ما بين ذراعيه :

- هكذا هي الأمور. العالم كما هو لا كما نحبه أن يكون: عالم عادل تصيب فيه الأشياء الطيبة الناس الطيبين . . .  
صمت لحظة قبل أن يضيف :

- إلا أنك امرأة طيبة يا جولييت: رأيتك يوماً تلبّين طلب زيون لم يكن باستطاعته أن يؤدي ثمنه وأنت تعلمين تمام العلم بأنّ الفاتورة ستخصم من راتبك . . .

ردّت الفرنسية وهي تهزّ كتفيها :  
- ليس بأمر ذي بال.

- ليس بأمر ذي بال، لكنه أمر جليل. فالأمر الصغير ليس عديم القيمة، لكننا لا نقدر انعكاسات أفعالنا دائمًا حق قدرها.  
- لماذا تقول لي كلّ هذا؟

- ينبغي أن تكوني على بيته من ذلك قبل انصرافك .  
- قبل عودتي إلى فرنسا؟

قال وهو يقوم واقفاً دون أن يجib بوضوح عن سؤالها :  
- اعتنى بنفسك يا جولييت.

فصاحت به :  
- انتظر !

كان عليها أن تستوقفه دون أن تعرف السبب. جرت خلفه، إلا أنه كان قد غادر المقهى .

كان ثمة قرب الباب الدوار شيء من الثلج الذائب لم يُكنس فانزلقت فيه جولييت للمرة الثالثة ذلك اليوم. فقدت توازنها ومالت إلى الخلف فتمسّكت بصعوبة بذراع رجل كان يبحث عن مكان يجلس فيه وهو يحمل صينية في يده.

جذبته للأسف خلال سقوطها، فهويَا معاً على الأرض وتلطخت ملابسها بالكابتشينو الملتهبة.

هذه هي أنا! الخرقاء التي تتوق لرشاقة «أودري هيبورن» لكنّها تجد نفسها دائماً ساقطة على الأرض.

قامت واقفة بسرعة وقد تورّدت من الخجل، واعتذرَت بلباقه لزبونها الذي هدّها وقد استشاط غضباً بمقاضاتها، ثمّ أسرعت إلى الخارج.

في الشارع كانت مانهاتن قد استعادت حركتها المعتادة. عادت المدينة إلى ازدحامها وتوتّرها. اختلط قرب المقهى صخب آلة إزاحة الثلج بهدير حركة المرور. ثبّتت جولييت نظارتها ونظرت بإمعان نحو الشمال ثمّ نحو داونتاون.

لكن الرجل كان قد اختفى.

\*

في تلك اللحظة نفسها، استقلّ سام المصعد ليرتقي أربعة طوابق ويجد نفسه أمام باب الغرفة 808.  
- مساء الخير يا ليونار.  
- ادخل يا دكتور.

لم يكن هذا الشخص الأخير الذي يختتم به جولته في الواقع من مرضاه. فقد كان ليونار ماكواين أحد أقدم المقيمين بشارع ماتيوس، التقى به سام في السنة السابقة ذات ليلة من ليالي الحراسة. أصيب العجوز ماكواين بالسهداد، فتسلّل إلى سطح المستشفى ليدخن سيجارة. كان هذا العمل ممنوعاً منعاً كلياً بالطبع لا سيما وأنّ ماكواين كان يعاني من سرطان بالرئة في أطواره الأخيرة. فلما التقاه سام هناك، منعه

لباقيه من توبىخه كما لو كان صبياً عاصياً. اكتفى بأن جلس قربه، وتحدى لحظة في جو المساء البارد. ومنذ ذلك الحين دأب سام على زيارته بانتظام لتقصي أخباره، وصار الرجلان يتادلان مشاعر التقدير.

- كيف تشعر اليوم إذن؟

- اعتدل ماكوين قليلاً في سريره وقال بنبرة متجلسة:

- أتعلم يا دكتور؟ لا يشعر المرء بالحياة أبداً مثل شعوره بها لما يكون على حافة الموت.

- لم تبلغ هذا الطور بعد يا ليونار.

- لا تُتعب نفسك يا دكتور. أنا أعلم أنّ نهايتي وشيكة.

وكما لو أراد أن يثبت صحة قوله انتابته نوبة طويلة من السعال تشهد على تدهور حالته الصحية.

ساعده سام على الجلوس في كرسي متحرّك ودفعه قرب النافذة.

هذا سعال ماكوين، وراح يراقب مبهوراً المدينة الممتدة تحته.

كانت المستشفى تجاور ضفة إيست ريفر، يرى منه مقر الأمم المتحدة المنتصب عالياً، المكسو بالرخام والزجاج والصلب.

- قل لي يا دكتور، ألا تزال أعزب؟

- أرمل يا ليونار. شتآن بين الأعزب والأرمل.

- أتعرف ما يلزمك؟ مبارأة في رفع السيقان إلى الأعلى.

سيجعلك ذلك أقل رزانة. ليس من الجيد في مثل سنك ألا يستعمل المرء أنبويه، أظنك فهمت قصدي . . .

لم يستطع سام تمالك نفسه من الابتسامة:

- شرح الواضحات من المفضحات يا ليونار.

- جدياً يا دكتور، أنت بحاجة إلى من يملأ عليك حياتك.

نهاد سام:

- ما زال الوقت مبكراً. ذكرى فيديريكا . . .

لكن ماكوبين لم يمهله حتى يُنهي كلامه:

- مع كلّ ما أكنّ لك من احترام، لا تتعبني يا دكتور بقصة فيديريكا. لقد تزوجتْ ثلاث مرات، وأستطيع أن أؤكّد لك أنك إن أحببت حقّاً مرّة في حياتك، فأنت قادر على أن تحبّ من جديد.

ـ لست أدرى . . .

وأشار العجوز إلى المدينة الغاصّة بالناس تحته.

- لا تقل لي إنك لم تعثر على شخص من بين سكان مانهاتن الذين يقدّرون بالمليين تستطيع أن تجده حبّك لزوجتك.

- أعتقد أنّ الأمر ليس بالسهولة التي تظنّ يا ليونار.

- وأنا أعتقد أنك أنت من تعقد الأمور يا دكتور. لو كنتُ في مثل سنّك وصحتك، لما قضيت أمسياتي في الحديث مع عجوز مثلّي.

ـ لهذا سأتركك يا ليونار.

- قبل أن تغادر، لديّ شيء أقدمه لك يا دكتور.

فتش في جيبي وأخرج رزمة صغيرة من المفاتيح مدّها له.

- إن حدثك قلبك يوماً، فمرّ على بيتي. قبوبي مليء بقناني النيد الفاخر التي اذخرتها ببلاده عوض شربها.

صمت هنيهة ثم غمغم كما لو كان يحدّث نفسه:

ـ نتصّرف بغياء أحياناً.

ـ أنا لست ميالاً لـ . . .

أجاب ماكوبين متضايقاً:

- انتبه ، الزوجات ليست زجاجات نطل ، بل خمور فرنسيه  
معتفقة تساوي قيمتها ثروة ، أفضل بكثير من نبائذ أميركا الجنوبيه  
وكاليفورنيا . يسعدني حقاً أن تشرب نخب صحتي ، عدنني بذلك .  
أجاب سام مبتسماً :  
- أعدك .

ورمى ماكين بالمفاتيح لسام أي التقطها في الهواء .  
- عِمت مساء يا ليونار .

وبينما كان يغادر الغرفة، فـَكَرَ فيما قاله له ليونار: لا يشعر المرء بالحياة أبداً مثل شعوره بها لما يكون على حافة الموت.

يحبّ المرء أن يكون على حالٍ غير حاله.  
أليير كوهين

- أنتِ هنا يا كولين؟  
 فتحت جولييت باب شقتها وهي تحاذر أن تسقط الأطباق الصينية  
 وزجاجة النبيذ التي اشتراها ببقشيش الأسبوع.  
 - أنا من يناديك يا كولين، أرجعت؟  
 كانت رفيقتها في الشقة قد هاتفتها بالمقهى قبيل الظهر لتخبرها  
 بأنّ المقابلة جرت على خير ما يرام، وأنهم قد شغلوها، وبذلك  
 قرّرت الشابتان الاحتفال معاً بالمناسبة.  
 - أنتِ هنا؟  
 لم تلق من جواب سوى مواء جان كامي الذي هبّ من الغرفة  
 وجعل يحتك بقدميها وهو يخرّر من الفرح.  
 وضعت جولييت العلب على مائدة المطبخ وهرعت إلى الصالون  
 حيث تركت المدفأة مشغلة.  
 أغلقت عينيها لفترة طويلة وهي تضغط نفسها إلى جهاز التدفئة  
 المضبوط على أقصى قوته، فشعرت بموجة من الحرارة تصعد عبر  
 قدميها لتجتاح جسدها بكماله.

هم .. هذا أفضل من أيّ رجل !  
حلمت لحظة وهي مغلقة العينين بأنها موجودة في عالم مثالي :  
عالم بقي فيه ما يكفي من الماء الساخن في خزان السخانة لكي تستحم  
عند مغادرة العمل .

لكن لا ينبغي المبالغة في الطلب .  
لما فتحت عينيها انتبهت إلى أن مؤشر جهاز الرد على المكالمات  
يومض ، فتركـت المدفأة على مضض لتطلع على مكالماتها .  
«لديك رسالة جديدة :

مرحباً جولييت، أنا كولين، آسفة، لن أعود إلى البيت هذا المساء ،  
ولن يخطر على بالك السبب. لقد دعاني جيمي لقضاء يومين ببارباد!  
أتصدقين: بار-باد! إذا لم تتح لنا فرصة اللقاء قبل سفرك، أتمنى لك  
عودة طيبة إلى بلدك».

وانتاب جولييت شعور عميق بالخيبة .  
هذه هي الصداقة على الطراز الأميركي : تقسم شقة مع شخص  
لثلاث سنوات ، وفي لحظة الوداع ، كلّ ما يتراكه لك لا يتجاوز  
جملتين على جهاز الرد على المكالمات !

لكن عليها ألا تحلم. فكولين تفضل بالطبع قضاء عطلة الأسبوع  
مع خطيبها على أن تمضيه معها! راحت جولييت تجول في الغرفة وقد  
ملأها التذمر ثم توقفت أمام الصور العديدة التي تؤرخ للحظات المهمة  
من حياتهما .

لما حطّت بمنهاطن ، كان لكلّ واحدة من الشابتين هدفها  
المحدّد: ترغب كولين في أن تصير محامية في حين تحلم جولييت  
بأن تصبح ممثلة. وحدّدت لنفسيهما ثلاثة سنوات لتحقيق حلمهما ،

والنتيجة هي أن إحداهما نجحت في الحصول على شغل بمكتب مرموق بينما تشغله الأخرى نادلة!

سيتهي الأمر بكونين إلى أن تصير شريكه بفضل مثابرتها وإقبالها على العمل. ستكتسب مالاً وفيراً، وستقتني ملابسها من DKNY، وتشتغل في أجواء مريحة بمكتب واقع في أحد الأبراج الزجاجية. ستحقق ما كانت تصبو إليه: إطاراً من الأطر النسائية السامية اللواتي تبدين دائماً مستعجلات وممتنعات، واللواتي دأبت على رؤيتها كل صباح في بارك أفنيو.

لامت جولييت نفسها على غيرتها من رفيقتها في الشقة، لكن الفارق بين نجاح رفيقتها وفشلها كان صارخاً بحيث أشعرها بألم في بطنها.

كيف ستكون حياتها لما تعود إلى فرنسا؟ فيم سيفيدها دبلوم الآداب الكلاسيكية؟ هذا فضلاً على أنها مضطربة في بادئ الأمر للرجوع إلى بيت والديها! فكرت أيضاً في اختها أوريليا التي تعيش حياة أسرية ومهنية مستقرة رغم أنها تصغرها. فهي تشغله معلمة، وقد لحقت بزوجها الدركي الذي نُقل إلى ضواحي ليموج. وهما ينتقدان حياة جولييت «البوهيمية»، ويعتبرانها غير مسؤولة.

لقد نجح كثير من أصدقائها القدامى في حياتهم، وامتَّهَن معظمهم مهناً محترمة، يقومون فيها بمهام يقال إنها مبدعة، يحقق فيها المرء ذاته: شأن الهندسة والهندسة المعمارية والصحافة وعلوم الحاسوب... . وهم متزوجون، حصلوا على قرض لشراء منزل، ولديهم طفل أو طفلان يلعبان في المقعد الخلفي لسيارة رونو ميغان. أما جولييت، فلم يكن لها شيء من كل ذلك: لا مهنة قارئة ولا حبيب ولا صبي. كانت تعلم أن سفرها إلى نيويورك لتجرب حظها

كممثلة رهان عبئي. ثم إنَّ كُلَّ مَنْ كانوا يحيطون بها رددوا ذلك على مسامعها مراراً: إنه قرار غير حكيم. والحقيقة أنَّ الوقت لم يكن مناسباً للمجازفة. كان الوقت وقت حذر وحيطة وتجنب المخاطرة. والمجتمع يوصي بالاحتراس والانحراف في أنظمة تقاعد منذ سن الخامسة والعشرين، واتقاء كامييرات مراقبة السرعة، والانحراف في التأمين الإجباري . . .

لكن جولييت لم تنصت لأحد. كانت تقول في نفسها إنَّها ستعتمد على حسن طالعها، وستُذهلهم لما يقرؤون يوماً على غلاف مجلة باري ماتش: شابة فرن西ة تحصل على دور رئيس في هوليوود! لم تستسلم يوماً، وكافحت بما أوتيت من قوة، لكن فرط طيبتها ونبالها حالاً ربيماً دون نجاحها. كانت الأمور ستكون أسهل لو كانت «ابنة . . .»، لكن أباها كان يُدعى جيرار بومان، يشتغل نظاراتياً بـ«أولناي-سو-بو».

وكانت تعوزها الموهبة؟ لكن، إذا لم تثق هي بنفسها، فمن سيثق بموهبتها؟ كثير من الممثلين والممثلات قاسوا الأمرَين قبل أن يبلغوا المجد: لقد مثل توم هانكس لسنوات في مسارح حقيرة، وميشال بيفير اشتغلت أمينة صندوق في الأسواق الممتازة، وباسينو رفضوا السماح له بالدخول إلى آكتور استوديو، وشارون ستون لم تحظَ بدورها المهم الأول إلا في وقت متأخر، وبراد بيت باع السندينيتشات في أحد الأسواق الكبرى وهو متتَّكِر في صورة دجاجة.

مع ذلك فالأهم بالنسبة إلى جولييت، وهو ما لا يفهمه أحد، هو أنها لا تشعر بنفسها حية إلا لما تمثل. لا فرق بين أن يكون ذلك في مسرحية جامعية، أو أن تكون القاعة خالية إلا من متفرجين اثنين: لا تشعر بوجودها إلا عندما تؤدي دوراً. هي لا تشعر بأنَّها هي إلا لما

تصير غيرها، كما لو أن في نفسها فراغاً ينبغي أن يُسدّ، كما لو أن الحياة الحقيقة لم تكن تكفيها. وفي كل مرة كانت تقول هذا في نفسها، كان يدور بخلدها أن هذا البحث عن بدائل للواقع يمثل ولا شك ظاهرة مرضية.

طردت هذه الأفكار السوداوية من ذهنها وهي تندنن بكلمات أزنفور: «رأيت نفسي في أعلى الملصق...» دخلت إلى غرفة كولين وهي لا تزال تندنن. كانت الملابس الشمية التي اشتراها رفيقتها في الشقة لاجتياز مقابلة التشغيل مطوية بعناية على الكرسي. إنه استثمار فيه مجازفة، لكنّها ستستردّ قيمته. ولم تستطع أن تقاوم الرغبة في قياسها. إنها بمقاسها تماماً، ذلك أنها كانت وكولين بالقوام نفسه تقريباً.

نزعـت جوليـيت سـروـالـ الجـينـزـ والـقمـيصـ الـقـديـمـ، وارتـدتـ بـذـلةـ رـفيـقـتهاـ الرـمـاديـةـ (Ralph Lauren). أـلـقـتـ نـظـرةـ خـاطـفـةـ فـيـ المـرـأـةـ، وـقـالتـ:

لا بأس بها.

لبـستـ أـيـضاـ بـلـوزـةـ سـودـاءـ مـنـ الكـاشـمـيرـ بـيـاقـةـ طـوـيـلـةـ، وـمـعـطـفـاـ صـوـفـيـاـ طـوـيـلـاـ، وـانتـعلـتـ حـذـاءـ (Ferragamo) بلا كـعبـ.

انـسـاقـتـ وـرـاءـ نـزـوـتـهاـ فـتـجـمـلـتـ قـلـيلاـ: وـضـعـتـ قـلـيلاـ مـنـ الـبـوـدـرـ عـلـىـ وجـهـهاـ، وـشـيـئـاـ مـنـ المـاسـكـارـاـ، ثـمـ كـحـلتـ عـيـنـيـهاـ.

ـ هـيـاـ يـاـ مـرـأـيـيـ الـفـاتـنـةـ، قـوليـ ليـ مـنـ الـأـجـمـلـ؟ـ

انـدـهـشـتـ مـنـ تـغـيـرـ صـبـورـتهاـ. ماـ أـشـبـهـهاـ فـيـ هـذـهـ الـحـلـةـ باـمـرـأـةـ

أـعـمـالـ!ـ الـلـبـوـسـ تـصـنـعـ قـطـعاـ الـقـسـوسـ.

تـذـكـرـتـ وـهـيـ مـصـعـوـقـةـ ذـلـكـ الفـيـلـمـ الذـيـ اـسـتـبـدـلـ فـيـ دـوـسـتـيـنـ

هوفمان ملابسها مقابل ملابس امرأة، وخلق بذلك دور حياته.

تمادت في جرأتها وقالت للمرأة:

- جوليت بومان، تشرفنا. أنا محامية.

نزلت وهي بهذه الحلة السلم بعد أن دعاها جان كامي الذي كان

يطلب وجهته.

وصبّت في الإناء محتوى طبق صيني.

- خُذْ، إنه لذيد: لحم دجاج بخمسة عطور وأرز تايلاندي.

مسحت على رأس القط الذي مضى يخرّر من الفرح،

وأعلنت:

- جوليت بومان، تشرفنا. أنا محامية.

وفجأة قررت ألا تمضي السهرة بمفردها كما لو كانت عانساً.

ماذا لو أمنت نفسها بمسرحية صغيرة؟ كوميديا موسيقية ببرودواي

مثلاً. ذلك أن مسارح تايمز سكوير يعرضون أحياناً البطاقات التي لم

تبع بأئمه معقوله. ولا شك أن كثيراً من الناس سيعرضون عن

الذهاب إلى المسارح بسبب الثلوج. إنه أنساب وقت لكي تجرب

حظّها. لماذا لا تذهب إلى مسرحية شبح الأوبرا أو القطط؟

نظرت من جديد إلى نفسها في مرآة الحمام، ووجدت صورتها

لأول مرة جميلة. صاحت بنبرة مسرحية:

- آسفة يا جان كامي، نيويورك تنتظرنـي!

صعدت ثانية إلى غرفة كولين وتناولت وشاحها (Burberry)

وخرجت في ذلك الليل المشرق وقد عقدت العزم على الاستمتاع

بساعاتها الأخيرة في مانهاتن . . .

## 5

جميع الناس في نيويورك يبحثون عن شيء ما. يبحث الرجال عن النساء، وتحث النساء عن الرجال. جميع الناس في نيويورك يبحثون عن شيء ما... ومن وقت آخر يعثر أحدهم على بغيته.

دونالد ويستلايك

كان سام مستغرقاً في أحد الملفات لما ربت الممرضة بيكي على كتفه وقالت وهي تومئ إلى جدول مواقف العمل:

- لقد انتهت فترة خدمتك يا دكتور.
- فرد سام كما لو كان يتطلب إكرامية:
- لم يفضل لي غير حالة واحدة سأفحصها.
- فأجابت وهي تسحب منه الملف:
- أنت من ينبغي أن يُفحص، عُذ إلى بيتك يا دكتور.
- امتثل سام وقد افتر فمه عن ابتسامة خفيفة.

وبينما كانت بيكي تراقبه وهو يبتعد، همست إحدى المتدربات في أذنها:

- يا له من رجل جذاب...
- أزيليه من ذهنك يا عزيزتي، لا حظ لك في الفوز به.

- أهـو متزوج؟

- الأمر أدهـى من ذلك . . .

فتح سام بـاب قاعة الـراحة المـخصصة للعاملـين بالـمستـشفـى. عـلـق وزـرـته المـكمـشـة عـلـى مشـجـبـ، ووـضـعـها دـاخـل خـزـانـتـه الـحـديـديـة. عـدـل رـبـطـة عـنـقـه وـارـتـدـى سـترـتـه وـمـعـطـفـه الثـقـيلـ، لـكـن دونـ أنـ يـلـقـي نـظـرـة عـلـى صـورـتـه المـمـعـكـسـة فـي المـرـأـة: لـقـد مـضـى زـمـن طـوـيلـ عـلـى تـخـلـيـه عـنـ كـلـ رـغـبـة فـي الإـغـراءـ، دونـ أنـ يـرـاـوـدـه شـكـ فـي أـنـ هـذـا هـوـ تـحـدـيدـاـ ماـ يـجـعـلـه جـذـابـاـ فـي عـيـونـ كـثـيرـ منـ النـسـاءـ. دـلـفـ إـلـى المصـدـعـ بـرفـقـة مـمـرـضـ آـسـيوـيـ يـدـفعـ نـقـالـةـ. لـمـ يـكـنـ الغـطـاءـ الـذـي يـغـطـيـ جـسـدـ المـرـيـضـ بـكـامـلـهـ يـتـرـكـ إـلـا قـلـيلـاـ مـنـ الشـكـ حـولـ حـالـتـهـ الصـحـيـةـ. بـحـثـ المـمـرـضـ عـنـ مـزـحةـ، لـكـنـ نـظـرـةـ سـامـ الـواـجـمـةـ صـرـفـتـهـ عـنـ ذـلـكـ. وـانـفـتـحـ الـبـابـ فـي الطـابـقـ الـأـرـضـيـ عـلـى الـبـهـوـ الـواسـعـ الصـاحـبـ الـذـي يـشـبـهـ مـنـطـقـةـ رـكـوبـ الـمـاسـفـرـينـ بـالـمـطـارـ. لـمـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـمـنـعـ نـفـسـهـ مـنـ إـلـقاءـ نـظـرـةـ عـلـى قـاعـةـ الـانتـظـارـ بـمـصـلـحـةـ الطـوارـئـ: كـانـ غـاصــةـ.

سيـزـدادـ الأـمـرـ سـوـءـاـ فـي السـاعـاتـ الـقادـمةـ.

كانـ ثـمـةـ رـجـلـ عـجـوزـ فـي أـحـدـ أـركـانـ الـحـجـرـةـ مـتـكـوـمـ فـي مـقـعـدـهـ. كانـ مـتـدـرـأـ بـمـعـطـفـهـ الـمـتـاكـلـ الـمـقاـومـ لـلـمـطـرـ وـهـوـ يـنـظـرـ مـرـتـعاـ إـلـى الأـسـماـكـ الـغـرـيـبةـ السـابـحـةـ فـي الـحـوضـ الـرـجـاجـيـ. وـالتـقـتـ نـظـرـاتـ سـامـ بـنـظـرـاتـ اـمـرـأـ شـابـةـ. كـانـتـ بـالـغـةـ الـهـزـالـ تـضـعـ ذـقـنـهـ عـلـى رـكـبـتـيـهاـ وـعـيـنـاـهاـ مـحـمـرـتـانـ بـالـمـخـدـرـاتـ أـوـ السـهـادـ، وـإـلـى جـانـبـهاـ طـفـلـ مـنـتـحـبـ مـتـمـسـكـ بـسـاقـهـاـ.

ماـذـا لوـ بـقـيـتـ لـلـمـداـوـمـةـ الـلـيـلـيـةـ؟



- سُتْ دولارات يا آنسني.

أدت جولييت المبلغ لسائق التاكسي ذي الأصل الهايتي، وزادت عليه بقشيشاً لكي تشكره على تحديه إليها بالفرنسية. أنزلتها سيارة الأجرا الصفراء في ملتقى برودواي والشارع السادس: بتايمز سكوير، المكان الأكثر حركة بمنهاهن أياً كان الوقت من النهار أو الليل.

كانت جولييت تشعر بالانجذاب لهذا المكان كانجذاب قطعة حديد إلى مغناطيس. فقد تركّزت معظم المسارح الكبرى بالمدينة في هذا المثلث الصغير المرصف الذي تحيط به ناطحات السحاب. سواء أكان الجو ماطراً أم عاصفاً أم مُتلجاً، تبقى تايمز سكوير ضاجة بشاشاتها العملاقة ولوحاتها الإلكترونية الساطعة المثبتة على واجهات المباني. كان المنظر مذهلاً. المسارح وقاعات السينما والمطاعم تجذب موجات من الزبائن وتنفثهم في جلبة محمومة. اقتنت جولييت كعكاً مملحاً من أحد الباعة المتجولين، وراحـت تستمتع بأكله محاذرة أن تلطف معطف «ها» بالكاتشب. تطلعت إلى إحدى الشاشات العملاقة التي تعلن عن برنامج المسرحيات، ثم توجهـت إلى المبني الرخامي الأبيض الذي دأب الناس على الاحتشاد أمامه كل يوم الواحد والثلاثين من كانون الأول / ديسمبر لكي يشاهدوـا سقوط التفاحة الضخمة الشهيرة، رمز نيويورك، والتي يعلن سقوطها عن بداية العام الجديد.

رغبت الشابة الفرنسية في أن تستمتع لآخر مرّة بهذا المزيج الأحـاذ من الطاقة والسحر. فرغـم تذمرها من مانهاهن، فقد كانت في قرارة نفسها تعشق هذه المدينة. شـتـآن بين حـيـاةـ الحـاضـرـةـ وـحـيـاةـ الـبـادـيـةـ لم تـكـنـ تـحـلـمـ بـحـيـاةـ الـبـوـادـيـ الـهـادـئـةـ وـلـاـ بـالـعـصـافـيرـ الصـغـيرـةـ. كانت

بحاجة إلى الحركة، إلى المتاجر التي تفتح أبوابها ليل نهار، ومنها تن شهد على أن ذلك ممكّن.

كان كل هذا بالطبع مغالياً وسطحياً، أشبه ما يكون بنادٍ ليلي وسط مانهاتن! كان من الممكّن أن يجد المرء هذا المكان مريعاً بهذه الإشهارات العدوانية، وهذه الموسيقى الهاדרة وتلك الأدخنة المنبعثة من كلّ مكان.

لكنّها تشعر بنفسها هنا حيّة. صحيح أنّ المكان حاشر، لكن المرء لا يشعر فيه بالوحدة على الأقل.

اللعنة، إنها نيويورك، برودواي، أطول شارع في العالم كما تصرّح بذلك الدلائل السياحية. الشارع الذي يعبر كل مانهاتن ويتجاوز برونكس . . .

\*

مزق صوت صفاراة إنذار برودة الليل.

أغلقت من جديد أبواب مستشفى شارع ماتيوس الأوتوماتيكية الثقيلة خلف سام في اللحظة ذاتها التي كانت تدخل فيها سيارة إسعاف بصخب إلى موقف السيارات. وكانت ردّ فعله الأولى هي أنه فكر في مساعدة المسعفين، لكنه أحجم عن ذلك، فالدكتور فريمان، رئيس قسم الطوارئ، كان قد رفض عرضه بالمساعدة في الحراسة بذرية أنه لم يأخذ كفايته من النوم في الأيام السابقة.

إنها المرة الأولى التي يخرج فيها إلى الهواء الطلق منذ الصباح، ونسي تقريرياً عاصفة الليلة السابقة. أشعرته الحرارة المتدينّة بدور لا يكاد يصدق.

قبل مغادرة باحة المستشفى، أبصر الطاقم الطبي محاطاً

بالحملة، وبلغته نتف مما كانوا يقولون: حروق من الدرجة الثانية... الضغط 8/5... نبضات القلب 65... سلم كلاسكاو<sup>(١)</sup> 6... ثم تلاشت الأصوات، فالتحق بسيارته.

وضع يديه على المقود، وترك المحرك مشغلاً بضع ثوان والسيارة متوقفة. كان دائماً بحاجة إلى فترة طويلة لكي يفرّغ ذهنه ويحاول نسيان المرضى الذين صادفهم خلال يومه. وهو ما كان يفشل فيه في الأغلب.

كان متعباً على نحو خاص هذا المساء. صعد عبر الشارع الأول منقاداً باتجاه الشمال. كان المرور مزدحماً على نحو غير معهود. أدار مفتاح المذيع:

«... يقدر عمدة نيويورك أن كلفة العاصفة ستبلغ عشرة ملايين دولار على الأقل، هذا في الوقت الذي بلغ فيه دين إزالة الانقاصل من الطرقات أربعة عشر مليوناً هذا الفصل.

ما زالت مصالح التجهيز تجد صعوبات إلى حدود الساعة في تحرير الشرايين الرئيسة، وتظل الطرق زلقة للغاية، لهذا ننصحكم بتوكّي أقصى درجات الحذر...»



شعرت جولييت بنفسها كقطرة ماء جرفها سيل من الحشود تحت أصوات اللوحات الإشهارية الساطعة. صفارات الإنذار وعاذفو الشارع والвшود وسيارات الأجرة الصفراء السريعة النافرة... كلّ هذا

---

(١) هو مؤشر يقوم درجة الوعي لدى المريض، وهو يسمح للطبيب في حالة الطوارئ بأن يعرف الاستراتيجية التي سيتبعها للحفاظ على الوظائف الحيوية.  
(المترجم)

يُشعرها الآن بشيء من الصداع. رفعت عينيها مبهورة نحو هذه الشاشات المثبتة على كل المبني فانتابها الدوار. كانت هذه الشاشات من الكثرة بحيث لم تُعد تعرف أين توجه بصرها: أسعار العملات، الفيديو كليبات، صور نشرة الأخبار المتلفزة، توقعات أحوال الطقس . . .

شعرت بالحشود تدفعها وهي مستغرقة، فقررت أن تنتقل إلى الرصيف المقابل لعلّها تجد شيئاً من الهدوء. كانت السيارات تمرّ من كل جانب، لكنّها بدت كما لو لم تكن تراها.

\*

يتقدّم سام الآن صعوداً في شارع برودواي. أطلق موسيقى جاز قديمة، وراح يستمتع بأنغام الساكسوفون وسط الضجة والمباني الزجاجية. كبح رغبة في التثاؤب وهو يمدّ يده نحو علبة السجائر الموجودة في جيب قميصه. إنّها عادة سيئة ورثّها من شبابه. ذلك أنّ معظم فتيان بيد-ستوي في ذلك الإبان كانوا يشرعون في التدخين في السابعة أو الثامنة من العمر قبل أن يلتفتوا إلى مواد أكثر إيداعاً. كانت السيارة التي تسير أمامه تضع على زجاجها الأمامي ملصقاً ملوناً، فرّكز سام بحركة آلية بصره لعلّه يرى ما كُتب عليها، فقرأ: If you can <sup>(1)</sup>read this, you're too near استغراقه، فلعن السيارة التي تتجاوزه، وفي تلك اللحظة ذاتها وقع بصره على شعار بلوحة تغطي واجهة أحد المبني، تشهر منتوجاً مضاداً للتدخين: عارض أزياء مفعم بالحيوية يرتدي سروالاً قصيراً،

---

(1) إن تمكنت من قراءة ما كتب، فهذا معناه أنك اقتربت أكثر من اللازم.

يطري على مزايا الرياضة ويحذر من مضار التدخين مؤكداً: ما زال  
أمامك وقت لتغيير حياتك!  
فقال بصوت مسموع:  
- قل هذا الأمر لنفسك!

ما الجدوى من ذلك على كل حال؟ يكفيه أنه غير حياته مرة واحدة. سحب نفساً عميقاً من سيجارته بتحدى ولسان حاله يقول إنه غير عابئ بالموت، وأنه لا يخاف الرب ولا الموت: فهو لا يؤمن بالرب ولا يستطيع رد الموت.

بينما أعاد الولاعة إلى جيبه، تحسّس بالرسم الذي قدمته له أنجيلا قبل قليل. ففتح الورقة فاكتشف على ظهرها زمرة من الرموز السرية الصغيرة لم يتتبه لها من قبل: دوائر ومثلثات ونجوم متداخلة على نحو غامض. ما معنى هذه الرموز الغريبة؟ لم يلحظ سام، الذي كان مستغرقاً، الشابة التي تعبر الطريق أمامه إلا في آخر لحظة. اللعنة! فات أوان الفرملة لإيقاف السيارة. انحرف بسرعة إلى اليمين، وتضرع للرب الذي لم يكن يؤمن به، وصاح بكل ما أوتي من قوة:  
- حذار!

\*

- حذار!  
تمسّرت جولييت في مكانها. كادت السيارة تدهسها، فشعرت لأول مرة في حياتها بالموت تحوم حولها.  
جرفت السرعة السيارة الرباعية الدفع فوق الرصيف، وسمع صرير توقف عجلاتها. كان عدم دوسها لأحد المارة معجزة.

هتفت جولييت بالسائق مع علمها بأنّها تتحمّل جزءاً من  
المسؤولية فيما وقع:  
- معتوه! قاتل!

تعالت دقات قلبها في رمشة عين.  
كانت لا تزال شاردة كعادتها، لكن هذه المدينة لا تصلح  
للحالمين، لأنّ الخطر يتربّص في كل مكان . . .

قال سام:  
- اتفه!

تملّكه الخوف جديّاً هذه المرة، فالحياة يمكنها أن تنقلب في  
طرف عين. يعيش المرء دائماً على حافة الهاوية، وهي حقيقة خبرها  
أكثر من أيّ كان، لكنّها لا تزال مع ذلك تُخيفه.  
كان قد قفز من السيارة متّابطاً بحقيقة الطيبة الموضوعة في متناول  
يده دائماً على المقعد المجاور.

- أنت بخير؟ لم يصبّك مكروره؟ أنا طبيب وأستطيع أن أفحصك  
أو أنقلك إلى المستشفى.

فقالت جولييت مطمئنة:  
- لا بأس، ليس بي شيء.  
 أمسك بذراعها ليساعدها على القيام، فرفعت رأسها إليه للمرة  
الأولى.

قبل ذلك بثانية لم يكن لها وجود، وفجأة ها هي أمامه.  
فكّر بارتباك:  
- أنت متأكدة من أنك بخير؟  
- It's OK -

- هلا قبلت دعوتي لشرب كأس عسى يهدئ ذلك من روحك؟

فردّت جولييت رافضةً :

- كلا، شكرًا. لا داعي لذلك.

لكن سام ألحَّ :

- أرجوك، على سبيل طلب الصفح منك.

أشار إلى الواجهة الهائلة لفندق ماريوت الذي يشرف بهيكله على الجانب الغربي من تايمز سكوير.

- سأركن سيارتي في موقف الفندق وأعود في دقيقة. هلا

انتظرتني في البهو؟

- حسناً.

خطا بعض خطوات ليبلغ سيارته، لكنه بينما كان يخطو، التفت

بغية ثم عاد أدراجها لكي يقدم نفسه قائلاً :

- اسمي الدكتور سام غالواي. أنا طبيب.

حدّقت فيه واحتاجتها رغبة في نيل إعجابه، وفي اللحظة التي

فتحت فيها فمها، علمت بأنها ستتركب حماقة، لكن الأوان كان قد

فات :

- تشرّفنا، أنا جولييت بومان، محامية.



كان ذلك في طرفة عين، نظرت إلى دون أن تراني،  
وكان ذلك مجدًا وربيعاً وشمساً وبحراً دافئاً...

أليبر كوهين

رغم الريح والبرد كانت الحشود لا تزال تتزاحم أمام الفندق.  
بقيت جوليت لدقائق في البهو تراقب موكب سيارات الأجرة وسيارات  
الليموزين التي تقلّ المترّجين وقد ارتدوا السموكينج وفساتين السهرة.  
وما لبث سام أن لحق بها عبر مصعد موقف السيارات.

كان فندق ماريوت بطوابقه الخمسين المشيدة بالزجاج والخرسانة  
ثاني أكبر فندق في مانهاتن. لم يسبق لجوليت أن زارت هذا المكان،  
لذلك أصابها الشدوه وهي تقتتحم الباحة الوسطى التي يناهز ارتفاعها  
أربعين طابقاً. قد تُنسى الإضاءة الساطعة الصادرة عنها المرء للحظة آنه  
في عزّ شتاء. تَبعت سام عبر السلالم المتحركة الذي نقلهما إلى الطابق  
الثاني، ومن هناك استقلّا أحد المصاعد الشفافة التي تبدو كبسولة  
فضائية تطير عبر البناء. ضغط سام على زرّ الطابق التاسع والأربعين  
وانطلق سفرهما المدوّن نحو قمة المبني.

لم يتبدلا كلمة واحدة... وقال في نفسه وقد شعر بأن الموقف  
تجاوزه: لماذا دعوت هذه الفتاة؟

- أأنت في سفر عمل بنويورك؟  
أجبت بصوت اجتهدت لتجعله واثقاً:  
- من أجل مؤتمر قانوني.

اللعنة، لماذا ادعىتنى محامية؟ س يجعلنى هذا أعتاد على الكذب.  
- ستبقين لفترة طويلة بمنهاتن؟  
- سأعود إلى فرنسا غداً مساء.  
هذه ليست كذبة على الأقل.

لمّا بلغا الطابق الثالثين، مالت قليلاً نحو الجدار الزجاجي  
ونظرت إلى الأسفل فأصابها الدوار، كما لو أنها كانت معلقة في  
الهواء.

اللعنة... ليس هذا وقت قيء.

انفتح باب المصعد على ردهة توجد بها مضيفة تناولت منها  
معطفيهما، واقترحت عليهما أن تدلّهما على المكان الذي يجلسان  
فيه.

كانت الحانة ذات المنظر البانورامي تحتل جزءاً كبيراً من الطابق  
الأخير. ومن حسن حظهما لم تكن غاصة، مما سمح لهما بالجلوس  
إلى مائدة مجاورة لنافذة مشرفة على نيويورك.

كانت القاعة مضاءة بنور خافت، وعلى منصة صغيرة راحت امرأة  
تعزف ألحان جاز بدبيعة على طريقة ديانا كral.

نظرت جولييت إلى القائمة: كانت الأئمة باهظة. طلب سام  
كأس مارتيني في حين طلبت هي كوكتيلًا مركبًا من الفودكا والتوت  
البرى والليمون الأخضر.

كان الجو هادئاً، إلا أنها لم تشعر بالراحة طالما أن بالها

مشوش. وأحسست فجأة كما لو أن البناءة كانت تهتزّ بشكل لا يكاد يُلحظ.

انتبه سام لارتكابها، فقال موضحاً وهو يضحك:

- الحانة تدور.

- كيف؟

- الحانة موضوعة على منصة تدور حول نفسها.

قالت وهي تبسم:

- شيء مدهش.

كانت الساعة تشير إلى السابعة وثلاث دقائق.

\*

### السابعة وثمانية دقائق

لاحظت على ضوء الشمعة قسماته المتعبة وعينيه الملوئتين

بالأخضر والأزرق: علامة الشيطان حسب الكنيسة...

لكن هذا لا يمنع من أنه لا بأس به. جورجيوس<sup>(1)</sup> كما يقول الأميركيون...

ثم إن صوته وديع ومطمئن. تنهدت بعمق: كان قلبها يخفق بسرعة فائقة بغير إرادتها.

### السابعة وأحدى عشرة دقيقة:

هي: هل سبق لك أن زرت فرنسا؟

هو: كلا، لست سوى أمريكي جاهل لم يغادر بلده إلا ليقضي

عطلته بهاواي.

---

(1) لطيف.

هي : هل تعلم بأنّ لدينا الماء الشروب في كل المنازل تقريباً؟  
هو : أتمزجين؟ والكهرباء؟  
هي : في المستقبل القريب . . .

#### السابعة واثنتا عشرة دقيقة

أعجبه بعدها عن التكليف . رغم مظهرها الموحى بأنّها سيدة أعمال ، فهي بسيطة وطبيعية . كانت تتقن الإنجليزية ، لكن بلكتنة فاتنة .  
وكان وجهها يستثير لما تبسم .  
وكلّما نظر إليها شعر بما يشبه صعقة كهربائية طفيفة .

#### السابعة وخمس عشرة دقيقة

أكان سيدعوني إلى المقهى لو أنني أخبرته بكوني نادلة؟

#### السابعة وعشرون دقيقة

لاحظ بأنّها ترتعش تحت قميصها القصير ، فقام إذن ووضع سترته على كتفيها .

قالت على سبيل المجاملة :

- أقسم لك أنه لا داعي لهذا .

لكن تهياً له لأنّ وجهها يشي بعكس ذلك تماماً .

فاقتصر عليها بهدوء :

- أعيديها لي بعد قليل .

أجدك فاتنة .

#### السابعة واثنتان وعشرون دقيقة

حديث حول الرجال والنساء .

هي : أنت محقّ، ليس من الصعب نيل إعجاب الرجال. يكفي  
أن تملك المرأة ساقين طويلين وردفين مكتنزين وبطناً مسطحاً وقدّاً  
قويماً وابتسمة مثيرة وعيّني ظبية وصدرأً ممتلئاً ونافراً...  
إنه أمر مثير للضحك.

#### السابعة وخمس وعشرون دقيقة

صمت.

رشفت رشفة من الكوكتيل.

نظر عبر النافذة وخمن اضطراب المدينة الممتدّة خمسين طابقاً  
أسفلهما ، وهديرها . المدينة بعيدة القرية.  
في اللحظة التي رسا فيها بصره على أظافرها المقضمومة ، أخفتها  
بجمع قبضتها. ابتسم لها بمرح .  
حتى وهم لا يتكلمان ، كان يدور بينهما حوار بلا كلمات.

#### السابعة وست وعشرون دقيقة

قولي له.

قولي له الحقيقة الآن.

قولي له إنك لست محامية.

#### السابعة وأربع وثلاثون دقيقة

هي : فيلمك المفضل؟

هو : العراب. وأنت؟

هي : امرأة البيت المجاور لفرانسوا تروفو .  
حاول أن يكرّر اسم المخرج فنطق بشيء أشبه بـ «فوانسوا  
توفو» ، مما أثار ضحكتها.

هو : لا تسخري متنى .

### السابعة وخمس وثلاثون دقيقة

هي : كاتبك المفضل؟ أنا كاتبي المفضل هو بول أوستر.

هو : (بعدم اقتناع) : أمهليني لأفكر . . .

### السابعة وأربعون دقيقة

هو : لوحشك المفضلة؟

هي : القيلولة لفان غوغ، وأنت؟

وعوض أن يجيب ، مدّ لها رسم أنجيلا وشرح لها كيف أنه لولا

هذه المزقة من الورق لما كتب لهما اللقاء أبداً . . .

### السابعة وواحدة وأربعون دقيقة

إذا كان رجل في مثل هذه الوسامه يرحب في، فهذا معناه أنتي

لست بالقبح الذي أتصوره... .

### السابعة وثلاث وأربعون دقيقة

هي : طبك المفضل؟

هو : التشيزبرغر .

هي (تهزّ كتفيها) : بفف . . .

هو : ألديك طبق أفضل منه؟

هي : فطيرة الحلزوون بالكبد المشحّم . . .

### السابعة وخمس وأربعون دقيقة

لماذا نصادفآلاف الأشخاص، لكننا لا نلتقي إلا لشخص واحد؟

## السابعة وست وأربعون دقيقة

هو: أعرف مطعماً سينال إعجابك: يُعدّون فيه همبرغر رائع بالكبд المشتم.

هي: إنك تستدرجنني.

هو: إطلاقاً، هذا اختصاصهم: خبيزات بجبن بارما المحسو بشرائح اللحم المطهوة على نار خفيفة، المعدّة بالكبد المشتم والكمأ الأسود، وتقدّم جميعها مصحوبة ببطاطسكم المقلية الشهيرة.

هي: توقف أرجوك، كلامك يشعرني بالجوع.

هو: سأعطيك العنوان.

سأخذك إلى هناك.

## السابعة وواحدة وخمسون دقيقة

لعله الشخص المناسب لكن في الوقت غير المناسب...

## السابعة وأثنان وخمسون دقيقة

هو: المكان المفضل بنيويورك.

هي: سوق الخضراوات الطرية بأونيون سكوار في فصل الخريف، لما تكون الحديقة مكسوة بالأوراق المتعددة الألوان. وأنت؟

هو: هذا المكان في هذه الليلة برفقتك، وسط غابة ناطحات السحاب هذه، الساطعة ليلاً...

هي: (مبتهجة لكنها ليست بهجة ساذجة): كلام جميل...

## السابعة وخمس وخمسون دقيقة

هي: آخر مريض ظلّ عالقاً بذاكرتك؟

هو: عجوز برتغالية تعرضت للذبحة صدرية منذ أسبوع. لم تكن في الواقع مريضتي، بل كنت مشاركاً في العناية بها. أجرى لها زملائي عملية قسطرة لتمديد الشريان المسدود، لكن قلبها كان ضعيفاً...

توقف عن الكلام كما لو أنه كان يستحضر عملية جراحية ما زالت نتيجتها غير مؤكدة.

هي: لم تستطع تحمل العملية؟

هو: كلا، لم نستطع إنقاذهما. ظل زوجها ساهراً لساعات في ليل المستشفى المضطرب. كان يبدو مسكوناً بحزن لا حدود له. سمعته مراراً يغمغم: *Estou com saudades de tu*.

هي: معناها «اشتقت لك»، أليس كذلك؟

هو: بمعنى من المعاني. لما حاولت مواساته، شرح لي بأنهم يستعملون في بلده كلمة *saudade* للدلالة على الحزن الذي يشعر به المرء على من يوجدون في مكان بعيد أو رحلوا، وهي كلمة تعذر ترجمتها إلى اللغات الأخرى. ذلك أنها تدل على حالة نفسية يصعب تعريفها، حزن جليل ينشر ظلاله على الحاضر بأكمله...

هي: وماذا وقع له بعد ذلك؟

هو: مات هو أيضاً بعد مرور بضعة أيام. أصابه الإنهاك بالطبع، لكن لا أحد يستطيع أن يجزم في سبب وفاته. (صمت بضع ثوان قبل أن يضيف) أنا متيقن أن الإنسان يستسلم للموت إذا لم يعد يشده شيء للحياة في هذا العالم...

الثامنة ودقيقة واحدة

هو: آخر دعوى ربحتها؟

هي (بعد تردد): لا داعي لإضاعة الوقت في الحديث عن  
العمل . . .

### الثامنة ودقيقتان

صمتا وراحَا يُنْصِتَان للعبارات الشبقية التي ترددَها المطربة بصوت  
ناعم تارة، وخشن أخرى. تتحدى أغانيها عن الحب الناشئ وعن  
الأثار الناجمة عن الخيبة والحزن والحداد . . .

### الثامنة وخمس دقائق

مضى ينظر إليها وهي تلفّ خصلة من شعرها على أصبعها.

### الثامنة وست دقائق

هي: يتهيأ لي تارة بأنك شارد لا تنصل إلىّ. أهو طوق النادلة  
المفتوح الذي يفقدك التركيز؟  
هو (مبتسماً): لا داعي لللومي.  
هي: لا تحلم!  
و هنا قامت واقفة لتذهب إلى المرحاض.



انتبه لـما بقي بمفرده إلى أنه كان في غاية الارتباك.  
قم وانصرف يا سام. اختلف من هنا قبل فوات الاوان.  
هذه المرأة خطيرة. عيناها تلتمعان.  
يشي وجهها بتعبير وديع صادق جعله ينجذب إليها.  
لم يكن مستعداً بعد. شعر بنفسه طبعاً قبل بعض دقائق خفيفاً

مبتهجاً قوياً وسعيداً، لكن ذلك لم يكن سوى وهم سرعان ما تبخر بالسرعة نفسها التي ظهر بها.

نظر إلى ساعته وتنفس بعمق. ولكي يهدي من روعه، وضع علبة السجائر على المائدة، لكن ذلك زاد من توتره. كان ثمة قانون شرع العمل به يمنع التدخين في كل حانات ومقاهي المدينة. فـ«المدينة التي لا تنام أبداً» خضعت لدكتاتورية تقليل المخاطر إلى حدتها الأقصى.

ثم فكر من جديد فيما قاله له ماكوبين. ما المانع من «مباراة في رفع السيقان»؟ أجل، جماع ممتع إذا شئنا تسمية الأشياء بسمياتها. فهذا ليس جريمة، لكنه طرد هذه الفكرة من ذهنه: ما يشعر به نحو هذه الفتاة لا يعود أن يكون نزوة جنسية.  
وهذا هو جوهر المشكلة... .

أغلقت جولييت على نفسها بباب المرحاض وقد تملّكتها الهلع.  
ماذا جرى لي؟ لا يمكن أن تسقط في غرام شخص في غضون ثلاثة أرباع الساعة!

لم يكن الوقت مناسباً: فهي ستعود إلى فرنسا بعد غد. ثم إنها ليست بهذا القدر من السذاجة حتى تصدق ما يدعونه هنا love at first sight<sup>(1)</sup>.

فيخلاف ما يعتقد عادة، ليست مانهاتن مدينة رومانسية. ذلك لأن الناس لا يعيشون هنا من أجل البحث عن الحب. هم يفدون عليها من أجل الأعمال، من أجل تحقيق طموحاتهم المهنية والفنية، لكنهم

---

(1) الحب من أول نظرة.

نادراً ما يبحثون عن الصاحب أو الصاحبة.

ثم إن جولييت ملزمة بالاعتراف بأن هذه السنوات الثلاث لا ينبغي أن تظل عقيمة من الناحية العاطفية. فهي قد قامت بجهودات في البداية، واستسلمت للعبة تاريخ، لكنها لم تشعر بالراحة قط في اللقاءات على الطراز الأميركي.

يُضرب الموعد هنا على جهاز بالم بيلو، ويكون شبيهاً بمقابلة تشغيل، إذ يدور الحديث دائمًا حول العمل والمال. يكون فيه كل شيء محدداً مسبقاً ومتيناً. ففي هذه المدينة التي تنتهي فيها أربع زيجات من خمسة بالطلاق، يخصص اللقاء الأول لاستعراض سيرة الحياة وطرح السؤال الشهير: كم دخلك؟ إن التعجل في النقاش يدعى ربع الوقت جعل الشابة الفرنسية تُعرض عن هذه الطقوس التي كانت تشعرها كما لو أنها تجتاز اختباراً شفوياً بالمدرسة الإدارية عوض البحث عن سرّ الحب.

لكن الأمر كان مختلفاً هذه المرة. فهذا الرجل، سام غالواي، لم يكن كالآخرين. ذلك أنهما بمجرد ما شرعا في الحديث، أحست بحرقة كبيرة في دواخلها.

كلا، كفاك كذباً على نفسك يا صغيرتي، فأنت لم تعودي ابنة السادسة عشرة!

كانت جولييت تصارع للسيطرة على مشاعرها. ثم كانت ثمة تلك الكذبة الكبيرة، والعلاقة التي تنطلق من كذبة لا يمكن أن تكون حميدة العواقب. كانت متأكدة من أن هذا الرجل سيعذبها. حرث بها ربما ألا تعود إلى الصالة... .

رفعت عينيها إلى السماء غاضبة: في اللحظة التي قررت فيها أن تبدو حكيمة، ها هو لقاء عارض يأتي ليشوش ذهنها.

قالت بصوت مسموع كما لو أنها تريد إقناع نفسها:  
- لست بحاجة إلى رجل في حياتي في الوقت الراهن!  
فأجابها صوت نسائي من المرحاض المجاور:  
- هذا أفضل لك يا حبيبتي، بهذا ستتضاف امرأة أخرى إلى  
الصديقات!

ندمت جولييت على انسياقها وراء خواطرها، وغادرت المراحيض  
وقد تملّكتها شعور بالخزي.

كان سام لا يزال في مكانه، تشهده إلى مقعده قوة جباره خفية.  
حاول إذن أن يبذل جهداً أخيراً لعله ينجح في عقلنة مشاعره.  
لا وجود لحبٍ من النظرة الأولى، أو ليس مجرد ظاهرة  
بيولوجية.

تلقي دماغه معلومات تتعلق بجولييت: طريقة ابتسامتها، شكل وجهها، منحنى ظهرها، لكنتها الفرن西ة، طريقتها في عرض شفتها السفلی... عالج هذه المعلومات كما يفعل الحاسوب، ثم أفرز هرمونات ونقلات عصبية. هذا هو مبعث شعوره بالانتشاء.  
رأيت، لا داعي لإيلاء الأمر أكثر مما يستحق، فهو لا يعود كونه تفاعلاً كيماوياً. انهض الآن إذن وانصرف قبل أن تعود.

دون أن يراها، طلبت جولييت معطفها من إحدى المضييفات وتوجهت نحو الطابق الذي توجد به المصاعد. لقد اتخذت القرار المناسب، لعله القرار الحكيم الوحيد. انفتح باب المصعد مُحدثاً ضجة شديدة.

ترددت...

يبدو أن هناك أشخاصاً يعرفون كيف يميّزون بدقة الوقت الذي يتحدّد فيه مصيرهم.

ماذا لو كان هذا الوقت قد حلّ الآن بالنسبة إليها؟

- أأنت بخير؟

نعم، وأنت؟

جلست من جديد أمامه.

لاحظ أنها استعادت معطفها، وانتبهت إلى أنه ارتدى سترته.

أنهى كأس المارتيني، وتناولت هي آخر جرعة من الكوكتيل.

نظرت بإعجاب للمرة الأخيرة إلى أنوار المدينة المتلائمة كآلاف النجوم. تهيأ لها كما لو أنها في إحدى تلك الكوميديات الرومانسية مع ميغ ريان، تلك الكوميديات التي تنتهي عادة نهاية سعيدة. وكانت تعلم بأنّ هذا لن يدوم.

لما لاحظ سام نديفة ثلج تصطدم بزجاج النافذة، أمسك بمرفق جولييت.

- أللديك صديق؟

أجبت كما لو أنها لا تريد الاستسلام بسهولة:

- ربّما. وأنت؟

- ليس لدى صديق.

- لعلك فهمت قصدي!

بينما فتح سام فمه ليجيب، عبرت ومضةً في ذهنه، وتجلى له وجه فيديريكا فجأة. كانت تمشي وسط الماء بأحد ممرات غابة كي ويسرت، والريح يداعب شعرها. كان ذلك خلال عطلة قبل ثلاث سنوات، وهي إحدى الفترات القصيرة التي شعرا فيها بسعادة حقيقة. غمز سام بعينيه مرات عديدة لكي يخلّص من هذه الصورة. نظر أخيراً إلى جولييت وقال:

- في الواقع... في الواقع أنا متزوج.



الحب كالحمرى، يحلّ ويرحل دون أن يكون  
للإرادة فيه أى دخل.

ستاندال

لم يتبدلَا كلمة واحدة ولا حتى نظرة خلال نزولهما. لقد عاشا لحظة رائقة، لكن سحرها سرعان ما تبخر، وأن الأوان ليعودا إلى أرض الواقع.

قال وهما يهمان بالخروج إلى الشارع المتجمد:

- أأرأفك؟

فردّت بنبرة حادّة:

- كلا، شكرًا.

- ما الفندق الذي تنزلين فيه؟

- هذا لا يهمك.

- هلا تركت لي رقم هاتفك في حالة ما إذا . . .

قطعته وهي تضع راحتها على خاصرتها:

- في حالة ما إذا ماذا؟

- لا شيء، أنت على حقّ.

نظر إليها بأسف: كان البخار يخرج من فمهما، فوجدها أجمل وهي غاضبة.

كان قد ندم على كذبته، إلا أنها كانت سلاحه الوحيد لكي يتجمّب تعريض نفسه للخطر، وحتى لا يكون غير صادق معها.

فقالت له وهي تهم بالانصراف:

- مع السلامة إذن! بلغ سلامي للمدام!

فأمسك بها وهو يقول:

- انتظري . . .

- لا تلحّ، الرجال المتزوجون لا يهمونني.

- أنا أفهم موقفك جيداً.

- أنت لا تفهم شيئاً. كلّكم . . . متشابهون!

فردّ مدافعاً عن نفسه:

- ليس من حرقك أن تحكمي عليّ لأنك لا تعرفين شيئاً عن حياتي، ولم تطلعي على . . .

- لا أرغب في معرفة المزيد عنك.

- حسناً، مع ذلك، شكرأ على هذه اللحظة.

فأجابت بسخرية:

- شكرأ على أنك لم تسحقني، لكنّي أنسنك أن تقدّم بمزيد من الحذر مستقبلاً.

- شكرأ على النصيحة.

- تشاو.

- وهو كذلك.

استدارت جولييت وحّت الخطو نحو أقرب مدخل نفق مترو. لن تقبل أبداً بالارتباط برجل متزوج: إنها قاعدة لا تقبل الاستثناء. صحيح أنها لا تملك المال وليس لها أطفال ولا مهنة

حقيقية ولا عشاق، لكنّها تملك قيماً، وكثيراً ما تمسكت بهذه القيم  
حين تسوء الأمور.

لكن سام غير رأيه ومضى يجري خلفها لبضعة أمتار، وأمسك  
بذراعها.

لمّا التفت إليه، لاحت له في عينيها دمعتان حارقتان تسيلان في  
صمت على خديها المثلجتين.

- أنا آسف لكون هذه السهرة انتهت بهذا النحو السيئ. إنني  
أجدك حقاً... لطيفة، ولكي لا أخفى عنك شيئاً، لم أشعر منذ زمن  
بعيد بالراحة مع شخص مثلما شعرت معك.

- أنا متأكدة أن زوجتك ستسرّ بمعرفة ذلك!

كانت تدافع عن نفسها، لكن نبرة الصدق التي لمستها في صوتها  
شوّشتها.

فقال سام:

- ليس من المعقول أن نفترق بهذا النحو.

فهتفت به وهي تحاول الإفلات منه:

- اترك ذراعي!

شرع بعض المارة يلتفتون إليهما ويحدجون سام بنظرات مرتابة.  
اقترب منها شرطي بزيه الرسمي، مصمماً على إعادة الأمور إلى  
نصابها.

- هل الأمور على ما يرام؟

فصاح به سام وهو يعود أدراجه:

- لا تتدخل فيما لا يعنيك.

كان سائق الفندق قد جاءه بسيارته الرباعية الدفع، ومدّ له

مفاتها. أمره الشرطي بأن يشغل المحرك ويخلّي المكان. نظر سام إلى الفرنسية التي كانت تنزل الشارع، وهتف بها:

- جولييت.  
لكتها لم تلتفت.

لا تتركها تنصرف! ابحث عن شيء يعيدها إليك كما يقع في الأفلام... ماذا فعل كاري كران ليستبقي كيلي؟ ماذا كان سيفعل جورج كلوني لكي يستبقي جوليا روبيرتس؟  
لم يكن يعرف شيئاً من ذلك البتة.

ترك إذن عشرين دولاراً بقشيشاً للسائق الشاب، وقام بمناورة خطيرة لكي يعود إلى الاتجاه المناسب من الشارع. قام ببعض الانعطافات، ونجح أخيراً في صعود الشارع حتى بلغ المكان الذي كانت فيه جولييت. أنزل زجاج النافذة وقال:

- الحقيقة الوحيدة على هذه الأرض هو أننا لا نعرف ما يخبئه لنا الغد...

تظاهرت بعدم سماعه، لكنه واصل مع ذلك:

- ما يستحق أن نحفل به هو الحاضر وحده، هنا الآن.

كانت كلماته تذهب سدى مع الريح والثلج. تباطأت ونظرت إليه بمزاج من الفضول والحنق.

- وماذا ستقترح عليّ الآن هنا؟

- ليلة واحدة ونهاراً واحداً، مع الالتزام بشرطين اثنين: لا تتعلق ولا أسئلة عن زوجتي. فهي غير موجودة بمانهاتن خلال عطلة نهاية الأسبوع هذه.

- اغرب عن وجهي!

آذته هذه الكلمات، فلم يلحّ وانصرف وقد ملأه الحزن.

نظرت إليه وهو يبتعد وتنبهت فجأة إلى أنها لا تعرف شيئاً عن محل إقامته.

\*

شعر سام بالخزي لأنه أفسد سام كل شيء. ورغم الثلج الذي كان لا يزال يسقط، ترك النافذة مفتوحة آملاً أن ينسيه الريح الذي يلسع محياه وجه جولييت.

لم يفكّر في شيء طيلة المسافة التي كانت تفصله عن مسكنه سوى في أن يقود بمزيد من العذر كما نصحته . . .

أومأت جولييت بذراعها بعصبية لكي توقف سيارة تاكسي عند زاوية الشارع الخامس والأربعين ومقهى أول ستار كوفي.

قالت وهي تعدل من جلستها على المقعد المقعر:

- مستشفى شارع ماتيوس من فضلك.

فسألها السائق، وهو شابّ معهم برونزي اللون.

(<sup>1</sup>) Where is it? -

- تقدم، سأدلك على الطريق.

أمّرته جولييت التي لم تُعد تخيفها هذه العمالة المهاجرة حديثاً، والتي لا تزيد معرفتها بالمدينة عن معرفة سائح حطّ الرحال منذ يوم واحد.

بلغ سام غرينبيتش فيلاج وعثر بأعجوبة على مكان يركن فيه سيارته على بعد أقل من مائة متر من منزله، بحي سكني مكون من

---

(1) أين يوجد؟

عمارات صغيرة ذات واجهات بتنية ودرج مبني من الحجارة في المدخل.

كان يقطن في منزل بديع من الطوب يتتألف من طابقين، ويقع خلف ساحة واشنطن مباشرة، في زقاق مرصوف تحفّ به اصطبلات قديمة حُولت اليوم إلى شقق ساحرة يحلم بها كثير من ساكنة نيويورك. تعود ملكية هذه البناء ذات الجمال الخفي لمالك أحد آخر معارض الفنون بـ «مرسيير ستريت». كان سام قد عالج ابنه قبل ذلك بثلاث سنوات، ولكي يشكره، أجرّ له البيت بثمن معقول. وقد كان سام يجد هذه الشقة باللغة الترف، لكتّه رضي بها آنذاك حتى تتمكن فيديريكا من إقامة مرسمها في الطابق العلوي.

وبينما كان يفتح باب بيته البارد الكثيف، برقت في ذهنه على حين غرة صورة الشابة الفرنسية، وفي رمشة عين أنار وجهها متاهة أفكاره الحالكة.

- انتظري هنا، لن أتغيب طويلاً.

قاد التاكسي جولييت حتى مدخل المستشفى الرئيس. تقدّمت نحو الأبواب الأوتوماتيكية بخطى واثقة. أكانت فعلاً ممثلة بارعة؟ سترعرف ذلك فوراً. إن كان الأمر كذلك، فستنبع في العثور على عنوان سام غالواي. إنّ ممثلة مثل ماريل ستريب كانت ستنبع في ذلك أيام مجدها. هي ليست ماريل ستريب بالطبع، لكتّها كانت تشعر بقليل من الغرام، وفي حالتها الراهنة، قد يفيدها ذلك.

نظرت جولييت إلى ساعتها، وأخذت نفساً عميقاً ثم دخلت إلى المستشفى حابسة أنفاسها كما لو كانت مقبلة على الغطس.

وبينما كانت تتوجه نحو مكتب الاستقبال، رفعت رأسها،

وحرصت على أن تقف مستقيمة وأن ترسل شعرها إلى الوراء. وفي لمع البصر اتّخذت هيئة أرستقراطية مهيبة. وهي هيئة لا يكتسبها المرء عادة بل تولد معه، ولا تنجلّ إلا إذا كان المرء بارعاً في التمثيل.

سألت الموظفة بنبرة تجمع بين اللباقة والغطرسة:

- أريد مقابلة سام غالواي من فضلك.

راجعت موظفة الاستقبال جدول الخدمة لتأكد مما كانت تعرفه

مبسقاً:

- آسفه سيدتي، الدكتور غالواي غادر منذ ثلاث ساعات.

فأجابت جولييت بنبرة متبرّمة:

- كنت على موعد معه هنا.

استخرجت هاتفها الخلوي، وتظاهرت بأنّها تركب رقمًا.

خاطبت الموظفة كما لو كانت تشهدها على الوضع:

- هاتفه الخلوي غير مشغل.

ثم بحثت في حقيبتها واستخرجت حزمة أوراق (برامج العروض)

حركتها في كل الاتجاهات حتى لا يظهر ما كتب عليها.

قالت بيأس وقد أظهرت الهلع:

- عقوده لن توقع في الموعد، وهي لا تقبل الانتظار. كلا،

الأمر في غاية الاستعجال، ينبغي أن أعيدها غداً في الصباح الباكر!

- هل الأمر بهذه الأهمية؟

- لو تعلمين ...

قطّبت الموظفة حاجبيها دلالة على الاهتمام.

أدركت جولييت إذن أنها قد شارت على النجاح. اقتربت أكثر

من الموظفة وقالت لها بنبرة هامسة:

- اسمحي لي أن أقدم لك نفسي: جولييت بومان، أنا  
محامية . . .

أوقد سام النار بالمدفأة. فقد كان الثلج مألوفاً بنيوورك، لكن العاصفة ضاعفت من شعوره بالبرد. وبينما كانت الشقة تدأ، نزع الطبيب معطفه وسترته، ومرر أصابعه على شعره.

كان الصالون هو أكثر الغرف حفاوة، وهو أمر عائد في جانب منه إلى النافذة الزجاجية الصغيرة المستديرة المطلة على الشارع. كان أثاثه الملفق يضفي عليه طابعاً مرحّاً. ففي إحدى الزوايا وضع جهاز حاليٌ كهربائي قديم بجوار بيانو يعود إلى سنوات الثلاثينيات، حصل عليه من إحدى الكنائس، وقبالته تنتصب أريكة جلدية قديمة، لكن كان ثمة شيء قد يشوش ذهن الزائر العرضي: كل الإطارات المعلقة على الجدار فارغة. ذلك لأن سام أزال ما كان فيها من رسوم فيديريكا وصورها. لم تبق هناك غير حواشي متقدنة الصنع ينبئ بها شيء شبحي غامض. استعرض الأسطوانات المستعملة القديمة التي اشتراها في غرافي ماركيت: بيل إيفانس، دوك إلينغتون، أوسكار بيترسان. . . قاده صوت جولييت الذي كان لا يزال يتتردد في رأسه إلى اختيار أنغام موسيقية هادئة: You Are So Beautiful To Me التي غناها جو كوكر في بداياته.

وضع الأسطوانة على الحاكي الكهربائي وتداعى على الأريكة. أغلق عينيه وهو يشعر بإنهاك شديد يعلم أنه سيمنعه من النوم. ذلك أنه قليلاً ما كان ينام في الأيام الأخيرة، ولم يكن يكلّف نفسه حتى الدخول إلى الفراش. كان يتمدد لبعض ساعات على الأريكة أو على سرير المستشفى في ليالي المناوبة، ويبيقى هناك بين اليقظة والنوم

حتى طلوع الفجر، فيقبل بذلك على يوم جديد دون أن يعرف للراحة طعماً.

كانت نف ماما عاشه تلك الأمسية تطفو في ذهنه محمولة على الأنغام الهادئة، لكن التعب كان يعوقه عن التفكير بجلاء. أكان عليه أن يهني نفسه على حكمته أم يلعنها لأنّه أفسد كل شيء؟ ذكره هذا السؤال بالأب هاثاوي، وهو قس غريب الأطوار رافقه في الطفولة، وحال بين كثير من صبيان «بيد ستوي» - وهو منهم - وبين الانحراف. كان يردد عن خبرة بطبيعة البشر: «لا يستطيع الإنسان الصمود أمام الإغراء، لهذا عليه أن يتوجبه».

وفجأة توقف صوت جو كوكر كما لو أن زلزالاً خفيقاً حلّ بالبيت. فتح سام عينيه: كانت الغرفة غارقة في الظلام. هم بأن يتوجه إلى صندوق القوابس الكهربائية، لكنه قال في نفسه لعل انقطاع الكهرباء عام. أزاح ستائر ونظر عبر النافذة. كان الظلام يخيم على مانهاتن بحيث لم تعد تضيئها غير أنوار السيارات وبיאض الثلج اللامع في الليل.

أشعل بعض الشموع وأضاف قطعة خشب إلى المدفأة، ثم مضى يخلّص سطح المظلة الزجاجية الصغيرة مما تراكم فوقها من ثلج. وفجأة عبر سقف الغرفة شريط ضوئي. أطل سام من النافذة، زاد لمعان الثلج: ترجل من سيارة التاكسي أحدهم في مدخل واشنطن ميوز، وكانت امرأة.

تقدّمت في الزقاق بارتباك تاركة خلف كل خطوة من خطواتها أثراً غير ملحوظ تُسّارع ندائف الثلج المتتساقط إلى محوه.

كانت جولييت ترتعش من البرد والتوجّس، وكان قلبها يخفق

بشكل غير مسبوق. كانت تجد صعوبة في التعرف على رقم المنزل الذي تبحث عنه وسط الظلمة، فتركت نفسها تنساق وراء حدسها. بعد بضعة أمتار انفتح باب أزرق غامق ثخين بلطف، وتقدم سام نحوها.

عثرت في نظرته من جديد على تلك الشعلة الممتددة التي رأتها سابقاً. إنهما عينان يمزجان بين الخضراء والزرقة تتلألآن في الظلام كزمرة.

استسلمت للحظة الحاضرة وقد انتشت بثماله المجهول، لأنها كانت تدرك جيداً أن الشواني الأولى في العلاقة هي الأجمل عادة، وهي التي لا تُنسى أبداً: اللحظة السحرية التي تسقى القبلة الأولى.

\*

هناك من جهة شفتان تتلامسان وتبخثان عن بعضها بعضاً، ثم هناك نفسان يمتزجان في البرد. إنها قبلة مداعبة تكاد تتحول إلى لدغة. قبلة يصل فيها المرء إلى العمق الحميمي للأخر.

لم تتمالك جوليست نفسها فألصقت جسدها بجسد سام، وشعرت على الفور نحوه بشيء عنيف مدمّر، بجاذبية مفعمة بالافتتان والخوف. بحرقة رهيبة، بألم عجيب . . .

سحبها سام إلى الداخل وأغلق الباب دون أن يتوقف عن تقبيلها. خلّصها من معطفها الذي سقط على الأرض، وفكّت هي أزرار قميصه قبل أن ترمي بها ل تستقرّ على أحد مصابيح السرير. وفي غمرة التلهّف، نزع أحد الأزرار وسقط على الأرض.  
والأسفاه على لباس كولين.

لاحظت ندبة على شكل نجمة تحت كتفه تماماً.

قبلها في عنقها بينما مالت برأسها إلى الوراء .  
غضّت شفتيه، وفي تلك اللحظة نفسها قبلته بلطف كما لو أنها  
رغبت في تضميد جرحه . ورفعت ذراعيها بينما كان ينزع قميصها .  
فك تنوّرتها فانزلقت على ساقيهما، بعد ذلك طوّقه .  
كانت الغرفة لا تزال غارقة في عتمة ناعمة . لمحت جولييت  
مكتباً واسعاً ملتصقاً بالجدار تراكمت فوقه الكتب ، فقام سام بخلصه  
من تلك الكتب برميّها عشوائياً على الأرض .  
جلست على المكتب فأزال حذاءها ونزع جوربها اللاصقين .  
أجال سبابته على شفتيها بينما كان يفك أزرار سروال الجينز الذي  
ترتديه .

كانت وجنتها ملتهبتين كما لو أنّ دمًا جديداً ضخ في عروقها .  
مالت عليه وذاقت نعومة بشرته . كان يفوح منه عطر قرفة .  
وبينما كانت تحدّق في عينيه ، تناولت يديه ومضت بهما إلى  
نهديها . بعد ذلك جالت يداه ثم لسانه عبر صدرها ثم انحدر إلى أن  
بلغ بطنهما . تشمّم بشرتها العابقة برأحة الخزامي . صوّبت بصرها على  
ثدييها ، طوقها بذراعيه ، مرّرت ساقيهما حول خاصرته ، سحب وجهها  
إلى وجهه ليقبّلها من جديد . وجدته مرهفاً على نحو مدهش ، كما لو  
أنه كان يخشى أن تكسّر مداعباته عظامها .

أما هو ، فلم يشعر بمثل هذا قطّ . طوال الوقت الذي استغرقه  
عناقهما ، شعر بحواسه كما لو تضخّمت . سمع خفقان قلبه الشديد في  
صدره وكذا ضجة تنفسه . شعر بنفسه ضائعاً ، خارج ذاته ، ذاهلاً ، كما  
لو أنّ رجلاً آخر هو من صار يتحكّم في جسده ، لكنه كان يشعر في  
الآن ذاته بأنه هو أكثر من أي وقت مضى .

ثم لم يُعد له وجود ولا لها؛ ولم يُعد للقبل ولا للبعد وجود، ولا للشمال ولا للجنوب. كل ما بقي هو مزيج شخصين منفيين على قارة مجهولة. احترق عزليْن تتمسّك إِحداهما بالآخر على كوكب آخر، وتحت سماء أخرى، في منزل صغير مكسو بالثلوج هناك، في مانهاتن.

\*

استيقظ سام فجأة عند الساعة الرابعة صباحاً. كانت الكهرباء قد عادت، وكان جهاز التلفزة الذي بقي في وضع التشغيل يبث صوراً بصوت مكتوم.

نهض ليطفله. استعرض بكيفية آلية بعض القنوات التي كان أثراً لها عليه كالوالخز: الحياة الحقيقية تستمر في الخارج والأخبار اليومية لا تنسى تقديم نصيتها من القلق والضحايا والجنون البشري.

انفجرت حافلة في مكان ما بالشرق الأوسط متسببة في مقتل عشرين شخصاً. شب حريق مهول في أحد سجون أميركا الجنوبية. النتيجة: تفحّم مائة وثلاثين شخصاً بسبب «نسيان» الإدارية فتح بعض الزنازين. في تلك الأثناء يقدم أحد كبار مصممي الملابس الجاهزة باليابان مجموعة الجديدة من ملابس الكلاب، وممّا يزيد الخبر إثارة أنه يقترح أيضاً طقم زينة مكوناً من الفرو واللمس خاص بكلاب الكانيش بشمن يناظر خمسة وأربعين ألف دولار. وبينما يواصل علماء بارزون على قناة «ساينس» مناقشتهم أسباب ارتفاع حرارة الأرض، يستمر جليد القطب في الذوبان. ذلك لأن قطعة ضخمة من الجليد بمساحة تقارب مساحة نيوجرسي انفصلت عن كتلة القطب الجنوبي وناهت وحيدة في بحر من الدموع.

بقي سام فترة طويلة واقفاً أمام التلفاز مشدوهاً ومرتعباً من هذه الاختلالات التي تصيب كوكب الأرض.

ولحسن حظه خلّصه انقطاع ثانٍ للكهرباء من هذا النكد، فعاد ليستلقي قرب الملك النائم في الغرفة المجاورة.



لم يعد الهواء إلا أشعة بما أنه محمّل بالملائكة.  
أغريباً دويني

لم تكن ستائر المسلمين التي تغطي النافذة والتي يرشح منها ضوء قوي، تسمح بالاستمرار في النوم صباحاً.  
كانت قد مضت دقائق على شعور جولييت بمحاولة شعاع شمسِ النفاذ تحت جفنيها مثلماً يحاول صياد فتح صدفة بسجين. صمدت في وجه هذا العدو بطريقة أو بأخرى إلى أن صاح دون أرتور، المذيع الرهيب بمنهاتن 4.101، في أذنيها عبر الأثير:

مرحباً بكم في مانهاتن 4.101.

إنها التاسعة! أثمة كسالى ما زالوا في الفراش حتى هذه الساعة؟ لا أصدق ذلك! لا سيما وأنَّ الشمس أشرقت من جديد على المدينة. ضمن برامجنا لهذا اليوم: التزلق بسنترال بارك، التزلج ومعركة كرات الثلج...

خبر سار: فُتحت المطارات في وجه الملاحة الجوية من جديد، ومن شمَّة ستنطلق كلَّ الرحلات المبرمجة في عطلة نهاية الأسبوع، لكن حذار من الانزلاق على الجليد. وقد أشارت السلطات أيضاً إلى أنَّ شخصين توفيا نتيجة أزمات قلبية بينما كانوا يزيحان الثلج من جنبات

منازلهم بالمجارف. خذوا حذركم إذن...

ابقوا معنا على مانهاتن 4. 101، محطة من يستيقظون باك...

انقطع صوت دون أرثور فجأة، ذلك أنّ سام هو بقبضة قوية على المنبه-المذيع لكي يسكت المذيع، فهشّه.

قفزت جولييت من مكانها. لقد نامت نوم الرّضّع، لكن قلق الصباح استبدّ بها تماماً. فقد جرت الأمور مساء الأمس بسرعة تحت إلحاح الشهوة، لكنّها تفكّر الآن بأنّ شكلها قد يكون بغياضاً بعد زوال زينتها، وبذلك عليها أن تسارع إلى الحمام لكي تسوي صورتها، وتستعيد رونقها.

ماذا يُفترض في المرء أن يفعل بعد ليلة كهذه؟ أن يجمع لوازمه ثم يُسلّم ويشكّر قبل أن يلتحق بشقته؟  
لكن سام جذبها إليه وقبلها قبلة متّهبة مجبياً بذلك عن سؤالها.

\*

أخذها أولاً إلى مقهى صغير مخفي خلف باب بلا علامة. تُسّير هذا المقهى الذي لا يكاد يثير الانتباه امرأة فرنسيّة الأصل، تنحدر من قرية صغيرة بالأدب البحريّة تشتهر بصنع الزجاجيات. كل شيء فيه يحاول أن يخلق جوًّا ممّا يُعرف بـ فرنسي عتيق بدءاً بأغطية الموائد وصولاً إلى علب شيكوريه ولوورو وبنانياً القديمة الموضوعة على الرفوف. ثم إنّ لون الجدران الأصفر الباهت والملصقات الإشهارية القديمة والبلاط الفخاري، كل ذلك يضفي على المكان طابعاً حميمياً يجعله أقرب إلى البيت منه إلى مقهى تقليدي.

لم يكن يعرف عنوانه إلا بعض رواده الذين يحفظون سره بحرص حتى لا يتحول إلى قبلة للسياح.

في هذه القطعة من فرنسا الموجودة في قلب أميركا، راحت جولييت تشرح لسام لذة القهوة الممزوجة بالحليب مع الخبز المدهون بالمربي بينما تبعث من جهاز آلة تسجيل قديمة موضوعة في أقصى الصالة، أغاني شعبية تعود لسنوات الستينيات. وفي لحظة صدح صوت فرانسواز هاردي الجميل بإحدى أغانياتها التي لاقت نجاحاً كبيراً. مضت جولييت تردد اللازمة مع «فرانسواز» مما أثار فضول سام، فسألها عن موضوع الأغنية. ترجمت له بعض كلماتها التي تقول:

«أنت تشبه كل أولئك الذين حزنوا  
لكن حزن الآخرين لا يهمّني  
لأن عيون الآخرين أقل زرقة من عينيك...»

ثم تنزها قليلاً في أفق غرينويتش فيلاج المترعة الهادئة. كانت السماء تلمع بلون فضي، والمدينة بكاملها مغلقة بقوعة من الجليد، جذابة ومتألقة. تسّكّعا بواشنطن سكورار بين طلبة جامعة نيويورك (NYU)، أكبر جامعات المدينة، والتي تحتلّ أجنةً كثيرة من الحي. كل شيء على ما يرام حتى هذه اللحظة.

كانا متلاصقين كمراهقين، مشبكين أصابعهما وهمما يتبدلان قبل عند كل منعطف.

تشير الساعة إلى الحادية عشرة. ما زالت بعض أجهزة التوزيع الآلي تبيع أعداد جرائد اليوم السابق بسبب الثلوج، وهي أول مرة ترى فيها جولييت ذلك بنويورك، المدينة التي لا تعرف توقف الزمن. لكن الزمن لن يتوقف لمدة طويلة.

الثانية عشرة زوالاً. توقفا عند بالدوتشيز، وهو متجر بقالة إيطالي

مشهور في غرينبيتش فيلاج. تحفل رفوفه وأروقتها بخضراوات الشتاء وفاكه البحر والأطباق الطازجة.

تفوح بالداخل رائحة قهوة وبسكويت شهية، والمتجر كعادته حاشد بالمتسوقين، لكن يبدو أنّ هذا هو ما يشكّل سرّ سحر المكان. أخذت جولييت المبادرة ومضت تجري بخفة من رواق إلى آخر لاختيار ما يلزم لتحضير وجبة سريعة: خبز بالسمسم، باسترامي<sup>(١)</sup>، فطيرة بالجبن، شراب قيقب الفيرمونت . . . ثم تناولا غذاءهما على أحد مقاعد سترايل بارك قبلة بركة البط المجمدة.

خلال تناول التحلية، بللت بلعابها جانباً من منديل ورقى ومسحت قطرة مشروب كانت تسيل على شفتها. خيم على الجوّ برد قارس، وكان الهواء يحرق كالنار، لكن السماء كانت صافية. اختفى سام للحظات، فشرعت جولييت تقفر على رجليها وتفرك يديها بالتناوب لعلّها تشعر ببعض الدفء. قال وهو يعود بكوب قهوة كبير اشتراه من أحد الباعة المتوجلين:

- حتى لا نتجمد!

وضعا أيديهما على الكوب الذي يتصاعد البخار منه ووجهاهما يوشكان أن يتلامسا، فخفضت جولييت بصرها وهي تبتسم. لم يتفرّسها رجل بهذه الحدة نفسها من قبل.

بعد ذلك دهنت شفتيه المتشققتين بالدرموفيل الهندي، ثم قبلته لتعود إلى دهن شفتيه بالدرموفيل الهندي من جديد ثم راحت تقبله وتقبله وتقبله . . .

---

(١) لحم بقر متبل مطبوخ ومدخن قليلاً. (المترجم)

وبينما كانا يعبران جسر غابستاو، إذا بأمرأة عجوز أشبه بالغجرية تستجديهما بأدب للتصدق عليها بدولار واحد، فمنحها سام خمسة دولارات. عندئذ طلبت منهما أن يتمنيا أمنية قبل بلوغ نهاية الجسر. فَيُتَمِّنَا.

إنها الظهيرة. يصورها بجهاز كاميرا فيديو رقمي يستعمله عادة لتصوير العمليات الجراحية. تعقبها في شوارع المدينة: مادسون، الشارع الخامس، ليكسينغتون... كانت ترقص أمام عدسة كاميرته وتجري وهي تضحك وتغبني. كانت تشعر بنفسها كما لو أنها فتاة في السابعة عشرة من العمر. عينها تتلاآن وابتسماتها تشى بالمرح. وتراءت لها صورتها في عيني سام جميلة ومختلفة، صورة امرأة «آخرى»، لكنها هي نفسها. نسيت للحظة كل حرمانها وقلقها، ولاحظت باستغراب كيف أن هشاشة تقدير الذات، وكذا ارتباطها بنظرة المحبوب، وكيف أن بعض ساعات سعيدة يمكن أن تغير لون سنوات طويلة من الذل والتعasse.

أما سام فأغرم بحيوية جولييت ومرحها. هي مقبلة، بخلافه، على الحياة. ذلك أن كل شيء في تاريخه الشخصي يدفعه إلى الحذر من لحظات السعادة كما لو أنها منافية لطبيعته. فقد كَيْفَ نفسه منذ زمن بعيد على تقبل أسوأ الأمور، وهو يجد صعوبة في التخلّي عن تحصيناته. إن السعادة لا مكان لها في جدول أعماله، وهو لا يتنتظرها، على الأقل بهذه الصورة.

ثم إن السعادة شيء نافر...

كانت الشمس تميل إلى الغروب فوق هودسون، فلوّنت السماء بالبرتقالي والوردي.

إنها بداية السهرة في حمام شقة سام. هما مستلقيان معاً في حوض الاستحمام. التقطت جولييت من فوق إحدى الخزانات، بجانب مزهرية زرقاء، قارورة زيت معطر فحوّلت بذلك الحمام إلى ينبوع من الشيقية. وما هي إلا ثوانٍ حتى تشبع الهواء ببخار مسّكر بعطر الخزامي.

قال لها إنّها ربيعة وعيد ميلاده، وبئته هي خواتر ملتهبة، وأنشدته نفأاً من قصائد؛ كل ذلك بالفرنسية حتى لا يفهمها، وحتى لا تشعر بالخجل، وحتى لا يسخر من سذاجتها.

نامت للحظة، أو لعلّها ظهرت بالنوم. وحاول هو أثناء ذلك أن يخمن ما إذا كانت نائمة أو تتظاهر بالنوم من خلال تنفسها. تخيلها قلقة، طوباوية، ولها نة وسخية...

فكّرت لوقت وجيز في أختها، وفي دركي ليموج وفي سيارة رونو ميغان، لكن كلّ هذا بدا لها الآن تافهاً، بعيداً ورديناً. وبما أنها برفقته، فهي لا تعبأ بشيء.

لا أحد منهمما يؤمن بالقدر. كلامهما لا يؤمنان إلا بالصدفة التي أتقنت صنعاً هذه المرة على غير عادتها.

بل إنّهما لاحظاً باستمتاع كيف كاد أحدهما يمرّ بجوار الآخر دون أن يلتقيا ويتعارفاً. واستعادا لعشرات المرات مشهد لقائهما. شرح لها سام بأنه في العادة لا يمرّ قطّ بشارع تايمز سكوير عند الرجوع إلى منزله. وحكت جولييت بأنّها لم تخطّط مسبقاً هي أيضاً لخروجهما، وأنّ الأحداث تسارعت في آخر لحظة بفضل اتفاق صدف عجيبة.

فكّر وهو يُشّني على تقلّبات الصدف بأنّ أحداث الحياة مرتبة

بشكل محكم قطعاً، وإلا، ولنكن واقعيين، فما الذي يتحكم في مجرى الأحداث إنْ لم تكن الصدفة؟ ففي دوامة الحياة اليومية، قد تغير حبة رمل مصائر الناس. هناك مسمار مرمي في الطريق، يمرّ عليه أبوك بسيارته وهو يقصد محطة القطار، وفي الوقت الذي يستغرقه لإصلاح العطب، يتأخر عن موعد القطار. يتمكّن من اللحاق بالقطار الموالي، فيجلس في إحدى المقاطورات. «مراقبة التذاكر أيّها السادة والسيدات». اللعنة، لقد نسي التأشير على تذكرةه. من حسن حظه أنَّ المراقب رائق المزاج حتَّى إنه اقترح عليه أن ينتقل إلى الدرجة الأولى حيث توجد مقاعد فارغة، وهناك سيلتقي بأمك. بعد تبادل الابتسamas والأحاديث، يتافقان. وما هي إلا تسعه أشهر حتَّى تأتي أنت إلى الوجود. بناء عليه، ما كان كُلَّ ما ستعيشه خلال حياتك على الأرض ليوجد لولا ذلك المسمار الصدئ ذي الثلاثة سنتيمترات المطروح في ذلك المكان بالضبط صدفة. هذا هو ما يقوم عليه وجودنا المجيد: مسمار، عزقة غير مثبتة بإحكام، ساعة متقدمة، قطار متأخِّر عن موعده . . .

لم يكن سام وجولييت يؤمنان بالقدر، لكن أحدهما سيجد نفسه مدفوعاً، في غضون ساعات، وفي ظروف مثيرة، إلى تغيير رأيه. ربّما لا شيء في العمق عرضي تماماً. لعلَّ بعض الأحداث كانت ستقع مهما كان الحال، كما لو كانت مرتبة في كتاب القدر. الأمر أشبه بسهم رُمي منذ الأزل، وهو يعرف متى وأين سيسقط . . .

لكن كل شيء في اللحظة الراهنة على أحسن ما يرام. تشير الساعة إلى العاشرة والنصف ليلاً. هما يتعرّضان في مطعم موجود فوق مركب راسِ قبالة هودسون. المنظر على جسر بروكلين رائع.

عبرت القاعة نسمة هواء.

قالت له باسمه: «لم أحافظ بمعطفني، أعلم أنني لست بحاجة إلى ذلك عندما أكون معك».

وللمرة الثانية منذ لقائهما يضع سترته على كتفيها.

لم يناما ليلة السبت إلى الأحد. كان لديهما كلام كثير يتبادلانه، وجماع كثير. وفي كل مرة كان الأمر أشبه بعملية استرفاع، بزوبعة داخلية.

كانا يشعران بإشباع رغبات متعددة في الآن نفسه، وبصدمة عاطفية يقدم كل منهما فيها للآخر ما هو بحاجة إليه تماماً. أحست منه بالقوة والوثوق اللذين طالما افتقدتهما. واستشعر هو فيها حرية ولطفاً لطالما أعزها.

قطرات من العرق تسيل على جبينها. غادرت الشقة كالأمس لبضع دقائق لكي تتزود من سوق صغير خلف واشنطن سكور. كان البرد والليل قد أخليا الحي؛ وبينما كانت تعبر الساحة، ظنت بانتشاء أن المدينة صارت ملكاً لها.

جلبت هذه المرة شموعاً ملونة وزجاجة مستدقّة طويلة تحتوي على «ice wine» نبيذ الجليد، من أونتاريو. أخرجت الزجاجة من كيس كرافت الورقي، ودنت من سام وهي تبتسم: سكبّت السائل الأصفر الباهت في كأس كبير، وشربّا منه بالتناوب. لم يسبق له أن شرب شيئاً مماثلاً. شرحت له أن هذا النوع

من النبيذ يصنع من العنب المجمد في درجة حرارة 10 تحت الصفر .  
وهم يعصرونه في هذه الدرجة من البرودة حتى تبقى بلورات الثلوج في  
العصارة .

كان الرحيق حلوأً بنكهة الخوخ والممشمش ، يجعل قبلاتهما  
بمذاق العسل . شربا كأساً ثم أخرى ، ثم امترج جسداهما وصار الليل  
دواراً .

دارت عقارب الساعة وحلّ يوم الأحد . غمرت أشعة الشمس  
الصالون . ارتدت جولييت أحد قمصان سام الزرق ، ولبس ثيابه  
الداخلية . تكّومت تحت وسادات الأريكة وراحت تتصفح عدد  
النيويورك تايمز لنهاية الأسبوع الذي يضم أكثر من 300 صفحة . أما  
سام فحضر قهوة سوداء ومضى يعزف على البيانو ، لكن نشازاً كثيراً  
تخلل عزفه : وهو أمر طبيعي بما أنه لم يتوقف عن النظر إلى المرأة  
الجالسة على الأريكة قبالته كما لو كانت تحفة فنية .

في وقت متأخر من الصبيحة ذهبا في جولة إلى ساحة سوتون  
على مشارف المنتزه المجاور لنهر إيست ريفير . جلسا على مقعد  
وخلفهم ظهر جسر كوينسبورو الذي يرتفع عالياً ليعانق جزيرة جزيرة  
روزفلت ، في مشهد شبيه بملصق أحدأفلام وودي آلن . ووسط الريح  
وصخب الأمواج ، تاه كلّ منها في حرارة الآخر ، وأغلقت جولييت  
عينيها كما لو كانت تسعى للاستسلام لللحظة الحاضرة .

أدركت ، وقد جرفتها موجة من الحنين العابر بأنّها بقصد تخليد  
ذكريات ستتحملها معها لفترة طويلة . علمت بأنّها لن تنسى منه شيئاً ،  
شكل يديه وطعم بشرته وحدّة نظرته .

أدركت أيضاً أن لحظات السعادة هذه ليست ملكاً لها تماماً،  
لأنها ليست «جولييت بومان المحامية».

لكن لا أهمية لكل ذلك. المهم هو أنها تحفظ صور هذه اللحظات المسروقة، وستعرضها في أمسيات وحدتها كفيلم قديم لن تتعب من مشاهدته.

إن ألق ساعات السعادة القليلة يكفي أحياناً ليساعد المرء على تحمل الخيبات والإخفاقات التي تخبيها له الحياة.

لكن الحياة تفرق بين المحبين...

جاك بريفير

### الأحد، الساعة الرابعة بعد الزوال

تساءلت جولييت وهي في التاكسي الذي يقلّها إلى المطار: لماذا وافقت على مجئه؟ تركت سام قبل الزوال لكي تذهب لجلب أمتعتها وتغيير ملابسها من أجل السفر.

اقتصر عليها أن يلحق بها أمام مكتب التسجيل بمطار JFK<sup>(1)</sup>. كان عليها أن ترفض لأنها لا تلمس في نفسها ما يكفي من القدرة العاطفية لكي تحتمل مشهد الوداع المفجع، لكن الوله والضعف جعلاها تقبل.

داعبت أشعة الشمس الساطعة نوافذ التاكسي الذي أنزلها قبالة بهو المغادرين. ساعدتها السائق على إنزال حقيبتيها الثقيلتين. رفعت بصرها ونظرت إلى الكلمة التي خطّت بحروف بارزة فوق هذا الجناح من المطار: المغادرون. الرب وحده يعلم لماذا تذكرت ما قاله لها ذلك الرجل الغريب الذي صادفته في المقهى «ليس بأمر ذي بال لكنه

(1) مطار جون ف. كينيدي. (المترجم)

أمر جليل. فالأمر الصغير ليس عديم القيمة، لكننا لا نقدر انعكاسات أفعالنا دائماً حقاً قدرها. ينبغي أن تكوني على بيته من ذلك قبل انصرافك». ترنّ هذه الكلمات الأخيرة على نحو غريب: قبل انصرافك. وضعت حقيقتيها على إحدى العربات، واجتازت الأبواب الآوتوماتيكية. تمنت ألا يكون سام قد وصل.

ركن سام سيارته في أحد مواقف السيارات التحت-أرضية وقطع الممر المفضي إلى جناح المغادرة.

هو يعلم أنه كان حرياً به ألا يأتي، ولكي يقنع نفسه بذلك، شغل في ذهنه أسطوانة العقل. من المؤكد أنهما عاشا ربيعاً دام يومين، شعرا فيه كما لو أنهما بمفردhemما في العالم، لكنه كان يدرك أن كل ذلك ليس سوى وهم. كانوا بحاجة إلى مزيد من الوقت حتى يستند عود حبّهما الناشئ، ويقوم على قواعد صلبة.

الواقع أنه مشوش تماماً، ذلك لأن ما حلّ به لم يخطر بباله قط. كان لا يزال هائماً في أحلامه، إلا أنه يشعر بالندم على كذبته بشأن فيدريكا، كيف ستنظر إليه جولييت لو باح لها الآن بالحقيقة؟ أستعدُه شخصاً مختلاً نفسياً؟ بالتأكيد. ثم، أليس بالمختل فعلاً؟

عبر البهو إلى أن بلغ شاشة المعلومات. تعرف بسرعة على منطقة التسجيل، فهرع إليها.

كانت تسود بهذا الجزء من المطار حركة نشطة. بحث عن جولييت، وما هي إلا لحظة حتى عشر عليها. كانت مصطفة في الطابور لتسجيل أمتعتها. نظر إليها لحظة قبل أن تراه. كانت ترتدي عوض بذلتها الأنثى جداً بذلة أخرى أريح منها: سروال جينز باليأيشدّه حزام بحلقة وقميص مبرقش، وسترة من جلد الأيل ووشاحاً

صوفياً طويلاً ملوناً، وقد تأبّطت حقيبة جلدية فاتحة اللون، وانتعلت زوجاً من حذاء كونفيرس.

لم تعد هيئتها هيئّة محامية، بل هيئّة طالبة بوهيمية من السبعينيات. وبدت له أصغر وأبسط وأجمل.

لحق بها وبادرها تحت نظرات رب أسرة أرهقه العيال:  
- مرحباً.

أجابته بحيوية:  
- مرحباً.

وضع يده على كتفها وراح ينتظّر بجوارها. شعرا بالبعد رغم أنهما ما زالا قريين، وبدت حركاتهما خرقاء، ولم يعودا يجرآن على النظر أو الكلام إلى بعضهما بعضاً. كانت بضع ساعات من الغياب كافية لكي تتحول الألفة التي نشأت بينهما إلى ارتباك.

لما جاء دور جولييت، ساعدّها سام على وضع حقيبتيها على البساط المتحرك، ثم اقترح عليها أن يتناولا كوب قهوة. تبعته شاردة على نحو آلي، كما لو كانت قد بلغت الضفة الأخرى من الأطلسي، هناك في فرنسا. كانت الكافيتيريا الممتدّ بشكل طولي تشرف مباشرة على المدرجات. جلست إلى طاولة ملتصقة بالنافذة الزجاجية بينما تكلّف هو بطلب المشروبات. طلب لنفسه قهوة بالحليب ولجولييت كاراميلا ماكياتو.

وضع الصينية على المائدة قبل أن يجلس قبالتها. كانت تتجمّب النظر إليه وهي شاردة بينما راح هو ينظر إليها بانتباه أكبر. لاحظ على سترتها الجلدية شارة كتب عليها *I survived NY* ثم أخرى خطّ عليها: *No war -- Make love instead*.

استجتمع شجاعته وكسر الصمت المخيم محاولاً الكلام بصوت العقل:

- أظنّ أننا ارتمينا في حضن بعضنا بعضاً دون أن نفكر . . .  
تظاهرة بعدم سماع ما قال، ورشفت من كوب القهوة وهي تنظر إلى طائرة تحطّ على أحد المدرجات في البعيد.  
- لقد أحرقنا المراحل . . . فأننا لا أعرفك حقّ المعرفة وأنت أيضاً. ننتمي إلى عالمين متباينين، لبلدين مختلفين . . .  
فقطّاعته:

- طيب، لقد فهمت الرسالة.  
سقطت إحدى خصلات شعرها على وجهها، فمدّ يده لكي يزيحها إلى خلف الأذن، لكنّتها صرفته.  
قام بمحاولة أخرى، معتقداً أنه سيبدو لطيفاً وهو يقول:  
- لكن إن عدت إلى نيويورك . . .  
- هكذا إذن، إذا عدت إلى نيويورك، وإذا لم تكن زوجتك موجودة، وإذا رغبت في أن تتسلّى قليلاً، سيكون من الرائق أن نلتقي.

- ليس هذا قصدي.  
رددت وهي تلوح بيدها في الهواء مستخفة:  
- دعك من هذا.  
قال ملحاً:  
- كنت أظنّ أنّ القواعد واضحة . . .  
فصاحت به:

- هلا أرحتني من قواعدي!  
ثم قامت واقفة على نحو مباغت حتى إنّ كوبها تململ وتكسر

على الأرض. عندئذٍ فقط أدرك سام مقدار الأذى الذي ألحقه بها. عبرت جولييت القاعة وهي تغمغم بغضب وغادرت الكافيتيريا محاولة حفظ ما بقي من كرامتها.

وتردّدت في الطاولات المجاورة مراراً عبارة *French girl* كما لو أن سلوكاً كهذا لا يمكن أن يبدر إلا من فتاة فرنسية . . .

مضت جارية وتذكرتها بيدها تعسّ شفتيها حتى لا تبكي. كانت تعلم في قرارة نفسها بأنّ سام ليس مخطئاً تماماً.

ذلك أن يومين من الحبّ غير كافيين بالطبع لنشوء علاقة دائمة، وسحر الحب من النظرة الأولى لا يضمن التوافق والانسجام بين شخصين على المدى البعيد. ثم إن سام متزوج، ويعيش على بُعد ستة آلاف كيلومتر من باريس. يضاف إلى كل هذا، وهذا هو الأهم بالنسبة إليها، أنها كذبت عليه فيما يتعلق بوضعها الاجتماعي.

استمرّت في جريها وقد أحنت رأسها شاردة في خواطرها وألامها، وتنبهت فجأة إلى أنها نسيت نظارتها الطبية في الحقيقة، وأنها تجد صعوبة في قراءة اللوحات الموجّهة. ولمّا بلغت الطابق الأول أخطأت الاتجاه، فعادت أدراجها واستقلّت خطأً سلماً متعرّكاً في الاتجاه المعاكس. كان من الطبيعي أن تدفع بعض المسافرين مما جعل أحد رجال الشرطة ينهرها. انتابها شعور بأنّه أسوأ يوم في حياتها، لكنّ ما كان يتّظرها أدهى . . .

«سيداتي وسادتي، سنشرع في إركاب مسافري الرحلة 714 إلى باريس شارل دو غول من الباب 18. المرجو أن تحملوا تذكرةكم وجواز سفركم. ندعوا أولاً المسافرين الذين سيحتلون المقاعد بين الصفيّن...»



استسلمت شاردة لإجراءات سلامة المطارات حيث نزعت حذاءها وحزامها، وقدّمت بشكل آلي تذكرتها وأوراقها ثم دلفت إلى الطائرة.

كانت الطائرة توشك على الامتلاء، وكانت تسودها حرارة خانقة حتى قبل أن تقلع. التحقت بمقعدها. هي تفضل عادة الجلوس إلى جوار النافذة، لكن هذه المرة كان من نصيبها مقعد في الوسط، بين صبيّ بكاء ورجل بادي البدانة. تنفست بعمق حتى تخفّف من خفقان قلبها وهي عالقة بين هذين الراكبين اللذين يجاورانها.

لم تعد لها في هذه اللحظة سوى رغبة واحدة: أن تنزل من هذه الطائرة لتلحق بسام، لكنّها كانت تدرك أن ذلك غير منطقي، وأنها مجرد أزمة عاطفية تؤشر على أنها دخلت فعلاً سن الرشد.

قالت لنفسها وهي تعدل من جلستها على المقعد: أن الأوان أن تتصرّفي كراشدة وقد بلغت الثامنة والعشرين. عليها أن تكون قوية. لقد اجتازت السن الذي يتصرف فيه المرء حسب هواء. ثُمَّ، ألم تعقد العزم على أن تترّزن؟ على اتخاذ القرارات الحكيمية على غرار أختها . . .

ستمرّغ كبرياتها وتعود إلى فرنسا لتبدأ حياة معقولة. عليها أن تكفّ عن الاعتقاد بأنها أذكي من الآخرين. انطلاقاً من هذه اللحظة، ستكون كالآخرين: ستعيش باعتدال وتحترس من البرد وتشرب القهوة متزوجة الكافيين وتأكل البيو وتمارس الرياضة نصف ساعة كل يوم. وقالت في نفسها موبّخة: لا تتصرّفي كمراهقة. لا تستسلمي لشخص لا يرغب فيك. هذا الرجل لا يحبّك، ولا يستطيع أن يقوم بشيء لثنيك عن السفر.

كان ثمة بالطبع ذلك التوافق النام الذي دام يومين، لكنه مجرد

وهم: إنها أسطورة الحب من النظرة الأولى التي يروج لها الأدب والسينما.

كبتت، وهي مرهقة، الرغبة في التثاؤب بينما نزلت على خدها دمعة بسبب الإنهاك. فهي لم تنم تلك الليلة، ولم تنم إلا قليلاً الليلة التي قبلها. كان كلّ جسدها يؤلمها. قالت لنفسها لأول مرة في حياتها أنه من الأجرد أن تظل بعيدة عن الحب.

بينما كان آخر المسافرين يلتحقون بمقاعدتهم، ربطت حزامها وأغلقت عينيها.

ستصل إلى باريس في غضون ست ساعات ونيف. هذا ما كانت تظله على الأقل.

لما خرج سام من المطار وقد ارتاح تقريباً لهذه النهاية، كانت الشمس قد بدأت في المغيب. سيختيم الظلام بسرعة الآن. انتظر قليلاً قبل أن يتمكّن من عبور الممرات الثلاثة ليصل إلى الموقف حيث ركن سيارته. كان الناس يعودون ذلك المساء من عطلة نهاية الأسبوع، وسيارات الأجرة غارقة في سباقيها المعتاد مع الزمن.

أشعل سام سيجارة بولاعته المعدنية القديمة المتأكلة. سحب نفساً عميقاً ثم أرسل الدخان في هواء الليل البارد. لماذا كان يشعر بكل هذا الإنهاك؟ على كل حال ما كان بوسعي أن يتطرق شيئاً من هذه الحكاية، فلا مكان لجولييت في حياته. ثم هناك تلك الكذبة وعبء ماضيه الذي لم يُشفَّ منه بعد، والذي لا تعرف عنه جولييت أي شيء.

ومع كل ذلك كان عليه أن يعترف بأن هذين اليومين اللذين

قضاهما مع جولييت خفّفا عنه بعض ما كان يشغل على قلبه. شعر أخيراً بأنه تحرّر من هذا القلق الذي يسكنه منذ الطفولة. وبينما كان يهم بالنزول من الرصيف لعبور الطريق، شدّته قوة غريبة في مكانه لحظة مرور حافلة بسرعة جنونية بمحاذاته. كلا، لن يترك هذه الفرصة تفلت. لو رحلت جولييت الآن، سيندم على ذلك طول حياته. وتهيأ له فجأة بأنّها لم ترك الطائرة وأنّها تتّظره في بهو المطار الشاسع.

عاد أدراجه جارياً كالبرق. اعتقاد للحظة أنّه تجاوز لوعة الحبّ وألام الفراق، لكنّ الأمر لم يكن كذلك. فقد كان الحبّ يخيفه بمقدار ما كان يجذبه، ولأول مرّة ساورته رغبة في أن يحيي وينسى كلّ مخاوفه الماضية. لأول مرّة خال أنّ هذا ممكناً بفضل امرأة لم يكن يعرفها قبل ثمان وأربعين ساعة: إنّها الأمل الأخير لرجل بلا أمل.

بلغ بهو المطار جارياً: لا أثر لجولييت. بحث وبحث بلا جدوى.

دنا من النوافذ الزجاجية ولاحظ له طائرة الرحلة 714 وهي تصل إلى نهاية المدرج. كان الأوّان قد فات. وافتّه الفرصة، لكنه أهدرها. كانت تكفيه كلمة واحدة: ابقي! لكنه لم ينطقها.

وقفت الطائرة قليلاً ثم انطلقت مسرعة باندفاع لكي تقلع، وظلّ سام يتأنّلها لوقت طويلاً إلى أن اختفت في الأفق.

\*

راح يراقب المدينة من داخل سيارته. خيم الليل على المدينة دون أن ينتبه لذلك. لم يسبق له أن أحسّ بمثل هذا الشعور قط:

الحاجة الملحة إلى شخص كحاجة مدمن إلى المخدر. ركن السيارة بأحد شوارع شيريدن سكوير الجانبية، وخطا بضع خطوات في البرد دون أن يشعر بالرغبة في العودة إلى بيته. كان متوجسًا من أن يجد نفسه وحيداً في شقة عاش فيها لحظات سعيدة، شقة كانت للحظة جزيرة بهجة وسرور وسط عالم كلّه اضطراب.

تذكّر وهو يمشي وجهها ورائحتها وشكل ابتسامتها وكذا جذوة الحياة المتقدّة بداخلها. ولكي يطرد الذكريات التي تكالبت عليه، دخل لأول حانة صادفها في طريقه.

لم يكن «سيليك بار» بالمكان الهدئ الذي يستطيع فيه المرء أن يلعب لعبة النرد أو الشطرنج، بل حانة عصرية حفيفه تصدع أرجاؤها بأرفع ألوان الموسيقى.

شقّ سام طريقه بصعوبة ليلغ الكونتوار الذي كانت تحيط به مجموعة من النادلات بسراويل بالغة القصر، يحملن في أيديهن بخفة زجاجات من طراز كويوت غيرل<sup>(1)</sup>.

وفي أقصى القاعة ازدحم حشد من الزبائن حول شاشة عملاقة تبثّ مباراة في كرة القدم. ذلك لأنّ الموسم بدأ من توّه، والصراع على البطولة يبدو شرساً. كان ذلك المساء بالنسبة إليهم لا يختلف عن مساءات أيام الأحد الأخرى.

كان سام ينظر إليهم دون أن يراهم. طلب وهو شارد في آلامه مشروباً قوياً متأسفاً على أنه لا يستطيع أن يشعل سيجارة.

ثم توقف بث المباراة فجأة ليغوصه برنامج آخر استقبله الزبائن

---

(1) Coyote Girls كوميديا درامية أميريكية أخرجها ديفيد ماكناللي (David McNally) سنة 2000. (المترجم)

بالصمت بادئ الأمر، ثم تعلّى الهاتف إثر ذلك: يا إلهي! يا إلهي!  
كارثة!

لم تعد الشاشة التي تحلقت حولها جماعة حاشرة تبدو لسام من الكونتوار. تردد في البداية في الاقتراب لعله يعرف هذا الخبر الرهيب الذي جعل الناس في هذه الحالة، لكن لا شيء في الواقع كان يعنيه: ففي غمرة محنته، حتى خبر اجتياح كائنات فضائية للأرض ما كان ليحرك فيه ساكناً.

لكنه حمل كأس الفودكا مع ذلك وعبر القاعة، فأيقظت الصور التي رأها على الفور في نفسه قلقاً عميقاً. دفع بعض الأشخاص لكي يقترب من الشاشة. كان عليه أن يتثبت من الأمر!

شريطة ألا يكون...  
لكته للأسف...

ظل مشدوهاً إذن والخوف يعصر قلبه، ثم شعر بقدميه يتشنجان، وسرت في جسده قشعريرة شديدة.

تهب الريح حيث شاء...

الأنجيل

حي سكني بأولناي سو-بوا.

ضبطت ماري بومان مُنتهاها على الساعة الخامسة صباحاً. ستحط الطائرة التي تقل ابنتها على الساعة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة بمطار رواسي، وهي لا ترحب في التأخير عن الموعد. غغم زوجها في الجهة الأخرى من السرير بتذمر وهو يسحب الغطاء عليه:

- أترغبين في أن أرافقك؟

فهمست ماري وهي تضع يدها على كتفه:

- كلا، واصل نومك.

لبست مبدلاها بسرعة ونزلت السلم باتجاه المطبخ. استقبلها كلب بالنباح مرحباً بمجيئها، فقالت له موبخة:

- كفى يا جاسبر، ما زال الوقت مبكراً.

كان الليل في الخارج بارداً وعدائياً. ولكي تكون في كامل يقظتها، حضرت كوباً من القهوة الفورية، ثم كوباً آخر. همت وهي تقضم خبيزة سويدية بتشغيل المذيع لمتابعة الأخبار، لكنها أعرضت

عن ذلك حتى لا تثير الضجيج. كبحث رغبة في التأهب، فهي لم تتم جيداً هذه الليلة. استيقظت حوالي منتصف الليل مذعورة تتضخ عرقاً كما لو انتابها كابوس، لكن الأغرب هو أنها كانت عاجزة عن تذكر ما حلمت به على وجه التحديد. على كل حال أرعبها ذلك بحيث حرمتها النوم بقية الليل، وأثار هواجسها.

استحمّت في طرفة عين وارتدى ملابس دافئة، وثبتت للمرة الأولى من المعلومات التي بعثت بها جولييت:

الرحلة: 714

الانطلاق: مطار JFK الخامسة مساء، الجناح رقم 3

الوصول: مطار شارل دوغول CDG السادسة وخمسة وعشرون دقيقة، الجناح 2F

ضغطت على مفتاح السيارة فانفتحت. لم يكن المطار بعيداً، وحركة المرور في هذه الساعة لا تزال لا تطرح مشكلة، وبذلك ستبلغ روسي في غضون عشرين دقيقة. جرى جاسبيير خلف السيارة لخمسين متراً تقريباً، لكن ماري قاومت الرغبة في أخذها معها.

فكّرت خلال الطريق في جولييت بحنان. كانت لها بنتان تكن لهما الحبّ نفسه، وهي مستعدة لتمكنه كلاً منها أكثر من حياتها، لكن عليها أن تعرف بأنّها كانت تعطف بشكل خاص على جولييت، لأن ابنتها الأخرى أوريليا اختارت بعناد طريق الامتنالية و«إعطاء الدروس» الذي بمقدار ما كان يشعرها بالقرف، وكان يدخل البهجة على قلب زوجها.

لم تكن جولييت تتفاهم مع أبيها. وهو لم يوافق قطّ على أن تختار ابنته البكر دراسة الآداب الكلاسيكية التي لم تكن طريقها سالكة لسوق العمل. كما أنه اعترض بشدة على فكرة المسرح، واعتراض

أكثر على سفرها إلى الولايات المتحدة. كان يفضل أن تختار مهنة تخولها وضعًا مستقرًا: مهندسة مثلاً أو خبيرة حسابات على غرار ابنة الجيران التي حصلت منذ وقت قصير على دبلومها بتفوق.

أما ماري، فدافعت عن ابنتها. كانت تدرك تماماً أن طموح جولييت لا يتمثل في تحقيق وضع اجتماعي مستقر. هناك شيء واحد مؤكد هو أنها فتاة متخلقة وشجاعة. كانت تُعرض دائمًا في اختياراتها عن الرداءة، وهذا هو مبعث إعجاب أمها بها وإن كانت تعني بأن ابنتها هشة رغم ما تظهره من صلابة. لقد لمست مراراً في صوتها نبرة الخيبة لما كانت تكلّمها في الهاتف. لم تُظهر جولييت يوماً تبرّماً، لكن ماري تعلم أن هذه السنوات التي أمضتها في أميركا لم تكن كلّها سعادة. ولكنها تساعدها، كثيراً ما كانت تبعث لها ببعض المالخفية دون علم زوجها. ولعل ما كان يُحزنها أكثر هو أن ابنتها لم تعثر بعد على شريك حياتها. فرغم كلّ ما ينشر في الصحافة من مقالات عن «العزاب الجديد» الذين يعزفون عن الزواج ويختارون «العيش بمفردتهم»، فإنّ الإنسان بحاجة دائمة إلى شخص يحبّه. ورغم أنّ ابنتها تزعم العكس أحياناً، فإنّها لا تخرج عن هذه القاعدة.

أخذت ماري الطريق المفضي إلى الجناح 2F من المطار. لماذا ما زال قلقها يتعاظم؟ زادت في جهاز التدفئة قليلاً ثم تفختست الساعة الرقمية في لوحة القيادة. ممتاز، ستكون في الموعد تماماً على أمل أن تكون الطائرة في الموعد كذلك.

هي الآن في إحدى الطرق المؤدية إلى موقف السيارات بالمطار. ورغم الوقت المبكر، كانت تسود بهذا المكان حركة غريبة. مررت بمحاذة سيارة تابعة للقناة الفرنسية الأولى ثم أخرى لقناة تلفزيون فرنسا. وفي مكان أبعد شخص يحمل كاميرا ويصور المطار بينما

مضى أحد مراسلي محطة إذاعية يستجوب بعض الموظفين. عند هذه اللحظة انتاب ماري شعور دفعها للقيام بما رفضت القيام به منذ استيقاظها: شغلت مذيع السيارة.

قناة أوروبا الأولى صباح الخير، تشير الساعة إلى السادسة والنصف صباحاً، إليكم عناوين النشرة: كارثة جوية رهيبة في سماء المحيط الأطلسي...



أقلعت الطائرة التي ستقوم بالرحلة 714 من مطار كينيدي على الساعة السابعة وست عشرة دقيقة حسب التوقيت المحلي وعلى متنها 152 راكباً وطاقماً مؤلفاً من اثنى عشر عضواً، وذلك في رحلة متقطمة باتجاه باريس.

كان يقودها طيار يدعى ميشيل بلاشار، ثمانية عشرة سنة من الخدمة، وهو خبير بالملاحة الجوية، ولم يكن من أولئك الشباب المبتدئين الذين يقومون بعدة محاولات قبل أن يعثروا على المسار والعلو المناسبين. وقد قام بهذه الرحلة التي تربط بين نيويورك وباريس عدداً لا يحصى من المرات، دون أن يواجه أدنى مشكلة. وكان يحب أن يُطلع ركاب الطائرة على ظروف الرحلة، ويدلّهم على أبرز الأماكن التي يحلّقون فوقها.

كانت قائمة المسافرين تمثل مجتمعاً مصغرًا: فهي تضمّ رجال أعمال وأسرًا وأزواجاً من الشباب أرادوا الاستمتاع بعطلة نهاية أسبوع غرامية، ومجموعات من المتقاعدين... وكانت الأحاديث مزيجًا من اللغتين الفرنسية والإنجليزية.

وممّن كانوا بين الركاب أيضاً كارلي فيورانتينو البالغة من العمر

ثلاثين سنة، وهي الملحة الصحفية الخاصة بمجموعة روك كانت متشرّع جولتها الأوروبيّة في اليوم الموالي. كان لكارلي شعر جميل خشن ينحدر كالقضبان، ومظهر أنيق ونظارات شمسية تحمل علامة عالمية قلّما تفارق عينيها، لكنّ كارلي كانت تخاف ركوب الطائرات، وللتغلب على خوفها هذا جربت كل شيء: الأقراص وتمارين التنفس . . . دون جدوى. وهي في هذا اليوم تجرب وسيلة أخرى: قبيل مغادرة الفندق أفرغت نصف محتوى الميسي بار حتى تصل إلى المطار ثملى، وكانت تعقد آمالاً على الكحول عساه يساعدها على التغلب على هواجسها.

بلغت الطائرة أقصى المدرج، توقفت ثم انطلقت بسرعة.

تشبّثت مود جودار، وهي تاجرة متّقاعدة في السبعين من العمر، بيد زوجها. إنّها المرأة الأولى التي يحلّ فيها الزوجان بنيويورك. فقد زارا حفيدهما الذي تزوج من أميركية وأقاما مزرعة ل التربية البطّ والخرفان بوادي هودسون. تملّك مود شعور بالذعر، لكنّ لما نظر إليها زوجها تصّنت الابتسامة حتّى لا تثير هواجسها. خمّن مخاوفها فطبع على عينيها قبلة. قالت في نفسها إنّ قدرت لها الموت هذا اليوم، فستكون في حضنه على الأقل. ورغم ما في هذه الفكرة من جنون فقد طمأنتها.

جرى الإقلاع على خير ما يرام. وفي اللحظة التي فارقت فيها الطائرة الأرض، شعر أنطوان رومبير فجأة بوخذ خفيف في أسفل بطنه. لقد جال هذا المراسل الكبير كل أصقاع العالم لتغطية آخر التزاعات الكبرى: كوسوفو، الشيشان، أفغانستان، العراق . . . ووجد نفسه مراراً وسط النيران والمخاطر، لكن فكرة الموت لم ترهبه يوماً، وبذلك ما كان لرحلة على متن طائرة مدنية أن تخيفه. ومع ذلك،

فمنذ ميلاد ابنه قبل ذلك بأشهر، لمس في نفسه شيئاً من الضعف وكان عليه أن يعترف بأنه لم يُعد محضنا ضدّ الخوف. قال في نفسه: إنه لشيء غريب! يجعل الإنجاب المرأة قوياً وضعيفاً في الآن نفسه، وهو ما لم يخطر له على بال من قبل.

بعيد مغادرة منطقة نيويورك، تكلّف مركز مراقبة بوسطن بالطائرة. وراح الركاب يستمتعون، بدعة من قبطان الطائرة، بلون السماء البرتقالي المتقد كلهب مدفأة.

بينما كانت مارين، إحدى المضيفات، تحضر أطباق الأكل، فكّرت في خطيبها الذي سيأتي للقائها بأورلي على الساعة السادسة صباحاً. تعود جان كريستوف عموماً على الاستفادة من تخفيض أوقات عمله يوم الاثنين، حيث يحضر لها فطوراً رائعاً من عصير البرتقال والأنanas والكيوي، ثم يصافحها وينامان حتى الزوال. كانت متشوقة للوصول، ومضت تردد أغنية يوم الاثنين تحت الشمس لكتلود فرانسا.

على الساعة الخامسة وأربع وثلاثين دقيقة، أيّ بعد أقل من نصف ساعة على الإقلاع، وبينما كانت الطائرة تحلق على ارتفاع يناهز ثلاثين ألف قدم، شمّ مساعد الطيار رائحة غير عادية: غمر حجرة ملاحي الطائرة دخان كثيف ولاذع...

بعد دقيقتين، تسرب قليل من الدخان إلى قمرة القيادة. فقال كلّ أعضاء طاقم القيادة في نفوسهم: اللعنة! بعد ذلك بدا أن الدخان اختفى بالسرعة نفسها التي ظهر بها، فخفّ التوتر قليلاً.

قال القبطان :

- هناك مشكلة في جهاز تكيف الهواء.

بَثَ بلانشار بصوت هادئ رسالة «بان بان» التي تعني في لغة الملاحة الجوية أنّ المرسل في وضعية حرجة ، لكنّها ليست يائسة .

بحث كارلي عن قرصين في جيب حقيبتها، ذلك أنّ كمية الكحول الكبيرة التي شربت تسبّبت لها في الصداع ، وتضاعف الطنين من حولها بحيث صارت تشتبه في أبسط ضجة . وممّا زاد الطين بلّة ، أنها أحست بتشنجات في معدتها ، وبدأ الصبي الجالس بجوارها يشير أعصابها بابتسامته البليدة . تأكّدت من أنّ إشارة ربط الحزام مطفأة ، ثم قامت لتذهب إلى المرحاض قبل أن يصطف الركاب أمامه في طابور . قام مايك البالغ من العمر أربع عشرة سنة ، والذي أُلصق جهاز الآيّاد على أذنيه لكي يسمح للجالسة بجواره بالمرور ، وهي امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها على الأقل ، ثم اشرأب برأسه ليطلّ من النافذة . كان يعشق الطائرة ، ويتاباه في كل مرّة ركبها شعور بالسيطرة على العالم . يا للسعادة ! بل إنه يتمتّى وجود بعض الاضطرابات الهوائية في الطريق . رفع صوت الجهاز الذي يضعه على أذنه متظراً بنفاذ صبر أن تأرجح الطائرة في أحد ثقوب الهواء على إيقاع موسيقى الراب لـ Snoop Doggy Dog .

«سيداتي سادتي، يتحدّث إليكم القبطان ميشيل بلانشار. بسبب بعض المشاكل التقنية، سنضطر للنزول ببوسطن لكي نجري بعض الفحوص. من أجل راحتكم وسلامتكم، نلتمس منكم أن ترفعوا لوحة مقعدكم، وأن تربطوا حزام السلامة وتبقوا جالسين حتى تطفأ الإشارة الضوئية».

بدأت الطائرة تخفّف من علوها لكي تهياً للهبوط. بعد التكّلّم مع مصالح حركة الملاحة الجوية، تلقى القبطان الإذن بتغيير اتجاه الطائرة نحو بوسطن لوغان، لكن الدخان عاد للأسف إلى قمرة القيادة.

فهم الطاقم إذن أنّ حريقاً زاحفاً يتشرّ في السقف . . .

خضعت الطائرة قبل إقلاعها لفحص دقيق كما تنصّ على ذلك القوانين، قام به موظفو مؤهلون. ثُمَّ إنّ عمر الطائرة يقلّ عن ثمانية سنوات. وقد خضعت للمراقبة المشدّدة وكلّ الفحوص الإلزامية التي تتردّد في حياة كل طائرة: check A الذي يُجرى في المعدل بعد ثلاثة أيام من الطيران، و check C الذي يُجرى في المتوسط بعد أربعة آلاف ساعة طيران. ثُمَّ أخيراً الفحص الكبير الذي يُجرى بعد أربع وعشرين ألف ساعة طيران، أيّ مرتّة كل ست سنوات تقريباً. وقد توقفت الطائرة بهذه المناسبة ستة أسابيع بحيث شرّحها الفنيون والمهندسو ففحصوها فحصاً دقيقاً.

كانت تابعة لشركة غربية كبيرة، إحدى أكثر الشركات أماناً في العالم، ولم تكن تابعة للطيران العارض (الشارتر) تؤجرها شركة حقيقة. كان كلّ واحد قد قام بعمله على أكمل وجه، ولم يكن ثمة أيّ إهمال. لم يقصّر أحد في الصيانة.

مع كلّ ذلك، ولسبب لا يعلمه إلا الرب، شبّ حريق في السقف مباشرة، والدارة الكهربائية لم تصدر أيّ إشارة، مما جعل الطاقم لم ينتبه للحريق إلا بعد فوات الأوان، بحيث صار من المستحيل السيطرة عليه.

أغلقت كارلي خلفها باب المرحاض وجالت بيصرها في هذا

المكان الضيق، وقالت في نفسها وهي شاردة: هناك من يزعمون أنهم جامعوا هنا، بودي أن أعرف كيف يمكن ذلك...  
بلغت وجهها بالماء البارد. كان قرارها حاسماً: لن تركب الطائرة ثانية فقط. إنه لشيء رهيب أن يفقد المرء السيطرة على مصيره تماماً. إنها مستعدة للتغيير مهنتها لو لزم الأمر، لكن هذا ما تقوله في كل مرة.

ترك أحدهم على أحد جدران المرحاض كتابة بحروف باللغة الصغر أثارت فضولها. اقتربت منها لعلّها تستطيع فك طلاسمها، فقرأت: Men plan, God laughs<sup>(1)</sup>، وبينما هي تفكّر في هذا القول المأثر أبصرت فجأة إشارة return to seat تومض وهي ترتجف فوق رأسها.

في تلك اللحظة نفسها وضعت أم بيلي، في إحدى ضواحي كويتز، وعاء من الحساء فوق حامل خشبي مليء بالأقراص المدمجة كان يُستعمل كمائدة وكتاولة سرير.  
- استرح جيداً يا حبيبي.  
ثم قبلته على جبينه.  
- ألا تشعر بالأسف على تخلفك عن الرحلة المدرسية إلى فرنسا؟

أوما بيلي بالنفي وهو مستلقٍ في سريره وقد وضع كمادة على رأسه. وما كادت أمّه تغادر الغرفة حتى قام ورمى بالحساء من النافذة. فهو يكرهه. زاره الطبيب في البيت ذلك الصباح، لكنه نجح في

---

(1) العبد في التفكير والرب في التدبير.

التحايل عليه إذ تظاهر بأنه يعاني من نوبة أنفلونزا شديدة. كان يقوم بكلّ هذا للضرورة. فقد انتابه في الليلة السابقة ذلك الكابوس المروع، الواضح والعنيف، الذي رأى فيه ألسنة اللهب تلتهم الطائرة، وعدهاً كبيراً من الناس يصرخون.

كان بوده أن يخبر الآخرين، لكنه أعرض منذ فترة قصيرة عن الحديث عن رؤاه. على كلّ حال، لن يصدقه أحد.

آوى إلى فراشه وأشعل خلسة شاشة لعبته التي كان يستعملها كشاشة تلفزة. تشدّ في تلك الأثناء مباراة في كرة القدم كلّ الأنظار، لكنه كان يعلم أن ذلك لن يدوم طويلاً.

ورغم كلّ ذلك، كان يصلّي بصوت عالي لعلّ نبوءته تخطئ.

في الخامسة وأثنين وأربعين دقيقة، وجه القبطان بلانشار نداء الاستغاثة: Mayday! Mayday! Mayday! ليعلن بأنّ الطائرة في حالة خطر كبير، وعبر عن نيته في الهبوط فوراً بمطار بوسطن.

في تلك اللحظة نفسها فتح بروس بوكر، وهو شاب في الخامسة والعشرين من العمر، عينيه بإحدى غرف ولدورف أستوريما وكبح رغبة في التثاؤب، ثم لاحظ أنه تخلف عن الطائرة. ذلك أنه بالغ في الشرب مع المؤمنتين اللتين غادرتا غرفتها عند الفجر. كان قد حجز مقعده منذ بضعة أسابيع على متن الرحلة 714.

كان عليه أن يمضي أياماً بباريس ثم يلحق ببعض أصدقائه بإحدى محطات الرياضيات الشتوية بسويسرا.

هكذا، فقد تخلف عن كل ذلك! نظر في المرأة فبدا لنفسه تافهاً. لقد آن الأوان ليرشد ويُغيّر رُفاته

وقيمه وكل شيء، لكنه لا يملك الشجاعة لذلك. يدور بخلده أحياناً أن يوماً سيأتي يقع له حادث يمنحه القوة ليسلك سبيلاً مختلفاً، حادث يدفعه ليصير شخصاً أفضل، لكنه لم يكن يعرف في أي صورة سيتجلى له ذلك.

خلع ملابسه ووقف تحت الرشاش وهو يلعن. لكنه سيشغل التلفاز بعيد ذلك بدقايق، فتتغير حياته.

تفاقم الوضع في قمرة القيادة إذ صار من الصعب على الطيارين التحكم في شاشات لوحة القيادة بسبب الدخان والحرارة، ولم يعودا يصراز شيئاً مما يقع بالخارج.

في الخامسة وسبعين وثلاثين دقيقة، كانت الطائرة لا تزال تظهر على شاشات رادار مراقبة الملاحة الجوية. ثم حلّت تلك الثوانى الرهيبة التي شرعت فيها الطائرة تهتزّ في كل الاتجاهات وسط صراخ الركاب. انزلقت أقنعة الأكسجين من السقف وراحـت المضيـفات تـشـرحـنـ كـيفـ تـنـفـخـ صـدـارـياتـ النـجـاةـ وهـنـ يـعـلـمـنـ بـأـنـهـاـ لـنـ تـفـيدـ فـيـ شـيـءـ.

سيكون من باب الافتراء الزعم بأن كل شيء من بسرعة وأن لا أحد شعر حقاً بما كان يحدث. لقد رأى جميع الركاب ألسنة اللهب تلتهم القمرة، والهلع الذي تملّكتهم دام بما فيه الكفاية ليدرك كل واحد منهم أنها النهاية.

تغير لون مايكِ منذ دقائق، وقال في نفسه مرهوباً: النكبات لا تحلّ بالأخرين فقط.

فكّرت كارلي أنها فشلت في حياتها، وندمت على عدم زيارة

أبيها. لقد مرّ عام وهي تؤجّل زيارته لأسباب تافهة في الأغلب. التفتت نحو الجالس بجوارها ولاحظت بأنّها ستموت بجانب غلام في الرابعة عشرة من عمره لم تكن تعرفه قبل نصف ساعة من ذلك. مع ذلك مدت له يدها فتشبت بها وهو يتحبّ.

فكّرت مود وهي في حضن زوجها بأنّ حياتها كانت طيبة، لكن بوذها لو عاشت أشواطاً إضافية. فمما لا شك فيه أنّ المرء يتعود على السعادة بسرعة.

كان يوجد في الشبكة اللاصقة بمقدّها كتيب يهدف إلى التهويين من مخاطر السفر جوّاً. وهو يورد معطيات إحصائية غزيرة للغاية منها أنّ ستة آلاف طائرة تجوب السماء كل يوم، وأنّ واحدة فقط من بين مليون تعرّض لحادث خطير، مما يجعلها أكثر وسائل النقل أماناً، وهو أمر صحيح.

في الخامسة وثمان وثلاثين دقيقة التقط أحد هواة الراديو صدفة آخر كلمات القبطان بلانشرار: «إننا نسقط! إننا نسقط!» بعد ذلك بثوانٍ اختفت الطائرة نهائياً من شاشات المراقبة وفي تلك الأثناء سمع سكان شارلي كروس، وهي قرية صغيرة بنيو إنجلاند، دوي انفجار عنيف. خطرت لأنطوان رامبير، صحفي الحرب، في لحظاته الأخيرة فكرة عن ابنه. ثم تذكر من جديد، هو من كان يعتقد أنه أبعد ما يكون عن العاطفة، أول قبلة قام بها قبل عشرين عاماً في ساحة الثانوية الفرنسية بميلانو. كان اسمها كليمانس لا بيرج، فتاة في الثالثة عشرة، وكانت ذات شفتين ناعمتين. قبل تحطم الطائرة على المحيط بثانية واحدة، قال أنطوان في نفسه إنّ براسيز لم يكن مخطئاً في نهاية المطاف: لا ينسى المرء أبداً أول فتاة ضمّها في حضنه...



دخلت ماري بومان إلى المطار مرتعشة ومحمومة كما لو دخلت إلى مجزرة. لماذا رفضت أن يرافقها زوجها؟ شعرت بأنها لن تستطيع التحمل بمفردها. ساورها لبرهه أمل يائس. ماذا لو أن جولييت ركبت الطائرة الموالية . . .

لا تزال ثمة فرصة، فرصة واحدة من أصل عشرة آلاف أو مائة ألف أو مليون؟ كلا، كانت ماري تعلم أن ذلك مستحيل: فقد هاتفتها ابنته قبل ساعات فقط من ركوبها الطائرة لتأكد لها المعطيات المتعلقة بالرحلة.

توجهت إلى المكان الذي يفترض أن يخرج منه المسافرون القادمون من نيويورك. كان حاشداً بالكاميرات ورجال الشرطة، وكان وزير النقل حاضراً وهو يصرّح للصحافة بأن كل الاحتمالات واردة إلى حدود تلك اللحظة فيما يتعلق بأسباب الحادث.

توجهت ماري بالدعاء للرب والقدر والصدفة . . . :

أنقذها! أنقذها! وسأفعل كل ما تريده! أعد لي ابنتي! صغيرتي! لا يعقل أن تموت في الثامنة والعشرين! ليس اليوم! وليس بهذه الطريقة! صعقها الشعور بالذنب والندم على أنها تركتها تهاجر بمفردها إلى بلد المجانين ذاك. لماذا لم تستيقظها لفترة أطول بجوارها في البيت؟ لاحظ موظفان من مطار باريس ارتعابها فقصدوها ووجهها بلطف إلى خلية الأزمة والمساعدة السينكلولوجية التي أقيمت لاستقبال عائلات الضحايا.

كان ذلك اليوم بالنسبة إلى الدكتورة ناتالي ديليرم، الطبيبة الرئيسة بمطار باريس، من أحلك أيامها في العمل. ذلك أنها استقبلت عشر أسر، ولم تكن تلك سوى البداية. كانت ترأس فريقاً مكوناً من طبيبين

نفسين وثلاثة أطباء أُمراض عقلية وخمس ممرضات. استقرّوا في إحدى قاعات الجنح بعيداً عن الجلبة، وكانت مهمّتهم تمثّل في إخبار الأسر والتخفيف من معاناتهم. أمسكت ناتالي في يدها لائحة المسافرين التي زودّوها بها. يخضع الإجراء دائمًا للطقوس نفسها: في البداية يبادرك صوت متهدّج قلق: «هل أخي / أختي / والدائي / أولادي / خطيبتي / صديقي / زوجي / أسرتي / أصدقائي... كانوا على متن الرحلة؟» تطلب ناتالي إذن الاسم وتراجع اللائحة. لم يكن الأمر يتطلّب إلا بضع ثوانٍ، لكنّها تطول وتتحول إلى محنة رهيبة. تجيب ناتالي: «كلا»، فيحلّ الفرج الإلهي، ويكون أجمل يوم في الحياة... أو تجيب «نعم»، فيحلّ الانهيار.

كان من الصعب توقع ردود الأفعال. فبعض الأشخاص الذين صرّعهم الحزن يصابون بالحبسة، بالمقابل ينهار آخرون وقد تعالي صراخهم من الألم الذي يُضخّمه صدى المطار.

كانت ناتالي تعلم أن هذا اليوم سيظلّ منقوشاً في ذاكرتها إلى الأبد. فقد سبق لها أن كانت ضمن الفريق الطبي الذي شُكّل خلال كارثة شرم الشيخ، وهي لا تزال تعاني من آثار ذلك إلى اليوم، لكتها لن تقبل أبداً بتغيير هذا المكان بمكان آخر. ستساعد الناس على التعبير عن آلامهم، ودعمهم حتى يجتازوا هذه المحنّة ويستحملوا وقع المأساة.

لما دخلت ماري إلى القاعة، تقدّمت نحوها ناتالي:  
- أنا الدكتورة ديليريم.

قالت ماري:  
- أسأل عن أخبار ابنتي جولييت بومان. كان من المفترض أن تكون ضمن ركاب هذه الرحلة...

كانت قد أوشكت على استرجاع هدوء ظاهري رغم أن العاصفة التي اجتاحت جسدها تهدّد بتحطيم كل شيء.

حدّقت ناتالي في اللائحة ثم صمتت. جولييت بومان...؟ كانت قد تلقت تعليمات خاصة بشأن هذه الحالة. فقد طلب منها رجال الأمن منذ بدء فترة دوامها بأن تخطرهم على وجه السرعة بأي شخص جاء يسأل عن هذه المسافرة.

طلبت ناتالي على نحو آخر:

- انتظري لحظة يا سيدتي.
- ثم انصرفت فوراً.

لكن الأوّان كان قد فات. شرعت ماري في البكاء بصمت مستسلمة لعواطفها وقد أيقنت من أنّ النهاية مفجعة.

لحقت ناتالي بالشرطيين اللذين كانوا في الحراسة بزيهما الرسمي، وشرحـت لهما الموقف، وما هي إلا لحظات حتى رأت ماري تلك الكتلتين الزرقاء تسقطان عليها كجدار عظيم.

- السيدة بومان؟

حرّكت رأسها وقد ترققت الدموع في عينيها، وهي لا تفهم ما يقع.

- هلا تفضّلت معنا.



كل من يحيون أمامهم أمل، بل كلب حي  
أفضل من أسد ميت.

سفر الجامعة

**الاثنين صباحاً بمفوضية المقاطعة الواحدة والعشرين**  
- يمكن أن تستجوبها يا سيدى، إنها في الغرفة.  
أجاب المفتش فرانك دي نوفي وهو يقوم واقفاً:  
- أنا آتٍ.

قبل أن يغادر مكتبه، تمهل قليلاً أمام التلفاز. كان الجهاز موجهاً على قناة إخبارية تبث آخر صور التحطّم.  
كان المعلق يشرح:

«تم تطويق المنطقة مباشرة بعد الحادثة. واستستمرّ عمليات البحث، لكن قوة الاصطدام كانت من الشدة بحيث يُستبعد العثور على أحياء، ولم يعثر إلى حد الآن سوى على ثلاثة جثثة». طوّقت باخرات عسكرية المنطقة وجابت المحيط جوقة طائرات عمودية. وعند الاقتراب من الشاشة، لمع دي نوفي قطعاً من قمرة القيادة وأمتعة ممزقة وسترات إغاثة تطفو على سطح الماء.  
«ما زلنا نجهل رسمياً ما إذا كان الأمر يتعلق بحادثة أم بعمل

إرهابي. فقد تلقت الجزيرة مكالمة من مجهول ينتمي إلى جماعة إرهابية غير معروفة يؤكد فيها وضعه قنبلة على متن الرحلة 714، لكن هذا الادعاء ينبغي أن يؤخذ بحذر شديد، وقد اعترفت السلطات بأن هذه المكالمة ليست لها أي مصداقية.

من ناحية أخرى قد تكون شرطة نيويورك بصدق التحقيق مع مشتبه به لم يكشف عن هويته بعد. وربما تعلق الأمر، حسب بعض المصادر، بشابة غادرت الطائرة على حين غرة قبل دقائق من إقلاعها . . .

ضغط فرانك دي نوفي بعنف على زر التوفيق بجهاز التحكم عن بعد. كان زملاؤه في المطار ما زالوا يشرثرون مع الصحفيين! في غضون ساعات، سيعلم الجميع أنهم أوقفوا تلك الفرنسية.

دخل إلى الغرفة الصغيرة المجاورة لقاعة التحقيقات ثم أدار الزرّ لتشغيل المرأة العاكسة من جانب واحد، فلاحت له على نصف الجدار صورة امرأة شابة جالسة على مقعد. كانت مكتبة اليدين، شاحبة، تنظر بعينين متعبنين في الفراغ وهي لا تفهم ما يحصل لها. تفرسها دي نوفي، ثم نظر في مفكرته. كانت تدعى جولييت بومان، أوقفتها شرطة مطار جون كينيدي الليلة السابقة بُعيد تحطم الطائرة. وهم يوضّحون في تقريرهم أنها طلبت مغادرة الطائرة دقائق قبل إقلاعها، مما جعل سلوكها الغريب يثير فضول رجال الجمارك، فاستدعواها من أجل مراقبة روتينية. بعد تدقيق بسيط أملته الإجراءات الأمنية المشددة منذ الهجمات، تحول ذلك التدقيق إلى توقيف. ذلك أنّ الفرنسية لم تتعاون، إذ صرّحت بأنها كانت مستعجلة للّاحق بصديق لها، وأبدت مقاومة شرسّة أثناء التحقيق، بل بلغ بها الأمر إلى الطعن في قوات الأمن. وإذا كان سلوك كهذا يعدّ خطيراً حين

يبدر من مواطن أمريكي، فإنه يُعتبر مرفوضاً إذا صدر عن امرأة فرنسية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أفضى فحص جواز سفرها إلى الكشف عن تزوير تاريخ التأشيرة، إذ عمدت الآنسة إلى محوه وتعديلها. وقد كانت هذه المعطيات كافية لأخذها إلى مفوضية الشرطة حيث جرى اعتقالها على ذمة التحقيق.

سؤال أحد رجال الشرطة:

- أفلَكَ أصفادها، سيدِي المفتش؟

فأجابه دي نوفي:

- بالعكس، قَيَّدَ رجليها كذلك.

- أتظن حقاً أن... .

- نعم!

بعد تحطم الطائرة مباشرة، راجت لفترة قصيرة إمكانية إغلاق المترو والجسور والأفاق خوفاً من هجوم إرهابي آخر، لكن السلطات لم تستسلم في النهاية للذعر، ويبدو أن أحداً لم يكن يؤمن حقاً بأن الأمر يتعلق بهجوم. والواقع أنّ دي نوفي لم يكن هو نفسه يؤمن بذلك، لكنه كان يكره هؤلاء الفرنسيين الخونة، ولن يحرم نفسه من متعة إعطاء درس لهذه الفرنسية الشابة، لأنّه يعلم بالخبرة أنّ الناس يستطيعون الاعتراف بأيّ شيء خلال الاعتقال الاحتياطي إذا عرف المحقق كيف يتعامل معهم، وهذا ما يبرع فيه فرانك. ناهيك عن أنّ فرانك كان يتمتع بـمطلق الحرية بما أن الضابط رودريغيز الذي يشرف على المقاطعة الواحدة والعشرين في إجازة لبضعة أيام إثر وفاة زوجته بعد مرض عضال.

تناول قرصين مهدّئين حتّى يخفّف من خفقان قلبه قبل ولوج قاعة التحقيقات.

- مرحباً آنسة بومان، أتمنّى أن نتفاهم . . .  
وندّت عن الشرطي باسمة مغتصبة غيرّت ملامح وجهه.  
قد يدوم الاعتقال الاحتياطي اثنتين وسبعين ساعة، وهو ما سيوفر له ما يكفي من الوقت ليسلّى. سيستفرد بها لساعات.  
قال وهو يقطّع أصابعه:

- سنشتأنف كل شيء من البداية. لماذا غادرت تلك الطائرة الملعونة قبيل إقلاعها بدّقائق؟  
فتحت جولييت فمها دون أن تُصدر أي صوت. بالكاد ترى الشرطي قبالتها يعيد السؤال نفسه. كانت تشعر بخدر ناتج من جملة صغيرة تردد في صدرها على إيقاع دقات قلبها:

أنا حيّة،  
أنا حيّة،  
أنا حيّة...

لكن صوتاً آخر كان يصبح بها أيضاً أنه ما كان عليها أن تكون حيّة . . .

لا يوجد بيننا وبين الجنة أو النار إلا الحياة،  
وهي أوهى شيء في الوجود.

باسكال

بعد زوال يوم الاثنين، شمال ستراول بارك  
كان سام غالواي عائداً وهو يهرول بالممشى المكسو بالحصى  
الذي يعبر الحديقة.

منذ وفاة زوجته، هذا هو أول صباح يتلفن إلى المستشفى  
ليخطرهم بتغييره عن العمل. بقي في بيته مصعوقاً بالحزن والشعور  
بالذنب تماماً مثلما حدث له قبل سنة من الآن. فالمرأتان اللتان  
أحبهما لقيتا حتفهما، وذلك بسبب خطئه. كان ذهنه يغلي كالصهار،  
إذ احتمد فيه حشد من الذكريات والأفكار المتناقضة. فرغم اتصاله  
ال دائم بالموت بحكم مهنته، أصابه الذهول هذه المرة.

غطى سام رأسه بقبّ بذلته الرياضية لكي يتحمي من لساعات  
الريح الباردة. ذلك أنه قرر قبل ساعة من ذلك الخروج للنزهة في  
الهواء الطلق حتى لا يُجذّب من اجترار آلامه، واعتقد بسذاجة أنَّ  
الجري قد يخفّف عنه.  
لكن الأمر لم يكن كذلك.

توقف أمام ملاعب كرة السلة لكي يستعيد أنفاسه. كان المكان قفراً لأن الصقيع كان لا يزال يكسو جزءاً منه. ويبدو أن البرد ثبّط من هم رفاق جورдан<sup>(١)</sup>.

دفع سام بباب الملعب الحديدي وتهاوى على أحد المقاعد، ذلك أنه كان يشعر بتشنج عضلي يمزق فخذه. وما كاد يجلس حتى دفن رأسه بين راحتيه، وكان جسده بكماله يرثى تحت الألم والتعب. فهو لم يغمض له جفن منذ ثلاثة أيام، ويشعر بدوار شديد. وبينما أحسن بألم حاد يخترق صدره، تنبه إلى أنه لم يأكل شيئاً منذ أربع وعشرين ساعة، وأن معدته فارغة تماماً. حاول أن يسترجع أنفاسه، لكن تنفسه انقطع.

إنني أختنق!

تكدر بصره للحظة، وسمع في البعد على نحو مشوش صرير الباب الحديدي ينفتح. كان الهواء البارد يلهب رئتيه. انحنى إلى الأمام كما لو أنه سيقِيءُ قلبه. كان بحاجة إلى أن يشرب شيئاً بسرعة!  
- أتشرب قليلاً من القهوة؟

رفع سام عينيه فوجد امرأة سمراء تقف أمامه بقوام رياضي، ترتدي سروال جينز وسترة جلدية. كانت نظرتها الصادقة المصممة تثير وجههاً مستطيلأً ما زال يسري فيه ماء الشباب، بعيدين واسعتين لوزيتين أشبه بعيون لوحات مودigliاني<sup>(٢)</sup>.

كيف وصلت إلى هناك دون أن يلحظها؟ ولماذا ناولته أحد الكوبيين اللذين تحمل كلّاً منها في يد؟

(1) لاعب كرة سلة أمريكي سابق، طبقت شهرته الآفاق. (المترجم)

(2) Amedeo Modigliani (1884-1920) رسام إيطالي كبير اشتهر برسم الوجوه والبورتريهات. (المترجم)

قال وهو يسعل :

- أنا بخير، شكرأ.

فردت وهي تلخ عليه:

- خذ، لقد اشتريت كوبين.

تناول سام كوب القهوة من تلك اليد المحسنة الغامضة مُكرهاً تقريباً. كان هذا المشروب مفيدةً له، إذ هدا من سعاله وأشعره بشيء من الدفء.

وبينما انحنت المرأة نحوه، انفرج ذيل لباسها قليلاً فتهياً له أنها تمنطق بغمد مسدس.

الشرطة!

أجل، فقد كان يملك حاسة سادسة تمكّنه من التعرف عليهم، أشبه ما تكون بالاستعداد الفطري. لا يمكن أن يقضي المرأة طفولته في الشارع دون أن يعرّفهم. ففي حيّه القديم، أقلّ ما يمكن أن يُقال هو أن الناس لم يكونوا يحملون ودّاً للشرطة. فتدخلاتها التي لم تكن في الأغلب في محلّها كثيراً ما كانت تخلق من المشاكل أكثر مما كانت تسوّي. ورغم أن وضع سام الاجتماعي تغيّر، فقد ظلّ يتلوّحى الحذر، وعقد العزم على أنه إن صادف يوماً مشاكل جدية، فستكون الشرطة آخر ما سيلجاً إليه.

سألته:

- هل تسمح لي بالجلوس؟

ردّ بنبرة حذرة:

- تفضيلي.

لاحظت رد فعله المتراجع، فأدركت أنه قد يكون رأى المسدس، وهو ما دفعها إلى أن تسارع لتقديم نفسها قبل الوقت الذي

توقفته، فقالت وهي تظهر شارتها:

- اسمي غريس كوستيللو. أنا مفتشة شرطة أعمل بالمقاطعة السادسة والثلاثين.

انعكست بعض الأشعة على القطعة المعدنية، فلاحت الحروف

الأربعة NYPD<sup>(1)</sup> متلازمة.

سألها متظاهراً بعدم الالكترات:

- أنقذون بدورية في المكان؟

- في الواقع، أنا بانتظار شخص.

صمتت قليلاً ثم أضافت موضحة:

- رجل.

قال وهو يحرك الكوب الذي أفرغ نصفه:

- آسف إن كنت شربت قهوته.

- لا أظن أنه سيلومك على ذلك.

وبدا في عيني غريس كوستيللو بريق غريب قرأ فيه سام أمراً مقلقاً، خطراً وشيكاً دفعه إلى المسارعة بمعادرة المكان. قام واقفاً:

- طيب، مع السلامة، أتمنى ألا يطول انتظار صديقك...

- الواقع أنه حاضر، وهو ليس صديقاً على وجه التدقيق.

حين تعود به الذاكرة إلى هذه الواقعة بعد مرور وقت طويل، يقول سام في نفسه إن الأمور كانت ستأخذ مجرى مخالفأً لو أنه لم يجلس على ذلك المقعد تلك الظهيرة، لكنه يعلم في قراره نفسه أن غريس كوستيللو هذه كانت ستتحقق به حیثما كان، وأن ما وقع بعد اللقاء سيكون هو نفسه على كلّ حال.

- ماذا تقصدين؟

- لقد جئت للقائك أنت يا دكتور.

قطب سام حاجبيه، كيف علمت أن...

في انتظار الجواب، راحت غريس تحدّق في جيب بذلة الطبيب الرياضية التي طرز عليها شعار فرقة مستشفى ماتيوس لرياضة البيسبول.

قال سام وقد امتعض من اضطراره للكشف عن هويته:

- اسمي سام غالواي. طبيب أطفال.

وعوض أن يكون ردّها «تشرفنا، أنا سعيدة بمعرفتك» مثلاً،

مضت غريس كوستيللو تتحدّث ببطء بالغ:

- تبدو مهموماً يا دكتور غالواي...

- كلّ ما في الأمر أتنى متعب، وأنا مضطّر للانصراف.

ابتعد سام ببعض خطوات، وشارف على الباب الحديدي لما

جعله سهم جديد من غريس يتسمّر في مكانه:

- إنه لأمر صعب أن يفقد المرء شخصاً عزيزاً، أليس كذلك؟

قال وهو يلتفت:

- لست أفهم قصدك.

نفرّسها هذه المرة بقلق متزايد.

قامت غريس بدورها واقفة وانتصبت أمامه بوثوق وتصميم لم ينالا شيئاً من أنوثتها. كانت السماء قد صارت برتقالية بينما تميل الشمس منحدرة باتجاه هودسون.

- اسمع يا دكتور، أنا أعلم أنك تجتاز محنّة صعبة، لكن لا وقت لدى لأحوم حول الموضوع، إليك إذن ما أريد قوله: لدى خبران لك، أحدهما طيب والآخر سي...

قاطعها بفتور:

- لا مزاج لي لأنسلّى بلعبة الأحاجي.
- الخبر الطيب هو أن صديقتك حية...

فرك سام عينيه مشدوهاً:

- أيّ صديقة؟

فقالت غريس موضحة:

- لم تكن جولييت على متنه الطائرة. إنها لا تزال حية.
- مجرد هدر!

كان جواب غريس أن أخرجت من جيبيها مقلاً صحفياً خطفه سام من بين يديها. كان ثمة عنوان غريب بارز على الصفحة الأولى:

فتاة فرنسية معتقلة احتياطياً

بعد تحطم طائرة الرحلة 714

كانت الجريدة تحمل على نحو غير مفهوم تاريخ اليوم الموالي.

سأل الطبيب مرتاباً:

- أين عثرت على هذا؟

ظلت غريس صامتة بينما راح سام يتفحص بقية المقال بتوتّر

بالغ.

فقال مهدداً:

- أهي مزحة؟

- ليست مزحة: جولييت حية!

- لماذا تحمل الجريدة تاريخ الغد إذن؟

تهدت غريس، فهذا الرجل لن يجعل مهمتها سهلة.

- اهداً يا غالواي.

تنحى سام فجأة وقد استشاط غضباً. شوّشه هذه المرأة التي تخرّف، لكن عليه مع ذلك أن يتثبت. وبينما استأنف عدوه، لم يمنع نفسه من الاستسلام لأمل يائس.

ماذا لو أنّ ما يزعمه هذا المقال صحيح؟ ماذًا لو كانت جولييت لا تزال حيّة؟

لما بلغ الجانب الآخر من الباب الحديدي، التفت للمرة الأخيرة نحو غريس. كان شيءٌ من التعاطف والتحدي يطبع نظرته الغريبة. وألفى سام نفسه يسألها دون إرادته:

- وما هو الخبر السيئ؟



يسوق القدر من يطاوّعه، ويجرّ من يعصاه.

سينيك

**الاثنين مساء بمقرب شرطة المقاطعة الواحدة والعشرين**

- أأنت واثق من أنها موجودة هنا؟

- لقد أوضحت لك ذلك يا سيد غالواي: جولييت بومان معتقلة احتياطياً، وإلى حدود اللحظة، لن تحصل على مزيد من الأخبار. كان سام يجد صعوبة في تصديق أنّ جولييت لا تزال حية! قد تكون بيد الشرطة، لكنّها حية... .

كان يجد صعوبة في الثبات في مكانه من شدة التوتر، وألحّ من جديد على الضابط الذي يرتدي الزي الرسمي، وهو شاب أفراد أميركي بعينين خضراء وشعر مضفور بعناية شديدة:

- لربما كان خطأ: أنا أعرف جيداً الآنسة بومان. أمضينا عطلة الأسبوع معاً، وأنا أستطيع أن أؤكّد لك بأنّ لا علاقة لها بحادثة الطائرة هذه!

**رد الضابط بنفاذ صبر:**

- في انتظار أن يأتي أحد الموظفين لأخذ تصريحاتك، هلاجلست وهدأت من روحك.

خرج سام إلى الباحة حانقاً. لقد جاء إلى هذا المكان بملابس الرياضة، إذ لم يستطع التمهّل حتى يغيّر ملابسه. لم يكن يحمل معه هاتفه النقال ولا يوجد في جيبيه سنت واحد، مع أنه مضطّر للاتصال بمحامٍ على وجه السرعة إذا كان يرغب في إخراج جولييت من هذه الورطة.

عاد إلى الضابطة التي كانت تعلق على بزتها شارة كتب عليها اسم كاليستا:

- ستضحكين متى ، لقد نسيت محفظة نقودي .
- إنه أمر مضحك فعلاً .
- هل يمكن أن تفرضيني دولاراً؟
- وماذا أيضاً؟
- لكي أتلّفن .

تنهّدت:

- لو أعطيت دولاراً لكلّ من يمرون من هنا . . .
- سأعيده لك .
- لا تتعب نفسك .

أخرجت من جيبيها بامتعاض أربع قطع من خمس وعشرين سنتاً ومدتها له. شكرها وعاد إلى الردهة لكي يستعمل أحد الهواتف العمومية.

خلافاً لعدد كبير من مواطنه، لم يكن له محام معين. لذلك فإنّ أول من تبادر إلى ذهنه هو أن يهاتف إحدى مستشارات المستشفى القانونيات التي كانت بينه وبينها ألفة. بعد الإنصات لمشكلته، نصحته بأحد زملائها، واتصلت به فوراً. أغرت التداعيات الإعلامية للقضية المحامي، فقبل القدوم فوراً، مما هداً من روع سام.

هكذا ستعود الأمور إلى نصابها. رجال شرطة هذه المدينة ليسوا ربّما أذكياء، لكنهم سيتباهون بسرعة إلى أن جولييت لا يد لها في تحطم الطائرة، رغم أن حالة البرانويا التي خلفها الحادى عشر من سبتمبر لم تكن آثارها قد زالت بعد.

حاول أن يجلس لحظة، لكنه لم يستطع. ما كان يقلقه هي غريس كوستيللو، تلك المرأة التي لقيتها في سانترال بارك والتي تحدثت إليه على نحو غريب، محاولة أن تلعب معه لعبة الخبر الطيب والخبر السيئ. الخبر الطيب، حسبما شرحت له، هو أن جولييت لا تزال حية، لكن لما سألها عن الخبر السيئ، أجبته بطريقة ملغزة: «الخبر السيئ هو أنها لن تعيش إلا لبضعة أيام». وهو ما جعل سام ينصرف واثقاً من أن تلك المرأة تهذى، من دون أن يسعى لمعرفة المزيد، وهو ما ندم عليه الآن بمرارة.

كلا، إنه أمر عبئي. بالعكس، عليه أن يُسرّ بنجاة جولييت. هكذا إذن، فهي لم تركب الطائرة، وهو أمر استشعره بحدسه. لقد عادت لكي تنتظره. راح للحظة يتأمل أبعاد هذا القرار واستعاد من جديد الثقة في الحياة. وقرر أن يصارحها بالحقيقة في أول فرصة تتاح له. سيعترف لها بأنه غير متزوج. لعلها لن تؤاخذه على هذه الكذبة التافهة.

- السيد غالواي، أنا المفتش دي نوفي.

رفع سام رأسه نحو الشرطي الذي قطع حبل أفكاره. دعاه إلى أن يرافقه إلى مكتبه. وقد صار دي نوفي أقرب إلى النجم منه بمفتشر شرطة عادي. كانت ستنته تناصبه على نحو رائع، وتظهر على قميصه الأسود علامات إحدى كبريات دور الملابس الجاهزة الإيطالية. فضلاً عن مظهره الرياضي، كان يبدى ابتسامة ساحرة تكشف عن أسنان

ناصعة البياض ، وكانت بشرته المحمّرة تشي بأنّه قادم من عطلة تعرّض فيها لأشعة الشمس ، أو لحصص من الأشعة فوق البنفسجية . احتاط منه سام من أول نظرة بلا سبب ظاهر . مهما يقال ، فالناس ليسوا على قدر كبير من التعقّيد ، وغالباً ما يكون الانطباع الذي يثيره فينا أحدهم صحيحاً .

- إنني أنسّت إليك يا سيد غالواي .

حکى له سام بإيجاز كيف التقى بجولييت . وأقسم بأنّه لم يفارقها ولو لدقيقة خلال الثمانين والأربعين ساعة الأخيرة . أوما دي نوفي إلى جواز السفر المزوّر ، لكن سام أجاب بأن ذلك غير كافٍ لاتهام جولييت بالإرهاب .

- إذا كنت قد فهمت جيداً ، فالآنسة بومان غادرت الطائرة باستعجال لتلحق بك ...

- الأمر كذلك .

- قررت البقاء معك في نيويورك؟

- هذا ما أظنه .

تهنّد الشرطي :

- السيد غالواي ، أعترف أنّي لم أستوعب جيداً منطق لعبتك مع الآنسة بومان : أنا أحبك ، لكني سأتركك ، أحبك وأتركك ... ردّ سام بضيق :

- غالباً ما تسير الأمور في الحياة على هذا النحو . فالعلاقات بين الرجال والنساء ليست بسيطة ، لكن هذا الأمر يستعصي على فهمك فيما يبدو .

تجاهل دي نوفي الملاحظة واسترسل في استجوابه :

- أساعدت الآنسة بومان في جمع أمتعة السفر؟

- كلا.

- هل كانت تحمل، حسب علمك، أمتعة أو علباً لفائدة شخص آخر؟

- كلا!

- طيب، فأنت لا تعلم شيئاً.

- أنا طيب، وأستطيع تمييز المدمنين على المخدرات.

مطّ دي نوفي شفتيه في حركة مرتابة، فقال سام مهاجماً:

- نحن في أميركا، والناس في هذا البلد لا يودعون السجن

لمجرد أنهم يحبون!

- إذا سمحت، فالوضع أعقد قليلاً مما تقول.

- اسمح لي بالتحدث إليها على الأقل . . .

- مستحيل. سنخبرك بوقت وساعة انتهاء الاعتقال الاحتياطي.

ثم أضاف بساديه:

- لكن إن شئترأبي، فلن يكون ذلك في القريب.

راجع المفتش مفكرةه قبل أن يعيد السداده لقلمه المانبلان بحركة

استعراضية:

- سؤالأخير سيد غالواي: كيف علمت بأن الآنسة بومان لم تلق حتفها في الحادثة؟

تردد سام برهة، لكن الحدس دفعه إلى عدم الإشارة إلى تدخل

غريس كوستيللو الملغي. وعوض ذلك، قال محذراً الشرطي:

- أنت بقصد ارتكاب خطأ جسيم . . .

- أنا أقوم بمهمتي.

- أنصحك باحترام القانون، فجوليت محامية، وستعرف كيف تدافع عن نفسها إن . . .

قطّب دي نوفي حاجبيه وهو يقول:  
- من هي المحامية؟  
- جولييت بومان.  
- أهذا ما قالته لك؟

فرد سام من دون أن يدرك بأنه مخطئ:  
- نعم.

التمعت عينا دي نوفي. انتصب واقفاً فجأة. فهذه الفرنسية لم تكن واضحة قطعاً: تزوير جواز السفر، العصيان، اتحال هوية . . .

فصاح به سام:  
- تباً، ماذا ت يريد أن تفهمني؟  
ردّ دي نوفي بنبرة ظافرة:

- جولييت بومان ليست محامية، هي نادلة في مقهى . . .

\*

راح سام يذرع ردهة مقر الشرطة متزعجاً. تحدث من فوره مع المحامي المكلّف بتقديم المساعدة لجولييت. لقد نصحه بالعودة إلى بيته: يمكن أن يستمر الاعتقال الاحتياطي ليومين آخرين، ولا جدوى من إضاعة وقته هنا. وقبل أن يمثل لهذه النصيحة، وذ سام التحقّق من أمرٍ آخر.

تقديم إلى مكتب غاليسنا.

- هل تقدّمين لي خدمة تنهي بها يومك؟  
هزّت الشابة السمراء رأسها وقالت وهي ترتّب لوازمها:  
- آسفة، لقد أنهيت خدمتي.  
- اسمعي، أنا بحاجة إلى بعض المعلومات عن شرطية تعمل في

مفوضية أخرى تدعى غريس كوستيللو. إنها مفتشة بالمقاطعة السادسة والثلاثين.

- لا أستطيع أن أقدم لك مساعدة بهذا الشأن.
- الأمر بغایة الأهمية.

قالت وهي تهتز كتفيها:

- في غایة الأهمية بالنسبة إليك ربما، لا بالنسبة إلي!
- توسل لها سام وهو مقتنع بأنها تستطيع أن تساعدته:
- قدّمي لي هذه الخدمة أرجوك!

- أريد أن أطرح عليك سؤالاً: لماذا تلجم لي دائماً علمأً بأن

هناك مكتبين في مدخل هذه المفوضية الملعونة؟  
فقال الطبيب:

- ربما بسبب هذا.

وأومأ إلى صورة فوتوغرافية صغيرة معلقة إلى الجدار خلف الشابة.

كانت الصورة تمثل طفلتين صغيرتين تلعبان الحجلة على رصيف  
شارع بيدفورد.

قطّبت كاليستا حاجبيها، فقال سام موضحاً:  
- أنا أيضاً نشأت في هذا الحي.  
- هراء!  
- إنها الحقيقة.  
- أستغرب ذلك.  
- لماذا؟

قالت وهي تومئ بأصبعها لوجهها ثم لوجه الطبيب وذلك حتى

ثير انتباهه إلى بياض بشرته هذا في الوقت الذي كانت فيه كل الساكنة سوداء.

- فقال مؤكداً حتى يضفي على كلامه طابع الحقيقة:  
- درست الطور الابتدائي بمدرسة مارتن لوثر كينغ والثانوي  
بشارل درو.

علقت بحذر:

- معرفة أسماء المدارس لا يعني أنك درست بها.  
تنهد سام.  
- تريدين الدليل، حسناً.  
فتح أولاً سوستة ستنته الرياضية، ثم تخلص من قميصه والتي -  
شيرت.

فهتفت به مذعورة بسبب تعجرده من ملابسه:  
- أذكرك يا دكتور غالواي بأنك في مفوضية شرطة، وأنا لا أريد  
مشاكل . . .

دنا سام عارياً من الشابة حتى تتمكن من رؤية الكلمات المنشورة  
بالأزرق بحروف صغيرة Do or die: «افعل شيئاً ما أو مُت»، وهو  
شعار حي القديم بيدفورد.

ظللت كاليستا تحدق في سام دون أن يرف لها جفن ثم تناولت  
الهاتف، لكن ضابطاً آخر كان قد وصل ليخلفها، وشرع يأخذ مكانه.  
- ذكرني باسم مفتشك.

- غريس كوستيللو.

قالت آمرة:

- انتظري هنا لحظة.

تابعها سام ببصره وهي تبتعد وتعبر القاعة الكبيرة حيث الموظفون

منهمكون في العمل. عثرت على مكتب فارغ في الممر بالطابق الأوسط (الميزانين) الموجود فوق القاعة. كان بإمكانه أن يتبع حركاتها عبر باب زجاجي. هكذا رأها تُجري عدة مكالمات هاتفية، ثم توصلت بفاكس. وخفّ من خلال استراقها النظارات حولها أنّ ما طلبه منها لا يدخل بالضرورة ضمن صلاحياتها، وأنّها تخاطر من أجله. قطّبت حاجبيها مراراً دلالة على عدم فهمها.

عادت أخيراً وهي تحمل ورقة في يدها.

سألته بغضب:

- أنسخر متى؟

- لا أنسخر بالطبع، لماذا تقولين هذا؟

مدّت له الفاكس الذي توصلت به على الفور:

- لأنّ كوستيللو ماتت منذ عشر سنوات.



لما ينونون الاعتداء عليك، فهم يستهدفون من تحب...  
حوار وارد في فيلم «العرب» لفرانسيس فورد كوبولا

غادر سام مفوضية الشرطة مشوش الذهن، حائراً.  
أنعشه الهواء البارد في الخارج. حتّى الخطى وهو يسير في الشارع  
حتّى يستدفه، ومضى يجول ببصره لعله يرى سيارة أجرة غير  
محجوزة. كان الليل قد خَيَم وبقايا الثلج المتجمد تقطّق تحت  
خطواته. لم يستطع أن يتمالك نفسه وهو يمرّ تحت مصباح إنارة  
عمومية فأخرج الفاكس الذي سلمته له كاليسنا من جيده، وهو عبارة عن  
مقال نشر في نيويورك بوست منذ عشر سنوات، لكي يعيد قراءته.

Woman Police Officer shot dead in Brooklyn<sup>(1)</sup>

عنتر على غريس كوستيللو، مفتشة شرطة بالمقاطعة السادسة  
والثلاثين، مقتولة برصاصه في الرأس الليلة الماضية داخل سيارتها.  
ولا تزال أسباب مقتلها مجهولة لا سيما وأنّها لم تكن في الخدمة  
لحظة الجريمة فيما يبدو. اشتغلت غريس، التي تبلغ الثامنة والثلاثين  
من عمرها، بـ NYPD منذ خمسة عشر سنة. بدأت مشوارها كضابطة  
دورية قبل أن تدرج في الرتب حتّى رقيت مفتشة شرطة وهي في

---

(1) مقتل ضابطة شرطة رميًا بالرصاص ببروكلين.

ال السادسة والعشرين من عمرها. وقد قدمت هذه المرأة التي خبرت الميدان إسهاماً حاسماً في حل العديد من القضايا الإجرامية الكبرى. كانت هذه الشرطية الحاصلة على دبلوم من جامعة نيويورك ومن أكاديمية مركز التحقيقات الفيدرالي بكونيكتو أمّا لطفلة في الخامسة، وكان ينتظرها مستقبل زاهر في مصالح الشرطة بما أن ترقيتها الأخيرة لرتبة نقيب كانت ستصبح سارية المفعول ابتداء من الشهر المقبل.

كان المقال مصحوباً بصورتين فوتografiettes لغريس: صورة كلاسيكية ببزة نقيب في حفل ترسيمها بـ NYPD، وأخرى شخصية بجانب البحر بصحبة ابنته الرضيعة.

كانت الصورتان واضحتين نسبياً مما مكن سام من ملاحظة أنها المرأة نفسها التي لقيتها قبل ساعات من ذلك بحدائق سانترال بارك. امرأة من المفترض أنها ماتت منذ عقد . . .

لمع أخيراً سيارة أجرة تنعطف عند زاوية الشارع، وكانت إنارتها الأمامية تشير إلى أنها غير محجوزة. خطأ خطوة إلى الأمام وناداها. وبينما كانت السيارة تناور لكي تتوقف، تجنبتها سيارة شرطة من جهة اليمين وتوقفت بمحاذاة الطبيب. انفتحت النافذة فبدا منها ضابط دورية في الخمسينيات من العمر بوجه واجم.

- السيد غالواي؟

- نعم.

- إذا لم يكن الأمر يضايقك، أرغب في أن ترافقني لجولة. - في الوقت الراهن سيضايقني. أنا بحاجة إلى سيارة أجرة وليس إلى موكب رسمي.

- أجدني مضطراً لكي ألح عليك.
- وأنا أجدني مضطراً لرفض طلبك: رأيت هذا اليوم ما يكفي من رجال الشرطة، وأنا لا أحبذ أساليبكم.
- لا تلزمني باستعمال الخيار الآخر.
- وما هو؟

فقال الشرطي مهدداً:

- أستطيع أن أترجل وأهشم وجهك.
- صحيح؟ بوذي أن تريني ذلك.

انطلقت السيارة بسرعة وصعدت فوق الرصيف معترضة طريق سام الذي لم يتراجع، وفي رمثة عين قفز الشرطي من السيارة وتقدم نحوه. كان شخصاً ممتلئاً، متوسط القامة، أميل إلى البدانة رغم مظهره الشيق.

قال وهو يضع يده على سلاحه الموضوع في الفخذ والمعلق في حزامه:

- أنا الضابط مارك روتيلى.

حدق الطبيب في عينيه، فلمس في نظرته تصميماً لا يتزعزع.

كان هذا الرجل يبدو مستعداً لأي شيء ليجبره على مرافقته.

قال سام:

- أظن أنه حري بك أن تقرأ ما كتب على سيارتك.

وهو يومئ إلى ما كتب على السيارة: الحروف الثلاثة CPR الكياسة والمهنية والاحترام التي يفترض أنها تلخص شعار شرطة المدينة.

فبادره روتيلى:

- حسناً، سأطلب منك لآخر مرة بأدب: أود أن أتحدث معك  
قليلًا.

لماً أدرك سام بأن لا خيار آخر أمامه غير التحدث إلى هذا  
المخبول، سأله بنبرة خاضعة:

- فيمَ تريدنا أن نتحدث؟

- عن زميلي السابقة في الفريق: غريس كوستيللو.

صعد سام إلى السيارة وتوجه روتيللي نحو الجنوب.

- أنت طبيب، أليس كذلك؟

- نعم، أنا أخصائي أطفال، لكنني أريد أن أفهم ما معنى كل  
هذا...

رفع روتيللي إحدى يديه ليقاطعه:

- لـما دخلت قبل نصف ساعة بعد إنهاء الخدمة، أخبرني أحد  
العاملين في مركز الهاتف بأنّ ضابطة من المقاطعة الواحدة والعشرين  
اتصلت لتسأل عن غريس كوستيللو...

فقال سام مؤكّداً:

- أنا من طلبت منها ذلك.

- ... ويبدو أنها تظن أنها لا تزال حية.

فقال سام مؤكّداً:

- إنها لا تزال حية.

- ما الذي يجعلك تزعم هذا؟

- تحدثت إليها بعد زوال اليوم:

تنهد روتيللي، ولاحظ سام أنّ يدي الشرطي شرعتا في  
الارتفاع، وأنّ أصابعه بدأت تمسك المقوود بتشنج. ثم فتح النافذة

وأخذ نفساً عميقاً من الهواء البارد، ولزم الصمت لبعض دقائق مكتفياً  
بالقيادة دون احترام أصوات المرور.

وبينما مررت السيارة فوق جسر بروكلين، سأله سام:

- إلى أين نحن ذاهبان هكذا؟

- لكي أفهمك بأن الأشباح لا وجود لها.

وصل إلى بنسونهورست، وهو آخر حي إيطالي بنويورك منذ أن  
تحولت ليتل إيطالي إلى مركز جذب سياحي.  
طاف الشرطي مرات عديدة حول كتلة من المنازل دون أن ينفع  
في العثور على مكان يركن فيه سيارته. وما لبث أن لاحت له لوحة  
تمتد لخمسة أمتار أو ستة كتب عليها بلهجة مهددة:

YOU TAKE MY SPACE  
I BREAK YOUR FACE<sup>(1)</sup>

لكن روتيلي لم يكن بالشخص الذي يخشى التهديد. نزل من  
السيارة ووجه ركلة هازئة للوحة ثم ركب السيارة.  
بعد ذلك أخذ سام إلى مقهى يظهر أنه مع vad عليه. كانت ثمة  
شارع من النيون تشير إلى أن المحل فتح أبوابه منذ أربعين سنة، وهو  
أمر استثنائي في مدينة دائمة التغيير كنيويورك.  
قال بلهجة آمرة:

- تعال معي.

تبعه سام إلى قاعة تعبق برائحة عجين الخبز وزيت الزيتون  
والمليلة. وعلى الجدران عُلقت صور شخصيات إيطالية أميركية:

---

(1) معناها حرفيًا: إن شغلت مكاني هشم وجهك.

سيناترا، بافاروتي، دينيرو، ترافولتا، مادونا، ستالون...  
جلس الرجال متقابلين على مقاعد جلدية.

بادره صاحب المقهى وهو يضع على المائدة زجاجة كحول

مبدوءة:

- تشاو ماركو.

- تشاو كارمين.

صبت روتيلى ل نفسه كوباً شربه جرعة واحدة، وكان من نتائج ذلك أن كفت يداه عن الارتفاع فوراً. وما إن هدا مؤقتاً حتى طلب من سام أن يخبره بما يعرفه بالضبط عن غريس.

سرد عليه سام كلّ حكاياته منذ أن التقى بجولييت حتى ظهرت له غريس بسنترال بارك مروراً بتحطم طائرة الرحلة 714. لما أنهى كلامه، صبت روتيلى كوباً آخر ثم فرك جفنيه دون أن ينجح في إزاحة مسحة الحزن الbadية عليه.

- اسمع يا غالواي كنت زميل غريس لمدة عشر سنوات. التحقنا بالشرطة الجنائية في الوقت نفسه تقريباً، واشتغلنا على القضايا نفسها. لم نكن نشكّل فريقاً ممتازاً فحسب، بل كنا صديقين، بينما ألفة كبيرة...

بينما كان يتحدث أخرج صورة من حافظة نقوده ومدها لسام. نظر الطبيب إليها باهتمام: كان يظهر فيها الشرطي بصحبة غريس في مكان ما أمام بحيرة وسلسلة جبلية. كانا شابين جميلين: غريس متألقة، وروتيلى نحيفاً وباسماً، كلّه ثقة في المستقبل، مختلفاً تماماً عن هذا الرجل النائم العجالس أمامه في هذه الأثناء.

بادره سام:

- هلا سمحت لي بسؤال... .

فحثه روتيللي على الاسترسال .

- بما أنك عملت مع غريس ، كان من المفترض أن تكون برتبة مفتش . . .

- صحيح ، ومثلها كنت سائقى إلى رتبة نقيب .

- ما السبب إذن في أنك بعد عشر سنوات ما زلت مجرد ضابط دوريّة ؟

أخرج روتيللي علبة سجائر من جيده ، وأشعل واحدة . لم يكن من أولئك الذين يجرؤ المرء على تذكيرهم بقانون منع التدخين .

- منذ وفاة غريس ، كل شيء تغير في حياتي .
- لديك مشكلة مع الكحول ، أليس كذلك ؟
- مشكل مع الكحول ؟
- أنت مدمن على الكحول يا روتيللي ؟
- وفيم يعنيك ذلك ؟
- أنا طبيب ولا يعنيني أن أحكم على أفعالك ، لكن بإمكانني أن أساعدك .

أو ما الشرطي بيده دلالة على الاستخفاف .

- وضع هذا من أجل المدمنين المجهولين ومن يجري مجراهم !

كلا ، شكرًا ، لم يوضع من أجلي .

كان يهم بإضافة شيء ، لكن الكلمات انحبست في حلقه . بلع ريقه ثم استرسل :

- كانت غريس تعرفني جيداً ، بعيوني ومزاياي . كانت لها القدرة على إخراج كل ما هو طيب في .

وسحب نفساً عميقاً من سيجارته قبل أن يواصل :

- كان كل شيء بالنسبة إليها إيجابياً دائمًا، كانت تؤمن بكل تلك الأشياء . . .

- أي أشياء؟

نظر روتيللي نظرة شاردة عبر الزجاج ، وقال موضحاً :

- كانت تؤمن بالسعادة والمستقبل ، بالجانب الطيب من الحياة والناس . . . كانت لها ثقة بالإنسانية .

صمت قليلاً قبل أن يضيف :

- أما أنا فلست كذلك .

قال سام في قراره نفسه : وأنا أيضاً .

- صار هذا العمل بالنسبة إليّ بدونها جهنميّاً . لم تعد موجودة لكي تكبح جماхи ، لكي تسيطر عليّ . . .  
فسأل سام :

- وبذلك خفّضوا رتبتك؟

أومأ روتيللي مؤيداً :

- أعترف بأنني كثيراً ما تجاوزت الحدود في السنوات الأخيرة .

- ولكن كيف تفسّر لقائي بغريس بعد زوال اليوم؟

عادت يدا الشرطي إلى الارتفاع ، ثم قال وهو يملأ الكوب :  
- ليست هي يا غالواي .

- على كل حال كانت نسخة طبق الأصل منها ، كما لو أنها لم تشخ ، كما لو أنها لا تزال في سنّ صورة الجريدة .

قال وهو يصرخ :

- لقد أصابتها رصاصة يا غالواي ، رصاصة ملعونة فجّرت جمجمتها ! أتفهم هذا؟

أجابه سام مجازفاً :

- لعلّها لم تُمْتَ.

فثارت ثائرة روتيللي :

- لما قتلت غريس، أنا من استدعيت للتعرف على جثتها بمصلحة الطب الشرعي! رأيت وجهها، وبكيت وأنا أحمل جسدها بين ذراعي! صدقني، كانت هي قطعاً.

حدق سام في عيني روتيللي، وأدرك بأنه لا يكذب.

رفقه الشرطي إلى غرينبيتش فيلاج، ولما بلغا بيته الصغير، استعاد روتيللي بعض هدوئه.

- أنت تسكن حيَا فاخراً يا دكتور.

فرّ سام :

- إنها قصة طويلة.

وبيما أنَّ الجوَّ كان بارداً، بقي الرجلان في السيارة ودخنا معاً السجارة الأخيرة في صمتٍ بالليل المخيم. حرَّكت هبة ريح بارد أوراق شجر الجنكة وعروش الوستاريا. ظلا صامتين لفترة طويلة. كان سام يفكّر في جوليت الوحيدة في زنزانتها، بينما راح روتيللي يفكّر في غريس، المرأة الوحيدة التي لم يحبّ سواها في حياته، والتي ندم على أنه لم يُبع لها بمشاعره خلال حياتها. وقد كان سام أول من كسر الصمت :

- من قتل غريس؟ أتعرفه؟

هزَ الشرطي رأسه.

- حققت في مقتلها دون توقف لأكثر من سنة، مضحياً بعطلات

نهاية الأسبوع وإجازاتي، لكنني لم أُعثر على خيط يمكن أن يوصلني إلى القاتل.

عندئذ سحق عقب السيجارة وشغّل المحرك.

- مع السلامة يا غالواي.

رَدَ سام وهو يفتح باب السيارة:

- مع السلامة يا روتيللي. فَكَرِ في زيارتي إن قررت يوماً التوقف

عن شرب الكحول. تقول صديقة لي: لا وجود للمشاكل، كل ما هنالك هي الحلول.

- كانت غريس تقول هذا أيضاً.

مدّ له الشرطي يده بعفوية وهو مندهش من الألفة الغريبة التي بدأت تنشأ بينه وبين هذا الطبيب الشاب.

- لعلك طبيب غريب الأطوار، أليس كذلك؟

فرد سام موافقاً وهو يشدّ على اليد الممدودة له:

- هذا ما يقولونه لي أحياناً.

استعاد روتيللي شيئاً من حيويته على نحو غريب. كانت عيناه

تلمعان كقطعتي الماس.

سأله سام بقلق:

- ماذا ستفعل؟

- هناك شخص في هذه المدينة ينتohl شخصية غريس

كوسينيللو. ينبغي أن أكشفه وأكشف سبب قيامه بذلك.

- انتبه لنفسك.

- أنت أيضاً يا دكتور.

ترجل سام من سيارة روتيللي، ومشى مبتعداً في الظلام.

لم يكن يستطيع الوقوف على ساقيه من شدة التعب. كان يشعر بالدوار وبالم في بطنه. فتح باب شقته وقد اشتدت حاجته إلى النوم مصمماً على الارتماء فوق سريره.

بينما كان الرجلان مستغرقين في الحديث، لم يلحظ أية منهما طيفاً كان مختبئاً في الجانب الآخر من الشارع بحيث لم يفته شيء مما دار بينهما.



لماً عبر إلى الجانب الآخر من الجسر،  
هبت الأشباح للقاء.

عنوان فرعي لفيلم «نوفيراتو»

اطلع سام على الرسائل التي تلقى: كان هاتفه النقال وجهاز الاستقبال الإلكتروني حافلين بالمكالمات من المستشفى. حاولوا الاتصال به طيلة الظهيرة فيما يبدو.  
ماذا وقع يا ترى؟

كان يهم بالاتصال بالمستشفى لما سمع حسناً بالطابق العلوي. صعد السلالم بسرعة مشوشًا وفتح باب الغرفة، فاندفعت هبة باردة كأنها تيار هواء. كانت النافذة مُشرعة، فلمح طيفاً ميّزه في زرقة الليل. طيف امرأة فارعة ورشيقـة، جالسة على حافة النافذة: إنـها غـريـس كـوـستـيلـلوـ.

- كيف دخلت إلى بيتي؟

- ليس بالأمر المعقد.

وقفـت من النافـذـة إـلـى الأـرـضـية.

- لقد اقتحـمت مـلكـاً خـاصـاً! أـلـديـكـ أمرـ أوـ تـرـخيصـ رـسـميـ؟  
هزـتـ غـريـسـ كـتـفيـهاـ.

- أين تظئن نفسك؟ في فيلم؟

ثم أضاف مهديداً وهو يهرع إلى الهاتف:  
- سأنادي الشرطة.

وبيّنما كان متقدعاً نحو الهاتف، أوقفته بقبضة من حديد.

- أنا هي الشرطة.

ودون أن يتخلص من قبضتها، أمسك بتلابيب سترتها الجلدية.

- حتى لو كنت تحملين سلاحاً، فإنك لن تخيفيني.

رفعت رأسها نحوه، ولم يكن أمامها عن قرب إلا أن يربكه جمالها: كانت تقسيمها دقيقة وعيناها عميقتين متألثتين في الظلمة. كانت قريبة منه بحيث شعر بأنفاسها على أذنه.

قالت وهي تجذح إلى اللين:

- لا أقصد إخافتك يا دكتور. كل ما أريد هو أن أتحدث إليك.  
أجباب وهو يطلق ياقه سترتها.

- عِمَاداً؟

- عن جولييت.

- كيف عرفت أنها نزلت من الطائرة؟

ابتعدت عنه غريس، ودون أن تجيب عن سؤاله، طافت بالغرفة ببطء وهي تجill بصرها بين الرفوف المليئة بالكتب.

- أؤمن بالحياة الأخرى يا دكتور غالواي؟

أجباب سام دون تردد:

- كلا.

- لعلك تؤمن على الأقل بالجانب الروحي للأشياء؟

- أنا آسف إن خيّبت ظنك، فانشغالاتي بهذا المجال لا تتجاوز انشغالات القُرِيدس.

فقالت ملحة:

- رغم ذلك، ألا تتساءل قط لما تفقد مريضاً في المستشفى ما  
إذا كانت ثمة حياة بعد الموت؟

فرد سام موافقاً:

- حدث لي ذلك.

وفي جزء من الثانية، عبر وجه فيديريكا ذهنه.  
أين هي؟ أئمة عالم آخر؟ مكان سنذهب إليه جميعاً؟  
لكنه أجهد ذهنه للتخلص من هذه الأفكار.

استأنفت غريس:

- في نظرك، من يقرر في اللحظة التي سيموت فيها الإنسان؟  
قطب الطيب حاجبيه:

- إذا تركنا جانبها عمليات القتل والانتحار، نموت لما يستنفذ  
الجسم موارده . . .

- هراء . . .

رد سام مدافعاً:

- هذه هي الحقيقة، أعمار البشر تحدّدها أعمار شرائينهم،  
وحالتهم الصحية تتوقف على بنائهم وتغذيتهم ونمط عيشهم.

- وفي حالة الحوادث؟  
هز كتفيه.

- هذا هو ما يسمى «مخاطر الحياة»، أليس كذلك؟ سلسلة من  
المصادفات السيئة تجعلنا نكون حاضرين في المكان السيئ وفي  
الوقت غير المناسب.

- ألا يبدو لك هذا في غاية السذاجة؟

- لا ييدو لي ساذجاً. ثم إنني لا أعرف إلى أين تريدين أن تبلغني

بي . . .

فجازفت بالقول:

- لتخيل أن ساعة موتنا وظروفها مبرمجة مسبقاً.

- شاهدت «ماتريكس» على التلفاز، لكنّي لم أفهم منه شيئاً

يُذكر.

- أتحدّث بجدّ، تخيل شابة كان من المقرر أن تلقى حتفها في

حادث طائرة . . .

- أنا لا أؤمن بتّهات القدر هذه.

- تخيل أنها تركت الطائرة لأسباب عاطفية في آخر لحظة،

محبطة بذلك مخطّطات الموت.

- أقول إن هذه المرأة محظوظة للغاية، وهذا أمر جيد بالنسبة

إليها.

- لا يمكن للمرء أن يخطئ موعده مع الموت.

- ينبغي الإيمان بخلاف ذلك.

حدّقت غريس في عيني سام.

- ما أحارّل أن أشرحه لك هو أن لكل شيء معنى يا غالواي. لا

يحدث إلا ما ينبغي أن يحدث، لكن العواطف الإنسانية توقع خللاً

أحياناً بميكانيكا . . .

- ما صلة هذا بجولييت؟

- كان من المفترض أن تختفي في هذه الحادثة، كان هذا هو

الوضع الطبيعي للأشياء، وقد أوفدتُ لتصحيح هذا الخطأ.

- أي خطأ ستصلحين؟

- أنا مبعوثة يا غالواي . . .

- مبعوثة؟

- أنا مرسولة . . .

- شكرأً، لقد درست لعشر سنوات، وأعرف معنى مبعوثة،  
لكنك لم تطلعوني على فحوى مهمتك.

- ظننتك فهمت، اسمع يا دكتور: تمثل مهمتي في استرجاع  
جوليست.

- إلى أين؟

أجبت وهي تومئ بأصبعها إلى الأعلى:

- إلى هناك.

لزم سام الصمت لدقائق تقريرياً على شاكلة طبيب يرکز قبل تحرير  
الوصفة.

- إذا كنت قد فهمت فأنت موظفة مكلفة بتدبير شؤون الموت  
هناك في الآخرة؟

- هذه نظرتك أنت للأمور.

- ما يخيفني أكثر . . .

- نعم؟

- ما يخيفني أكثر هو أن تكوني مؤمنة حقاً بكل ما تقولين، أليس  
ذلك؟

قالت غريس مؤيدة:

- أفهم أنه من الصعب تقبل الأمر.

- لقد شوّش ذهنك شيء أجهله، لكنني طبيب وأستطيع  
مساعدتك على . . .

- كف عن عرض مساعدتك بمناسبة وبغير مناسبة!

- عرضت عليك هذا لمصلحتك .
- إنني أهزا بتعاطفك : لقد مت ودفنت منذ عشر سنوات .
- إذا كان الأمر كذلك ، فكفاية من الكلام ! اخرجي من بيتي !
- فقالت غريس وهي تنهَّد :
- التعاون معك لن يكون هيناً .
- توجهت نحو النافذة التي دخلت منها وقالت :
- ثمة شيء أخير يا دكتور : كُفت عن سؤال الناس عني . دع عنك مارك روتيلى ، ولا تكلم أحداً في كل هذا .
- لماذا ؟ لأنك الوحيدة التي تمنحين لنفسك الحق في اقتحام حياة الآخرين ؟
- اعمل بنصيحتي : لما يشرع المرء في نبش الماضي ، فإنه لا يبقى بمنأى عن المشاكل .
- هراء . . .
- لقد أذر من أنذر .
- وفجأة سيطر الطبيب المخلص لمهمته على الرجل الغاضب ، فشعر سام على نحو غامض بالذنب لأنّه ترك امرأة يظهر أنها بحاجة إلى علاج نفسي تصرف إلى حال سبيلها . وجدد اقتراحه :
- إذا احتجت إلى مساعدة ، يمكنك زيارتي في أثناء عملي بالمستشفى .
- وهو كذلك ، سئلتني من جديد يا غالواي ، سئلتني .
- تخطّت غريس حاجط النافذة ، وهمت بالقفز ، لكنّها توقفت وأرسلت طلقة أخرى باتجاه الطبيب :
- تبا ، كدت أنسى : لا داعي لأن تقلق : زوجتك لا تزال تحبّك حتى بعد ما بُحث لها به بالمقدمة ذلك الصباح .

ظلّ سام مصعوقاً وهو يستشيط من الغضب لبضع ثوانٍ قبل أن يندفع نحو النافذة، وصاح في الشارع:  
- منذ متى تتجسسين عليّ؟

لكن غريس كوستيللو كانت قد اختفت.



في كليات الطب يلقنوننا أن الصورة الأخيرة التي يحملها كثير من الناس معهم هي وجه طبيب الطوارئ.

أحاول ألا أنسى هذا الأمر أبداً لما أرى كل تلك العيون المرعوبة التي تتعلق بعيوني.

حوار وارد في فيلم «دراكون فلاي» ل톰 شادياك.

الثلاثاء صباحاً - مستشفى سان ماتيوس  
- تأخرت يا دكتور غالواي.

رد سام وهو ينهي تزريز قميصه:  
- طيب طيب، سأصل حالاً، مسافة الطريق.

كانت جانيس فريمان، المسؤولة عن مصلحة الطوارئ، بصدّد توزيع مختلف تدخلات الصباح. هذه الأفروأميركية ذات الجسد الضخم تُكَثِّرُ كثيراً من الود لسام الذي يبادرها المشاعر نفسها.

- هل انفجرت شحنة ديناميت قرب رأسك يا دكتور؟  
سألته وهي تلمّح إلى شعره المشعث.

- قضيت ليلة مضطربة.  
- هذا أمر ساز.

قال سام مدافعاً:

- ليس ما تبادر إلى ذهنك.
- كفى، لست ملزماً بتبرير الأمر.
- طيب، بماذا ستكلفيني؟
- أريد التحدث إليك يا سام.

بينما كانت جانيس تهمّ بأن تبوح له بشيء، اقتحمت امرأة المستشفى حاملة طفلاً بين ذراعيها.

- أنا بحاجة إلى طبيب، بسرعة!

قال سام:

- سأتکفّل بک.

## فاقدانیت جانیس:

سأرافقك.

سؤال سام السيدة وهو يضع الطفل على نقالة.

- ماذا وقع يا سيدتي؟

- إِنَّهُ أَبْنَى مَا يَلْزَمُ .

- کم عمرہ؟

- أربع سنوات. لسعه زنبور في عنقه ونحن في طريقنا إلى المدرسة.

## زنبر؟ في عز الشتاء؟

- أنت متأكدة من أنه زنبور، يا سيدتي؟

أظن -

اللعنـة، لم تعد ثـمة فصـول.

شق سام قميص مايلز تماماً لي Finch اللسعه المزعومة وعثر فعلاً على انتفاخ بارز في أسفل عنقه .  
تناً

سألت جانيس:

- أهي وَدْمَة وعائية (œdème Quincke)؟

- نعم.

- ينبغي الإسراع يا سام، الصبي لا يتنفس!

- سأقوم بثقب القصبة الهوائية.

قبل أن ينهي الطبيب النطق بالجملة، انحنى على الطفل وثبت قسطرة في قصبة الهوائية، تحت تفاحة آدم مباشرة. ألصق بها بعد ذلك أنبوب محقنة لكي يمكن الطفل من التنفس.

سألت جانيس:

- أَضَعَ التنفس الاصطناعي؟

قال سام لإحدى الممرضات:

- ضعي 300 من الأدريتالين و400 من السولوميدروول.

ثم التفت إلى والدة مايلز:

- الأمور على ما يرام يا سيدتي، لن يصيب ابنك مكروه.

وقف سام أمام القهوة يرشف أول مشروب ذلك الصباح.

شُعّت في محياه ابتسامة رضا. لقد شرع يومه كما يحبّ:

تشخيص صحيح، تدخل دقيق فإنقاذه حياة!

سألته جانيس وهي تلحق به:

- يروقك أن تتشبه بالإله، أليس كذلك؟

فرد فوراً:

- أيروتك أن تسأليني أسئلة بلهاء؟

- أحسنت على كل حال.

- شكراً، أتشربين قهوة؟

- هيا، لتصرف كمجانين: أعطني كابوتشينو!

- أنت من تركت ستاً وثلاثين رسالة على جهاز الرد على المكالمات البارحة؟

- بل ستاً وثلاثين ألف رسالة.

- سألاها وهو يضع بعض القطع النقدية في آلة القهوة:

- أكان ثمة طارئ؟

- لست أنا من سيخبرك يا سام: مهنتنا سلسلة من الأفراح والأتراح . . .

دعاهما فجأة بقلق:

- ادخلني رأساً للموضوع.

- يتعلق الأمر بأنجيلا. لقد ماتت يا سام. وقع ذلك صباح الأمس.

- مس. . . مستحيل. كانت حالتها مستقرة.

- لا أحد استطاع أن يفهم ما وقع. لعله تعفن قاتل. شيء بالغ الندرة على كل حال.

غادر سام قاعة الاستراحة إلى الممر محطمًا تماماً. ضغط كالذاهل على زر المصعد. كان من اللازم أن يتأكد بنفسه.

- انتظر يا دكتور غالواي!

وبما أن المصعد تأخر، هرع إلى سلم المصلحة متوجهًا نداء جانيس.

دفع بباب الحجرة، فوجد السرير فارغاً من كل أغراض أنجيلا الشخصية. شعر بالانهيار. كانت ثقته كبيرة بأنه سينجح في إنقاذهما.

لحقت به جانيس وقالت وهي تمدد له حقيبة ملفات:

- تركت لك هذا.

فتحها سام بلهفة. لم تكن تحتوي على رسالة، بل مجرد حزمة من الرسوم: رسوم بالأقلام الملونة، رسوم بالألوان المائية، رسوم مكونة من قصاصات ورق الكرتون والرمل. رسوم مُلغزة كالعادة، بنسيجها الشخين الذي يذكره بلوحات زوجته. أشكال مجردة بألوان الدم والتراب المحروق الممتزجين في مسارات لولبية معذبة.

هل لهذا معنى؟ لمساعدة الأطفال على التعبير عن مخاوفهم وانفعالاتهم، كثيراً ما يلجأ إلى الرسم. ذلك أنهم كثيراً ما يمارسونه بعفوية أكبر من الكلام، بل يتطلب أحياناً من مرضاه الصغار المصابين بالسرطان أو اللوكيميا أن يرسموا المعركة بين مرضهم وجهاز مناعتهم. ورغم أن ذلك لم يكن يخضع لمنطق علمي، فقد لاحظ بأن النتيجة غالباً ما تسمح بالتنبؤ بتطور المرض بكيفية دقيقة إلى حد ما.

لكن كيف سيؤول رسومات أنجيلا؟

وبيّنما كانت تدعوه جانيس للخروج من الغرفة واستئناف عمله، تذكر فجأة حديثه مع غريس كوستيللو بالأمس.

- أتساءلين يا جانيس أحياناً؟

- عماداً؟

- ألم تتساءلي قط إلى أين يذهبون؟

- أتفصد المرضى الذين يرحلون عنا؟

- نعم.

. وأرسلت جانيس فريمان تنهيدة عميقه.

- لا يذهبون إلى أي مكان. إنهم يموتون.



كان سام يذرع سطوح المستشفى جيئة وذهاباً وقد حمل ساندوتشاً في يد، وفي اليد الأخرى هاتفه المحمول. هنا تحط الطائرات العمودية عند نقل المرضى في حالة طوارئ أو عند تسليم الأعضاء البشرية المزروعة. وقد كان الولوج إلى السطح يخضع لقواعد صارمة، إذ لم يكن مسموحاً للأطباء البلة أن يقضوا به فسحة الغداء مهما كان الحال، لكن سام كان يعشق هذا المكان، وهو المكان الوحيد الذي يوسعه أن يدخن فيه بهدوء. كانت هذه الحرية أحب إليه من أن يصطف في أسفل البناء مع المدخنين الآخرين المنبوذين اجتماعياً كما لو أنهم من حزب الشيطان. إن الولايات المتحدة من أكثر المناطق في العالم سهولة للحصول على السيجارة، لكن من أصعبها لتدخينها.

اغتنم سام فترة الاستراحة ليهاتف المحامي المكلف بقضية جولييت. كانت الشابة لا تزال رهن الاعتقال الاحتياطي، ولم يكن المحامي متوفلاً بشأن إطلاق سراحها في الساعات القادمة. قال له سام إنه مستعد لدفع مبلغ الكفالة إذا طلب الأمر ذلك. ولكي يحصل على مزيد من الأخبار، اتصل لاحقاً بقنصلية فرنسا مقدماً نفسه بأنه خطيب جولييت. جرى تحويله من قسم إلى آخر، وبعد انتظار طويل، تكرّموا بإحالته على موظف طمأنه بأن القنصلية «قد اتخذت كل التدابير لحماية الأنثى بومان»، لكنه لما سُأله عن تلك الإجراءات، واجهه الموظف بلغة خشبية. عَبر عن تذمره من الكيفية التي تُعامل بها جولييت وأعلن أنه من غير المقبول أن تخلي فرنسا، التي دأبت على إعطاء دروس في الديمقراطية، عن أحد رعاياها بهذه الطريقة. أفهموه برأي جاز أن عليه ألا يختلق المشاكل. فالجميع يعلم أن حكاية التغيير هذه لا أساس لها، لكن بعد الخلاف الناشئ بين الدولتين حول

العراق، فباريس تبحث عن سبيل للتقرب من واشنطن، ولا ترحب في إثارة ضجة بسبب هذه الحادثة.

رد سام محتداً:

- حسناً، ولا يهمكم تدمير حياة أحد مواطنيكم لأسباب سياسية غامضة!

وبينما استرسل في انتقاداته للسلطات الفرنسية، انفتح باب السطوح فجأة لظهور غريس كوستيللو. أنصتت إليه لحظة وهو يصرخ، ثم توجهت نحوه وانتزعت الهاتف الخلوي من بين أصابعه وأنهت المكالمة.

- أعيديه إليّ!

- اهداً يا دكتور غالواي، فصديقتك سُيطلق سراحها في آخر المطاف.

- لم يكن ينقصني قطعاً إلا أنت! إن استمررت في مطاردتي، سأضطر إلى ...

- أنت من عرضت عليّ المجيء!

قاوم سام الرغبة في إشعال سيجارة أخرى، وت نفس بعمق.

- هيا يا غريس، أو مهما كان اسمك، بماذا ستخبريني اليوم: بأنك أنت من قتل كينيدي؟

- أفكّرت فيما خضنا فيه بالأمس؟

- لعلّك، لدى مشاغل أخرى غير مشاغلك.

- لعلّك لم تصدق أنني موقدة، أليس كذلك؟

تنهد سام من جديد. تقدّمت غريس قليلاً من حافة السطوح وراحت تتسلّى بإحافة نفسها بالنظر إلى الأسفل.

كان منظر المدينة من هناك أخاذًا: مياه إيسٍ تعكس أشعة

الشمس، فتبعد متألقةً. أما المشهد فبدا مذهلاً بتنوعه، يجمع بين روعة ناطحات السحاب من جهة، والأراضي الصناعية غير المزروعة الواقعة غرب كويت، من جهة ثانية.

قال وهو يدنو من غريس:

- منظر جميل، أليس كذلك؟ لعلكم معتادون هناك في السماء على هذا النوع من المناظر . . .

- يا لها من فكرة! ألم يخطر لك يوماً أن تكتب إسكيبيشت؟ صعدت بخفة إلى أعلى سلم حديدي لتصل إلى منصة ثُبّت عليها ما يشبه الهوائي. كان مكاناً خطيراً يُمنع الوصول إليه، لكن سام لحق بها بداع التحدي، وأيضاً رغبة في حمايتها إن راودتها رغبة مفاجئة في أن تقفز في الفراغ. فمنذ وفاة فيديريكا، كان يتخيل المترحرين في كل مكان.

- تبدو مكدر المزاج يا دكتور، ألسنت على ما يرام؟

- كلا، لست على ما يرام. المرأة التي أحبّت مسجونة، ثم إنّي فقدت مريضته صغيرة أعزّها كثيراً.

هزّت غريس رأسها برفق.

- الصغيرة أنجيلا؟

- كيف عرفت؟

- أرقّ لحالك. أعلم أنك طبيب شاب كفء حسن الطوية، لكن ثمة شيء لم يلقنوه لك خلال دراساتك.

- ما هو؟

قالت بعد روّة:

- أن مقاومة المجرى الحتمي للأشياء عبث. حدّجها بنظرة قاسية، وقال:

- المجرى الحتمي للأشياء لا وجود له! لا وجود لشيء مسلط  
سلفاً.

فردت وهي تنهّد:

- أنا لا أقول بضرورة أن يكون المرء قدرياً، ولكن في لحظة من اللحظات، ينبغي أن يعرف كيف يتراجع . . .

- لا تعول علىّ في هذا لأنّ التراجع يعني الخضوع.  
فقط اطعه بجهاء:

- من المفروض أن يموت الإنسان يوماً، هكذا هي الأمور.

- ماذا تعرفين عن ذلك؟

ونظر إلى وجهها الذي احتدّت قسماته من جديد.

- لأنني متّ منذ زمن.

- إنّك تهذين!

ندم على الفور على استسلامه للغضب. فهذه المرأة ليست في كامل قواها العقلية، وعليه أن يعاملها كمريضه.

- اسمعي، إنّك في مستشفى، لماذا لا تغتنمي الفرصة لكي تستريح بعض الوقت.

- لست تعبة.

- أستطيع أن أ Offer لك غرفة في جناح الأمراض العقلية. لدينا متخصصون في غاية الكفاءة يمكن . . .

- هكذا إذن، تعاملني كمخبولة! ليس لأنني ميتة سأسمع لك بشتمي.

- حسناً، ثمّ سبقولين لي بعد قليل إن مخلوقات فضائية هي التي تحكم في عقلك . . .

- اهزا بي إذن كيّفما حلا لك!

- أنتِ من سعيتِ لذلك!

ثم تنهَّدت غريس بعمق من جديد وقالت وهي تنهض واقفة:

- لن نصل إلى نتيجة، فأنت تتكلّم كثيراً ولا تنصل كفاية.

قالت هذا وأشهرت المسدس الذي كانت تحمله في حزامها

وصوّبته نحو الطبيب.

- آسفة، أنت من بحثت عن هذا.

\*

كان مكتب سام عبارة عن حجرة متواضعة تطل على النهر. وضع على الطاولة حاسوب ذو لون فضي، وبجواره يوجد إطار فارغ وقبعة أميركية وكمة يرسبل قديمة موقعة. وعلى لوحة فلين مثبتة على الجدار قبالة الباب علقت رسوم الأطفال. جلست غريس على المقعد الرئيس وهي لا تزال تُشهر سلاحها بينما جلس سام على أحد المقاعد المقابلة لها.

- أنصت إلى الآن بجدية، وكف عنّي ملاحظاتك وتهكمك،  
مفهوم؟

- حاضر.

أجاب سام وقد ساوره مزيج من الفضول والخوف.

- قبل كل شيء، كل ما قلت له لك مساء الأمس صحيح: لقد قتلت منذ عشر سنوات، ولسبب لن أشرحه، بعثت إلى هنا في مهمة. تمالك سام نفسه حتى لا يرد.

- ما زلت لا تصدّقني؟

- كيف لي أن أصدّقك؟

- ماذا تقترح إذن؟

- أظنّ أنت لم تُقتلني، بل أوهمت بموتك. أظنّ أن الشرطة أعطتك هوية جديدة لكي تحميك.

- هلا قلت لنا ممّن ستحميوني؟

- لست أدرِي: من المافيا أو من عصابة إجرامية كانت تهدّدك... سبق أن سمعت في التلفاز عن قصة مماثلة.

رفعت غريس عينيها إلى السماء.

- إذا كنت تظنّ أن الأمور تسير على هذا النحو...  
قامت واقفة لتذرع الحجرة جيئة وذهاباً بحثاً عن فكرة لإقناع الطبيب، وأشارت فجأة إلى المقال الذي يتحدث عن موتها في صحيفَة كانت موضوعة على المكتب.

- كم كان عمري لما مت حسب هذا المقال؟  
أجاب سام بعد أن ثبّت:  
- ثمان وثلاثون سنة.

- أظنّ أن الصورة على الصحيفَة هي صوري؟  
- أنت أو أحد يشبهك. لعلّها أختك.

- ليست لي أخت، يمكنك التأكّد من ذلك بالعودة إلى سجلي.  
دنت منه، وكانت كلّ حركاتها تعكس رشاقة عفوية.

- ألك دراية؟  
- بماذ؟  
- بالنساء.

- آتكت دون أن تشعر على المكتب والسلاح في يدها، وانحنىت عليه. كانت تبدو في هذه اللحظة في غاية الشهوانية، وأدرك سام أنها تحاول استغلال ذلك، فبذل قصارى جهده حتى لا يرتكب.

- كم تقدّر ستي؟

- لست أدرى.

- هيا، حمن!

- بين الثلاثين والأربعين.

- أشكرك على الثلاثين. الواقع أنني أملك المظهر نفسه الذي كان لي يوم مماتي، كما لو أن الزمان توقف بالنسبة إلى لمدة عشر سنوات. ألا تجد هذا غريباً؟

لم يُجب سام بشيء، فاسترسلت غريس:

- ومع ذلك، ما العمر الذي يفترض أن يكون لي الآن؟

- خمسون سنة تقريباً.

- وهل عمري خمسون سنة في نظرك؟

- مع الجراحة التجميلية اليوم، أعرف نساء في الخمسين يمكن أن توضع صورهم على صفحات مجلة بلاي-بوي.

اقربت منه أكثر وأزاحت شعرها حتى تُظهر أسفل عنقها:

- انظر، أترى ندب عملية جراحية؟

- كلا، أجاب سام.

رددت وقد بدت عليها علامات الرضا:

- شكراً على صراحتك.

- على كل حال فهذا لا يثبت مع ذلك ما ورد في كلامك بالأمس: من أن حياة كل كائن مكتوبة في مكان ما في . . .

ورسم سام مزدوجات بأصابعه في الهواء:

- . . . «كتاب القدر».

قالت غريس مؤيدة:

- إنك تصوّر الأمر بشكل كاريكاتوري، لكنه ليس كذلك.

- إنه لأمر عبّي ومؤسف: من يؤمن اليوم بالقضاء والقدر؟

- مع كامل احترامي، منذ عشرين قرناً والديانات تناقش هذه القضية، وتأتي أنت فتحاول أن تسويها في ساعات. عادت إلى مكانها على المبعد.

- لكن جاذبين للحظة يا دكتور. أفهم جيداً أنه من الأريح لنا أن نعتقد بأننا نتحكم في أحداث حياتنا. ونحن ننجح في معظم الأحيان في إقناع أنفسنا بذلك، لكن هناك بعض الأشياء أحياناً لا نستطيع أن نغير فيها شيئاً. فيما يتعلق بجولييت، كان من المفروض أن تموت في تلك الحادثة. يؤسفني أن أقول إن على كلّ واحد منّا أن يسير في الطريق الذي قُدر له.

- ها أنت تنتقلين الآن إلى الترهات البوذية!

- لا علاقة لهذا بالبوذية، وسواء أعجبك الأمر أم لم يعجبك، سأخذ جولييت معي.

- اعذرني فضولي، بأيّ وسيلة نقل تنوين العودة إلى «آخرتك»؟ بطريق طائر؟

- الواقع ليست الوسيلة هي التي تعوز. سنستعمل معاً القناة نفسها.

شغلت حاسوبها المنقول، وارتبطت بالشبكة العنکبوتية، نقرت شيئاً على لوحة المفاتيح ثم أدارت شاشة الباوربوك<sup>(1)</sup> إلى الطيب. كان يبدو في الظاهر أنّ المعروض على الشاشة صفحة من موقع يومية إخبارية: النيويورك بوست. شريط تحذير يعبر الجزء الأعلى من الشاشة:

---

(1) Powerbook سلسلة من الحواسيب النقالة المهنية طورتها وسوقتها شركة آبل بين عامي 1991 و2006.

## حادثة عربة كوابل متحركة (تيليفريك).

في الثانية والنصف من زوال اليوم، سقطت إحدى عربات روزفلت آيلند المعلقة في النهر وعلى متنها شخصان على الأقل.

لم يفهم سام المراد. ذلك أنه سمع نشرة الأخبار بالكافتيريا قبل ساعة من ذلك، وحسب علمه، لم يحدث شيء بعربات نيويورك المعلقة. فهذه المرأة بلهاء قطعاً. لقد بلغ بها الأمر إلى حد اختلاف الأخبار على صفحات الجرائد لكي تثبت نظرياتها الشهيرة.  
قالت غريس موضحة:

- سيقع حادث يوم السبت المقبل، وسنكون أنا وجولييت في العربية لما ستفصل.

أثاره هذا السيناريو الغريب فكان يرد: «لن أتركك تفعلين»، لكنه تمالك نفسه وسألها من جديد:

- ولكن لماذا تقضين على كلّ هذا؟

تفرسته غريس ففهم عندئذٍ بأنّ ما كانت تهمّ السؤال عنه هو الموضوع الحقيقي لزيارتها.

- أقص عليك كلّ هذا لأنني أطمع في مساعدتك.

\*

كان سام يحذق في شاشة الحاسوب، فقالت غريس بنبرة رزينة:  
- ستقع الحادثة في غضون أربعة أيام على الساعة الثانية عشرة والنصف تماماً. وجولييت تثق فيك، تدبر أمرك لكي يجعلها تركب العربية، لكن لا ترافقها.  
- إذا كنت تعتقدين أنني سأتعاون... .

- أخشى ألا يكون أمامك خيار آخر.

- أتهدّدتي؟

- إنه أسلوب للنظر إلى الأشياء.

أهوى سام بقبضته على المكتب.

- أنتِ لست مخولة فحسب، بل خطيرة كذلك!

هزّت رأسها.

- ألاحظ أنك ما زلت لم تفهم. لا شيء يمنعني من قتل

جوليت قبل ذلك الموعد. لقد أمهلتك إشفاقاً عليك، لأنني أدرك كم  
سيشقّ عليك فراقها . . .

وأرته سلاحها.

- . . . لكن إن لم تساعدني، ثق بي فإني لن أنتظر السبت لكي

أصفي حبيتك ولن أترك لك الفرصة حتى لترها حية من جديد.

- سترى.

قام بفترة وارتمى عليها كمسعور. تمكّنت بلا صعوبة من تجنبه بالقفز إلى الخلف. فقد سبق لها أن أخضعت مَنْ هُم أكثر تنطعاً منه

خلال مسيرتها المهنية، لكن شعورها بالإرهاق جعلها تتركه يمسك بذراعها وينزع سلاحها، ثم قال مبتهجاً وهو يلوح بالمسدس:

- يبدو أنّ الأدوار انقلبت.

تناول هاتفه وقد أبقاها على مسافة منه:

- آلو، الأمان؟ أنا الدكتور غالواي، أوجد في مكتبي، تعالوا

بسرعة! هناك امرأة تسللت إلى البناء وهي تحمل سلاحاً، لكنني نجحت في السيطرة عليها.

أنهى المكالمة بنوع من التراخي الظافر:

- لماذا لا تخابئن كما كنت تفعلين؟

قالت وهي تهزّ كفيها:

- أتظنّ أنه مشحون؟

كان لسام بعض المعرفة بالسلاح استقاها من الأحياء السينية التي قضى بها طفولته. تفحّص المسدس فلاحظ أنه لم يكن مشحوناً فعلاً. كانت غريس قد فتحت باب المكتب، ولما بلغت العتبة التفت نحو سام وقالت له محدّرة:

- أطلب منك للمرة الأخيرة يا دكتور غالواي أن تساعدني:  
صدقني وساعدني. هذا في مصلحتنا معاً.  
قالت ذلك واختفت بسرعة البرق.

كان يعرف كيف يبدو ضعيفاً لـما يقتضي الموقف ذلك، وهذا هو سر قوته.

كيم وزنكرافت

- آسفين يا دكتور غالواي، لقد أفلتت مـنا.  
حاول سكينر، المسؤول عن الأمن، أن يبرر الأمر عبر الهاتف.  
قال مـعترفاً:

- لقد خدعتـنا. استقلـت المصعد من الطابق العاشر، لكن لـما انفتحـت الأبواب في الطابق الأرضـي، لم نعثـر على أحدـ. نحن الآن بـصدد مشاهـدة تسجيـلات الفيديـو، لكنـي أظنـ أنها في مكان بعيدـ الآنـ.

أجبـ سـام دونـ أن يـبدو عليه الاستغرـابـ:  
- لا بـأسـ.

قالـ في نفسه وهو يـضع السمـاعةـ: اللـعنةـ، هؤـلاء العـاجـزينـ غيرـ قادرـينـ حتـىـ على القيام بـعملـهمـ.

من المؤـكـدـ أنـ غـريسـ كـوـستـيلـلوـ هذهـ اـمـرـأـةـ رـهـيـةـ. وـبـقـيـ مـتـرـدـداـ للـحظـةـ حـيـالـ المـوقـفـ الـذـيـ سـيـتـيـأـهـ. هلـ يـخـطـرـ الشـرـطـةـ بـهـذهـ الحـادـثـةـ؟ـ الأمـرـ لاـ يـخلـوـ منـ مـخـاطـرـةـ، ذـلـكـ أـنـ زـعـمـ أـنـ شـبـحـ اـمـرـأـةـ مـاتـتـ منذـ

عشر سنوات يطارده، سيصير مسخرة. فكوسنيللو من الوجهة الرسمية ماتت ودفنت، بل إن روتيللي تعرف على جثتها. هذا فضلاً على أن سام لا يملك أي شاهد، لأن غريس كانت تحرص على الظهور له لما يكون بمفرده.

وقال في نفسه فجأة وقد خطر بباله الموضع على الشبكة العنكبوتية: لكنني أملك حجة! وهرع إلى حاسوبه ليتفحص قائمة الواقع التي تم تصفّحها مؤخراً. قلب المستند في كل الاتجاهات، لكن العثور على الصفحة التي تعلن عن الحادثة المرتقبة استحال عليه. بقي له بالطبع السلاح الذي انتزع منها، لكن كيف السبيل لاستغلاله؟ من من بين مفتشي الشرطة سيقبل البحث عن البصمات، وحتى لو عثر على بصمات كوسنيللو، فماذا سيثبت ذلك؟

تمهل سام وهو لا يزال مصدوماً في تعبئة بطاقة الإخبار بحادثة. لم يكن يود أن يتهم بالإهمال، وبذلك تذكر مرة أخرى كلام كوسنيللو الذي لا يصدق. هو بالطبع لا يصدق منه كلمة واحدة - ومن سيصدقه؟ -، لكن ذلك لم يمنع تصايقه من بعض الأسئلة.

فتح مفكرة حاسوبه، ودون باختصار النقط الغريبة:

● هل ماتت غريس كوسنيللو منذ عشر سنوات حقاً؟ إذا كان الجواب بالإيجاب، فمن يتنقص شخصيتها؟ وإلا كيف عادت إلى مانهاتن؟

● كيف أمكنها أن تعرف قبل أي كان أن جولييت لم تمت في حادث تحطم الطائرة؟ وكيف علمت بما قلته لفيديريكا بالمقبرة؟

● ماذا يخفي خطابها حول دور المبعوثة المزعومة؟ وأنهى تدوينه بـ:

● هل هذه المرأة خطيرة؟

وحاول مرّة أخرى أن يطمئن نفسه: كلّ هذا لا يعود أن يكون تعاقب مجموعة من المصادفات. إذا أخذت مجتمعة، بدت محيّرة، لكن إذا أخذ كلّ منها على حدة، بدت جميعها قابلة للتفسير. ومع ذلك ظلّ سؤال آخر يشغل باله: لماذا تزعجني هذه المرأة؟ ولماذا يتهيأ لي أنّ كلّ ما تقوله مجرّد كذب؟ لكنه لم يدون هذا. كلا، عليه أن يستجمع قواه، وأن يتمسّك بالعقل، وأن يعالج القضية من الزاوية الطبيعية. تناول إذن آلة تسجيل صغيرة وضغط على الزر لكي يسجل كلامه:

الدكتور غالواي، تشخيص المريضة غريس كوستيللو التي استقبلتها في زيارة طبية يوم 24 كانون الثاني / يناير بالمستشفى قبل أن تلوذ بالفرار.

تبعد على المريضة مجموعة من الأعراض السيكولوجية: أفكار هذيانية ذات طبيعة روحية، العجز عن إدراك بعض مظاهر الواقع، اضطراب شديد في الفكر.

تبعد على المريضة، التي تلاحقها الهواجس، أعراض بارانويا متقدمة بحيث تبدو مقتنة بالخضوع لقوى خارجة عن شخصيتها، أي الائتمار بأوامر منظمة سماوية تملك قدرات لا حدود لها.

وبحسب تقديرى فإن السيدة كوستيللو لم تتناول مخدرات ولا كحولاً. وهي تتميز بسرعة البديهة، وأفكارها الثابتة لم تؤثّر فيما يبدو على قواها العقلية، ولا تلاحظ عليها علامات الانطواء اللامبالي<sup>(1)</sup> ولا متلازمة الإغماء التخشبي<sup>(2)</sup>.

---

. Repli apathique (1)

. Syndrome catatonique (2)

ويبدو أن المريضة التي تنكر مرضها تماماً لا تخضع حالياً لأي علاج طبّي مناسب لمرضها المتمثل فيما يبدو في مرحلة انتكاسية من الفصام العُظامي<sup>(١)</sup>. ويخشى من أن تقوم بأفعال غير متوقعة بسبب عدم تناولها مضادات الذهان، وهو ما يجعل منها شخصاً قد يكون خطيراً.

\*

نجحت غريس كوستيللو في مغادرة المستشفى من أحد أبواب الخدمة. هي الآن تتجه شمالاً عبر الشارع الخامس. وهي تشعر بالأمن بما أنّ لا أحد يعرفها، تسّكّع بين السياح وسط متاجر السلع الفاخرة والمباني الشاهقة المتوجّحة. هي تعلم بالطبع أنّ في الأمر مخاطرة، ذلك أنّ زملاءها السابقين يمكن أن يلمحوها في كلّ لحظة، لكنّ حتى لو حدث ذلك فسيظّلون أنّهم رأوا امرأة تشبهها.

كلا، لا داعي للقلق، بل لقد سمحت لنفسها لأول مرة منذ أن عادت بالاستمتاع بالمناظر. اللعنة! كم كانت تتمتّى أن تعيش في هذه المدينة وتعمل. فقد كانت نيويورك من أكثر مدن العالم حركة. أحببت كل أحيايّها، وكلّ تلويناتها. لا شيء يشبه ما يقع هنا. لم تتغيّر الأجواء في الشارع الخامس: ما زال الناس يصطافون في طوابير لزيارة مبني «إمبائر ستيت بيلدنج»، وما زال الأسدان الرخاميان يحرسان باليقظة نفسها بباب المكتبة البلدية، وواجهات تيفاني الزجاجية تتلاؤ كما كانت أيام أو드리 هيبورن. كما أنّ السياح اليابانيين ما زالوا ينتشرون في كل أنحاء الشوارع المتفرّعة، وما زالت حقائب فويتون

باللغة الغلاء! لكن بدا لها مع كل ذلك أن شيئاً ما تغير، وهي غير قادرة على تحديده. تبدو مانهاتن ربيماً أنظف وأكثر تمدناً، لكن يخيم عليها جو لا عهد لها به، كما لو بُتُر شيء منها.

لما بلغت الشارع التاسع والأربعين انعطفت نحو مركز روكتيلر وعبرت حديقة النافورات السبع لكي تبلغ الميدان المشرف على الشارع. يضم مركب آر ديكو أكبر مجموعة ناطحات سحاب في العالم. وهو يشكل بمفرده، بحديقه ومطاعمه ورواقه التجاري وأعماله الفنية المئة الموزعة بين أجنهاته، مدينة صغيرة حقيقة داخل مانهاتن.

التقت غريس على برج بلازا ثم دخلت إلى أحد المقاهي. اختارت مائدة صغيرة بجانب نافذة زجاجية طويلة. كان المنظر من هناك خلاباً: حلبة التزلج وتمثال بروميثيوس النحاسي الذي ينشر ضوءه المتقد وسط الماء المتدقق والأعلام الملونة.

لما جيء لها بقائمة الطعام، تنبهت إلى أنها جائعة كما لو أنها لم تأكل منذ عشر سنوات، وقد كان الأمر كذلك فعلاً. قلبت أوراق القائمة بانتشاء أمام التشكيلة البالغة التنوع من الكعك والمعجنات. كل الحلويات أثارت شهيتها: حلوى التراميسو والقطاير المسطحة وكعكة الشوكولاتة والشهداء ولفائف القرفة... اختارت في النهاية قهوة بالحليب وقطعة من تورته بثلاثة أنواع من الشوكولاتة رغم غلتها الفاحش: 7,5 دولار للقطعة الواحدة! لقد جُنَّ العالم حقاً خلال فترة غيابها.

كانت ظهريرة ذلك اليوم جميلة، باردة، لكنها مشمسة. وكانت أشعة الشمس تعكس على الجليد فتغمر السطحية وتجعل المبني يبدو متلائمة. ومضت غريس تشاهد لفترة طويلة الأطفال وهم يتزلجون

على الحلبية، فشعرت بقلبها ينقبض، ذلك أنها تذكّرت ابنتها. كانت تأتي بابنتها جودي أول ثلاثة من كانون الأول / ديسمبر كل سنة لكي تستمتع بالضوء الغامر الصادر عن شجرة الميلاد الضخمة المنصوبة في الميدان. كانت أكبر نجمة في الفن أو غيره من بين نجوم السنة تفرقع بأصابعها فينار 20000 مصباح دفعة واحدة في مشهد رائع. وكانت جودي تعشق هذه اللحظة حتى بلغ الأمر بغريس أن اعتبرتها أحسن عُرف في نيويورك.

فتّشت في جيوب سترتها فعثرت على محفظتها سليمة ومحتوها كما كان قبل عشر سنوات. ولأول مرة منذ عودتها، تجرأت على النظر إلى صورة ابنتها الصغيرة، فاعتبرتها قشريرية مفاجئة. لا شيء أكثر زيفاً من الصورة: يظنّ المرء أنه يمسك بلحظة سعيدة إلى الأبد، في حين أنه لا يخلق سوى الحنين. يضغط على الزر، وما هي إلا ثانية حتى تكون اللحظة قد اختفت.

شعرت غريس بالدموع تترافق في عينيها، لكنّها مسحتها بسرعة بمنشفة ورقية.

تبّاً! لا ينبغي أن تنهار الآن.

وليس من حقّها أن تنساق وراء عواطفها. لقد أوفدوها للقيام بمهمة، وهم قد اختاروها تحديداً لصلابتها ويقظتها وانضباطها. وقع اختيارهم عليها لأنّها كانت شرطية، والشرطية مفطوروّن على الطاعة.

\*

كان مارك روتيللي على بعد أقل من كيلومترین من هناك يقوم بدورية بستنترال بارك. ركّن سيارته بالشارع السابع والتسعين، حيث يوجد زفاف الحديقة، غير بعيد عن ملاعب كرة السلة وكرة المضرب.

استجوب منذ الصباح أكثر من مائتي شخص، لكنه لم يتمكّن من العثور على أثر للمرأة التي تقمص شخصية غريس. ذلك أنّ حديثه مع سام غالواي في اليوم السابق شوّشه إلى حدّ أنه استيقظ مراراً خلال الليل مرعوباً بكتابات فيها غريس حية تدعوه لمساعدتها.

كان واعياً بالطبع بأنّ كلّ ذلك لا معنى له: فغريس ماتت، وهو أمر يعرفه أكثر من أيّ كان. ومع ذلك كانت محادثة بسيطة كافية ليطفو كلّ شيء على السطح: العواطف القوية والحسنة وكذلك الضعفية... كانت علاقته بغريس أمراً معقداً. كثيراً ما كان يردد، منذ عشر سنوات، بأنّ الأمور كانت ربما ستتجري على نحو مختلف لو أنه امتلك الجرأة ليوح لها بمشاعره.

لكن، ألم تخمنها؟

لم يكن ذلك لأنّه لم يعرف كيف يتعامل مع النساء، بالعكس، كان حينئذ يلاقي نجاحات لا يستهان بها، وكان يبدو رجلاً جذاباً وواثقاً من نفسه. وحين كان يخرج مع زملائه من الشرطة أو رجال الإطفاء يوم السبت، نادراً ما كان ينهي الليل بمفرده.

لكن الأمر كان مختلفاً مع غريس. لم يملك الشجاعة قطّ ليوح لها بحبه. كان يتهيأ له في بعض الأيام أنها مغفرة به، لكن كيف السبيل للتثبت من ذلك؟ لا سيما وأنّه لم يكن يلمس في نفسه القدرة على تحمل الرفض. كان حبه لها أكبر من أن يحتمله. كان أخشع ما يخشاه هو أن تتنبه لهذا الصدّع الموجود بداخله، لأنعدام الثقة المتواتري خلف الصلابة البدائية، وشيئاً فشيئاً سجن نفسه في دور الرفيق الوفي الذي يمكن الاعتماد عليه.

وذات يوم ملّت غريس الانتظار، فعاشرت نقيناً من الدائرة الرابعة

لفتره من الزمن . وظنَّ روتيللي بأنها إنما فعلت ذلك لتشير غيرته وتدفعه إلى البوح بحبه ، لكنه لم يحسُّ أمره مع ذلك . واختار في الأخير أن ينسحب ، فتلاشى التقارب الذي كان قائماً بينهما لبعض الوقت .

الحقيقة أن غريس لم تكن ترغب حقاً في ذلك النقيب ، لكنها حملت منه . كانت ترحب في طفل ، ولم يكن يضايقها أن تربى بمفردها . من هنا لم يقم روتيللي الذي كان يرفض أن يظهر كخيار ثانٍ في أعين الآخرين ، بأي محاولة ، مع أنه لم يسقط قط في غرام امرأة أخرى . والحقيقة أنه لم يتمن شيئاً في حياته مثلما تمتنى أن يموت مكانها يوم علم بأنها لقيت حتفها . فممات غريس حطمه ، وتعمق الصدوع ليتحول من رجل متقلب المزاج إلى رجل ناقم .

في بعض أمسيات موسيقى البلوز ، كان يواسى نفسه بأنَّ غريس لم تعرفه قط بهذه الحال ، ومع مرور الزمن صار ذلك عزاءه الوحيد وفخره الوحيد .



رشفت غريس من قهوتها وأعادت صورة ابنتها إلى المحفظة قاطعة وعداً على نفسها بـ لا تعيد النظر إليها . عليها ألا تسعى للاتصال بجودي . فهي هنا لتصليح خطأ وليس لتقلب الأمور رأساً على عقب . ثم إنها تعلم أنها لم تعد تلك التي كانت قبل أن تموت رغم احتلالها للجسد نفسه . ومنذ رجوعها ، صارت تبدو لها ذكريات حياتها الأولى بالتدريج كما لو أنها خرجت من غيبوبة طويلة . احتفظت ذاكرتها بكل شيء باستثناء الأيام القليلة التي سبقت وفاتها . قرأت بانتباه المقالة الصحفية التي عثر عليها سام غالواي والتي تتحدث

بإيجاز عن ظروف مقتلها، لأنّها لم تُعد تذكر من قتلها ولا كيف قُتلت، لكنّها ليست هنا للتحقيق في ذلك، هي هنا لإنجاز مهمة محدّدة، ولا ينبغي أن يصرفها عنها شيء.

لمحت في الجانب الآخر من زجاج النافذة فتاة في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، جائمة على زلاجتها وهي تتسلّى بإطلاق فقاعات الصابون. كانت بعض الفقاعات الخفيفة الشفافة تعطير باتجاهها فتنكسر على الزجاج. دون أن تشعر، حيثها غريس بإيماءة ودية صغيرة، فرّدت عليها الصبيّة بابتسامة تلجمها آلة تقويم الأسنان. مهما تقول غريس ومهما تفعل، كان ثمة سؤال واحد يشغل بالها: أين توجد جودي الآن وكيف صارت؟

\*

صعد روتيللي إلى سيارته وصفق الباب. كان في الخدمة، والوقت لا يزال مبكّراً، ولكن اللعنة! ما أشد رغبته في الشرب! للمرة الثانية هذا اليوم، يتذكّر الحديث الذي دار بينه وبين الطبيب الشاب في اليوم السابق. التوقف عن الشرب؟ آه لو كان الأمر يسيراً! لقد حاول مرّة، لكنه أصيب بالهلوسة: رأى سحالي وزواحف أخرى تلتهم أحشاءه وتنزع أطرافه. كان الأمر كابوساً حقيقياً.

ساق سيارته نحو الجنوب، على طول الجهة الغربية لسانترال بارك حتّى بلغ مستديرة كولومبوس. وبينما كان يقود، سوئى مرأة الرؤية الخلفية، فلاحت له صورته على المرأة الصغيرة شبحية وغير واضحة. إلى أين تسير حياته؟ أسيستمر في الانحدار يوماً بعد يوم إلى أن يتحطم تماماً؟ هذا يخيفه لأنّه يظنّ أن تحسن أحواله يحتاج إلى معجزة. الإقلاع عن الشرب... من أجل من؟ ولماذا؟

لكته كان يعلم أنه يستطيع أن يكون أقوى. فتار الغضب المتأججة بداخله ليست مدمرة فقط. وبين الغضب والتصميم لا توجد أحياناً سوى خطوة واحدة. وكما لو أنه يريد أن يبرهن على شيء ما، قرر ألا يشرب الكحول قبل مضي ساعات، وهو سيكتفي الآن بشرب كوب قهوة.

قبل أن يبلغ تايمز سكوير بقليل انحرف فجأة نحو مركز روكتيلير سانتر. أوقف سيارته عند طرف الرصيف واشترى كوب قهوة ومضى إلى برج بلازا ليشربه. لم يزُر هذا المكان منذ أمد بعيد مع أنه كان يحبه في الماضي. لقد أتى إلى هنا في أعياد الميلاد لسنوات متالية بصحبة غريس وطفلتها لكي تستمتع بالأنوار الساطعة. وقف عند حافة حلبة التزلج وراح ينظر بافتتان إلى الناس السعداء الذين كانوا يتحرّكون حوله. أزواج يشجّعون أبناءهم ويصورونهم بالآلات التصوير أو الفيديو. وكانت تتعالى هتافات فرّحهم ودعاباتهم. كلّ هذه السعادة كانت تعدها حتماً إلى وحدته.

لو أنه التفت إلى اليمين، باتجاه مقهى هاربر، للملح ربما تلك التي تشغّل فكره، لأنّ غريس كوستيللو لم تكن في هذه اللحظة إلا على بعد عشرة أمتار منه، لكنه لم يكن يعرف عنها شيئاً.



لم تلحظ غريس بدورها زميلها القديم في الفرقة لأنّها كانت مستغرقة في أفكارها. بعد أن فرغت من وجبتها الخفيفة، غادرت المقهى من الباب المقابل. زرّرت ستّرتها وسارت بضع خطوات في الشارع. كان الجو قد شرع يبرد. وراودها من جديد ذلك الشعور الغريب بأنّ المدينة «ينقصها» شيء ما، لكنّها لا تعرف ما هو. اكتفت

بالنظر ناحية الشمال ثم الجنوب. كانت صور هذين اليومين تتوالى في ذهنها بسرعة هائلة .  
وفجأة تهياً لها أنها فهمت. كان الأمر مستحيلاً، ومع ذلك . . .  
لم تكن قد اختفت تماماً!  
عليها أن تسأل غالواي لما تلتقيه المرة القادمة.

\*

عاد سام إلى مكتبه مباشرة بعد إنتهاء خدمته. كان الليل قد خيم، لكنه فضل أن يبقى للحظة قرب النافذة في الظلام ينظر ناحية جسر مانهاتن. كان يفكّر من جديد في الكلام الغريب الذي قاله له غريس. لما يفقد العقل الإنساني صلته بالواقع فإنه يتّيه قطعاً في مسالك محيرة.

وتهياً له فجأة سمع صوت تنفس متقطع. أيوجد أحد في الغرفة؟ أشعل مصباح المكتبة الصغير ذي الضوء الخافت: لا أحد، لكنه يشعر مع ذلك كما لو أن شيئاً يحوم حوله. كانت رسوم أنجيلا لاتزال موجودة على طاولة ركنية. تطلع إليها سام من جديد واحداً واحداً دون أن يعرف عمّا يبحث.

أكانت تلك الرسومات تخفي شيئاً؟

تأثر خلال دراساته الطبية عميقاً بأحد التدريبات التي أجراها في سجن من سجون الأحداث. لم تكن رسومات المعتقلين هناك تتحدث سوى عن القتل والعنف. وقد استمرّ اهتمامه بالموضوع، وصار أحد أكفاء أطباء الأطفال في تحليل رسوماتهم، بل كتب مقالة في الموضوع نشرها في إحدى المجلات الطبية، مما أتاح له الاطلاع على معظم المؤلفات التي عالجت هذا الموضوع، وهي تحفل بالحالات

المربيكة. فبعض الرسوم توحّي أحياناً بأنّ بعض الأطفال يعرفون بدقة تاريخ وفاتهم، إذ يخمنون من خلال رسومهم لحظة رحيلهم ويستخدمون هذه الوسيلة لكي ينقلوا آخر رسالة لذويهم. غالباً ما كانت هذه الرسائل تعقب على نحو غريب بالطمأنينة، كما لو أنّ هؤلاء الأطفال تخلّصوا لحظة الرسو على الضفة الأخرى من قلقهم ومعاناتهم، لكن ما هو محير أكثر هي ربّما رسوم الفراشات التي نقشها بعض السجناء الصغار على جدران بنايات معسكرات الاعتقال. بينما كان سام يتذكّر كلّ هذا لاحظ وهو يقلب العلبة علامات دقيقة على الزوايا الأربع من كل ورقة: دوائر ومثلثات ونجوم... . سبق له أن رأى علامات مماثلة على الرسم الأول الذي أهداه إيه أنجيلا! بحث في جيب معطفه بقلق متزايد لكي يتفحّصه من جديد: على ظهر الورقة العلامات الملغزة نفسها تقاطع على نحو غريب.

ماذا لو كانت شفرة؟ ماذًا...

انفتح باب المكتب فجأة، فجفل الطبيب. وتنبّه إلى أن الجو في الغرفة كان بالغ البرودة وأن أنفاسه تحول إلى بخار. شرع في تعليق الرسوم على لوحة الفلين متبعاً النظام الوارد في الرسم الأول. لما علّق الرسوم العشرين، وجه المصباح بحيث يضيء على نحو أفضل اللوحة الكبرى التي تشكّلت لديه. كانت لوحة تجريدية رائعة، لكنّها تقع عند حدود الفن التصويري، إذ يتهيأ للمُشاهد أنه يميّز هنا وهناك أشكالاً خفية، أشبه بحيوانات صغيرة مختفية في غابة استوائية. ظلّ سام يحدّق في اللوحة مبهوراً، لكنّه مضى يجوب الغرفة حتى يشاهدها من كل الجوانب. وانتابه شعور جليّ هذه المرة بأنّ ثمة شيئاً عليه أن يكتشفه: إنذار، نداء، رسالة... .

لما بلغ إلى مستوى الغابة ، تواردت إلى ذهنه شتيمة: اللعنة !  
فرك عينيه ثم تحرك وعاد إلى المكان نفسه . هو من يخرف الآن !  
خرج إلى الممر وقد تملّكه شيء من الذعر ثم ذهب إلى مرحاض  
العاملين بالمشفى لكي ييلّ وجهه . انتبه وهو أمام المرأة المثبتة فوق  
المغسلة إلى أنه بالغ الشحوب ، وأن يديه ترتعشان . عاد إلى مكتبه  
حيث يملؤه مزيج من التوجس والإثارة . رجع إلى مكانه عند حافة  
النافذة وراح ينظر إلى اللوحة .

إذا نظر من زاوية محددة للرسوم مضمة بعضها إلى بعض بهذا  
الشكل ، بدا أنها تحمل رسالة عن طريق التزيء<sup>(1)</sup> .  
بعض الحروف تكون جملة بسيطة ، لكن تداعياتها مقلقة :

غريس تقول  
الحقيقة .

---

(1) (anamorphose) حالة تبدو فيها لوحة مزيفة ، فإذا نظر إليها من زاوية معينة  
بدت قوية . (المترجم)



في بداية الأمر، لا تعود الحياة ممكناً من دون مخدر، لكنها حياة رقّ مقيدة. ومع ذلك فأنا مبتهج بالعودة إليها. ما أسعدها! ما أسعدها! لم يسبق لها قطّ أن كانت أجمل من مساء الأمس. كلّ مرّة جديدة تكون أفضل من سبقاتها.

العشبة الزرقاء،  
مذكريات مجهولة لشابة مدمنة على المخدرات.

### جنوب برونكس - حي هايد بورس

لما فتحت جودي كوستيللو، وهي فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، عينيها، وجدت فراشها مبللاً. كانت محمومة تعترى بها القشعريرة. قامت بصعوبة وهي ترتعد وأطلّت من النافذة.

ماذا جئت أفعل في هذا الكوخ الحقير؟

كلّ دلائل نيويورك السياحية تنصح بتجنب هذا المكان. ولم يكن هايد بورس يبعد عن روائع مانهاتن إلا ببضعة كيلومترات، لكنّ ذلك لم يمنعه من أن يكون حيّاً خطيراً. كان يتكون من سلسلة من العمارت السكنية المخصصة لذوي الدخل المحدود، ولم يكن يضم أي محلات تجارية. كلّ ما كان يحيط به هي بعض الأراضي الخالية التي تناثرت فوقها هياكل سيارات متفحمة مهملة.

كانت جودي بحاجة إلى المخدرات. تشعر بالألم في كل جسدها، ويتشنّج يسرى في قدميها. كانت مفاصلها منهارة، وعظامها ترتعش وتتفتّت وتتشظى إلى أجزاء صغيرة.

- اللعنة، ينبغي أن أثر عليها!

قلبها ينتفض داخل صدرها وقد تسارع خفقانه. كانت تنضح عرقاً، وشعرت بالحرارة في البداية ثم بالبرودة. كانت تحس بتشنجات رهيبة في بطنها، وبألم حاد في كليتها كما لو أن قضيباً حديدياً يخترق أسفل ظهرها.

اللعنة!

ارتدت قميص النوم ثم سارعت إلى الجلوس على حوض المرحاض. لاحت لها على مرآة باب المرحاض المكسورة صورة لا ترغب في رؤيتها.

لما كانت صغيرة، كثيراً ما كانوا يقولون لها إنّها جميلة، بشعيرها الذهبي وعينيها الخضراء، لكنّها تعلم الآن أنها لم تعد تشبه تلك الصورة.

لم تعودي سوى خرقة نخرتها المخدرات!

كان جسمها المهزول مُفزعًا، ووجهها حجبه شعر أصفر معالج بالبيروكسيد، تتخلله بعض الخصلات الحمراء والزرقاء الطويلة. أمّا العينان فتحيط بهما دائرتان تميلان إلى السواد كما لو طلبتا بالماركارا. أزالت بعض الشعرات العالقة بالحلقة التي تزين أنفها، وكانت تضع حلقة أخرى في سرتها، وهي على وشك التعفن. انشت بسبب ألم حاد في بطنها.

آآي.

هي خائرة القوى، مع أنها كانت في وقت من الأوقات مدمنة

على الرياضة. كانت تتقن لعب كرة السلة بفضل طول قامتها. صحيح أنها طويلة، لكنّها كانت تشعر في قراره نفسها بأنّها صغيرة وضعيفة تماماً كطفل رضيع.

كان مبعث ضعفها ذلك الجرح الغائر الذي لا تزال تحمله بداخلها. فمorte أمّها لما كانت تبلغ السادسة من عمرها جعلها تواجه مبكراً عالماً مليئاً بالحزن والرعب.

خرجت من هذه التجربة محطّمة. كانت شديدة التعلق بأمّها، أشدّ تعلقاً مما يمكن أن تكونه صبية يتيمة الأب في سنّها، لكن جودي لا تلتمس الأعذار لنفسها.

أودعوها في البداية لدى عائلة مُضيفة، لكن الأمور لم تجر على ما يرام. قيل إنّها لا تُطاق، ولربّما كانت تلك هي الحقيقة. كانت معذبة يسكنها على الدوام شعور بعدم الأمان، لم تدخر جهداً لتهديه منزه. شرعت وهي في العاشرة في استنشاق المذيبات التي كانت تعرّض عليها في الحمام، ثم دأبت على إفراغ صيدلية المنزل بحثاً عن التراكسين. وبناء على ذلك، لم تُعد الأسرة التي تضيفها ترغب فيها، فعادت للعيش في البيت. اقترفت بعض السرقات هنا وهناك، لكنّها لم تكن سرقات خطيرة: بعض الألبسة وبعض الحلوي (اثنتان أو ثلاث)، لكن البوليس قبض عليها وسُجنت لستة أشهر بمركز خاص بالأحداث.

اكتشفت منزه مواد أخرى أكثر فعالية من المذيبات. والحقيقة إنّها كانت تتناول كلّ ما تسقط عليه يدها: الأمفيتامينات، الكراك، الheroين، الحشيش، الأقراص... بل إنّها لم تعد تعيش منذ فترة إلا من أجل هذا.

كانت تقضي كلّ وقتها باحثة عما تدفع به خوفها. في المرّة

الأولى التي حقنت نفسها بالمخدر، عاشت لحظات في متنهى الروعة بحيث رغبت في أن تسترجع حالة الانتشاء تلك مرات ومرات. لا يتحول الأمر إلى جحيم إلا فيما بعد، لكن المرة الأولى تكون هائلة، لماذا ستذكر ذلك؟

بدت لها المخدرات باختصار ملخصاً من هذه المعاناة التي لا تطاق. كانت تساعدها على إخفاء رقتها وعواطفها. كل الناس كانوا يعتقدون أنها قاسية، لكن ذلك لم يكن صحيحاً. كانت دائمة الخوف من الحياة ومن كل شيء. وسرعان ما صارت للأسف مدمنة. لا داعي للكذب: لقد مضى وقت طويل وهي لا تستطيع أن تتحمّل في استهلاكها. والحلّ الوحيد أمامها الآن هو أن تزيد الجرعات وتقلّص الفاصل الزمني بينها.

قضت شهرين في الشارع قبل أن تجد ملاداً هنا لدى فتاة تعرفت عليها أثناء «التزوّد» بالحي. لم تطأ قدمها المدرسة منذ أن غادرت المركز رغم أنها كانت مجتهدة، بل لقد كانت متقدمة عن سنها، وكثير من الأساتذة كانوا يقولون عنها إنها ذكية. وهذا صحيح، فقد كانت تعشق القراءة، لكن الكتب لا تحمي من الخوف، ولا تجعل الإنسان قوياً، وإن جودي لم تحسن قراءتها.

فقدت الثقة بالراشدين منذ زمن بعيد. كل ما كان ي قوله لها المربيون ورجال الشرطة هو أنّ عاقبة ما تفعل لن تكون حميدة. شكرأ لهم على هذه النصيحة، فهي كانت تشلّ في هذا الأمر. تنبّهت إلى أنها تزحف ببطء نحو الموت، بل إنها تتناول يومياً علبة من الأقراص المنومة لكي تقوم بالقفزة الكبرى، لكن تلك الأقراص لم تكن قوية بما فيه الكفاية، وألفت نفسها في الأخير تقضي أسبوعاً مغمى عليها. كان حرثياً بها أن تقطع أحد شرائينها. ربما فعلت ذلك يوماً...

وفي انتظار ذلك، كان عليها أن تعثر على المخدرات، وللحصول عليها هي مضطرة للقاء «سيروس».

قامت جولي وسحبت طرادة الماء. هدأت قليلاً التشنجات التي تشعر بها في بطنها ليحل محلّها الدوار والغثيان. كانت تفوح منها رائحة كريهة، لكنّها لم تكن تقوى على الاغتسال. ارتدت بسرعة سروال الجينز القذر، وقميصاً وسترة عسكرية قديمة.

كم معي من المال؟

عادت إلى الغرفة. كانت بالأمس قد نشرت حقيقة امرأة يابانية قرب حدائق سلوب. لم تكن حتى حقيقة باندا حقيقة. فتشتت في حافظة النقود وأخرجت 25 دولاراً بئيسة. كان مبلغاً زهيداً، لكن سيروس سيتدبر لها شيئاً. وغادرت الشقة متثاقلة.

كان يتتساقط على الحي مطر دقيق بارد، مما جعل جودي تخفي عينيها بيديها لتحتمي من الريح الذي كان يجرف أكياس بلاستيك ممزقة وأوراقاً متّسخة فاضت بها صناديق القمامات. شخص واحد هو الذي ساعدتها وحمّاها: إنه ذلك الشرطي المدعو مارك روتييلي، صديق أمّها السابق، بل إنه حاول مرّة أن يستتر على سرقتها لوصفة من أحد الأطباء، لكن الحادثة شاعت وكاد روتييلي يفقد منصبه. منذ ذلك الحين صارت تتجنبه: لم تكن تريد أن تخلق له مشاكل، ثم إنّها تشعر بالخزي، ولا تريد بأيّ حال من الأحوال أن تُقارن بأمّها.

توجهت جودي إلى بناية نُزعت كل صناديق البريد بدخولها، وشقت طريقها وسط مجموعة من الشباب كانوا يرددون ويجيئون في السلم، وبلغت أخيراً باب الشقة التي تقصد. ضغطت على زر الجرس عدّة مرات، لكن لم يفتح أحد مع أنّها سمعت صوت راديو أو تلفاز واضحأً لما وضع أذنها على الباب. نقرت نقرًا خفيفاً وقالت:

- افتح يا سيروس!

انفتح الباب بعد برهة ليلوح منه فتى أفروأميركي بالكاد تجاوز المراهقة، لكنه ذو بنية ضخمة.

- مرحباً باب-أو-rama.

- دعني أدخل يا سيروس.

أسك بذراعها ودفعها إلى الداخل.

كان صوت التلفاز من الارتفاع بحيث حال دون سماعه رنين الجرس.

كان المكان أقرب إلى العتمة، وهو عبارة عن شقة بئسة يناثر الطعام في كل أرجائها وتفوح منها رائحة كريهة. تقدم سيروس باتجاه ما كان يعد بمثابة صالون وعاد إلى الجلوس على أريكة قديمة متهاكلة وهو يخفض صوت تلفاز بلازما آخر طراز.

كان يلزم فتح النوافذ ليدخل النور وتتهوى الشقة، لكن جودي لم تأتِ من أجل هذا. سأله:

- ماذا أعددت لي؟

- الأمر يتوقف على المبلغ الذي بحوزتك. كم معك؟

. 25 -

- 25 بوكس فقط! لا يبدو أنك في ثراء بيل غيتيس. فتش في جيبه ليُخرج كيساً بلاستيكياً صغيراً حركه تحت أنف جودي.

اقربت ونظرت إلى السلعة بازدراء.

- أليست لديك غيرها؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ثم أجاب وهو يفتح أزرار سرواله ويحرك لسانه بكيفية فاحشة:

- لتحصلي على غيرها يلزم أن تمنحيني شيئاً إضافياً.
- لا داعي لأن تحلم.
- هيا، تعالى إلى هنا يا حبيبي.
- تراجعت إلى الخلف وهي تقول:
- دعني عنك أيها اللعين!

ظلت ترفض حتى ذلك الحين أن تزني مقابل المخدرات. كان ذلك هو آخر خط كرامة ما زالت لم تتجاوزه، وهي تعلم أنه سيأتي يوم ستحل بهذه الشقة محتاجة إلى المخدر وليس معها دولار واحد. لم تجب إذن بشيء.

قذف الدولارات في وجهها، ورمى لها بالكيس فالقططه في الهواء، ثم قال وهو يرفع من صوت جهاز التلفاز ويردد كلمات أغنية راب ييدو أنه يحفظها عن ظهر قلب.

- تسلّي جيداً يا باب-أو-راما.

صافت جودي الباب واندفعت تنزل السلم بسرعة.

مضت جارية بين العمارات وهي ترتعد من البرد، وبينما كانت تجري، ساورتها أفكار رهيبة. لم تعد أمامها سوى بضعة أمتار لتتمكن من حقن هذا المخدر في شرايينها. كانت ستفعل ذلك حتى وسط الساحة أو في موقف السيارات حيث كان الأطفال يتزلجون بين صناديق القمامه. لم تكن تطمح إلا لشيء واحد: أن تصير كالحجر، مخدرة تماماً، أن تنفجر، وذلك حتى تكتف عن التفكير، وتنزل للحظة إلى مستوى من الوعي تكون فيه واثقة بأن خوفها سيتلاشى.

صعدت السلم بسرعة البرق، وأغلقت الباب بركلة، ثم انزوت في المرحاض.

مزقت الغلاف البلاستيكي وهي ترتعش، وتركت كرية بتبة تنزل

على راحة يدها. وبما أنّ كمية المخدر كانت أقلّ من أن تُدخن، قررت أن تحقنها. كانت ثمة مخاطر بطبيعة الحال: فالنذل سيروس قادر على مزجها بأيّ شيء: مسحوق الطلق، مسحوق الشوكولاتة، أقراص مسحوقة. ولم لا سُمّ الفثاران! مهما يكن، فهي متعدّدة على المجازفة، وتمتّت ألا تموت اليوم بجرعة زائدة.

فتحت علبة الصيدلية المثبتة فوق المغسلة وتناولت مُعدّاتها. وضعت الكريّة في علبة كوكا مقطوعة وأضافت الماء وبضع قطرات من الليمون. سخنت العلبة من الأسفل بولاعتها ثم رشحت السائل بقطعة قطن. ولحسن حظها كانت قد احتفظت بمحقنة تعود إلى آخر جرعة تناولتها لاستعمالها في مثل هذه الحالة. غرست الإبرة في القطن وسحبّت كلّ السائل. إثر ذلك تحسست ذراعها للعثور على الشريان، قربت منه الإبرة، غرستها وهي تغلق عينيها وتسحب نفسها عميقاً ثم حققت المحلول.

اكتسحت كلّ جسدها موجة من الحرارة مهدّئة التوتر الذي كان يغلي بداخلها. تمدّدت أرضاً مسندة رأسها إلى حوض الاستحمام. عندئذٍ شعرت بنفسها ترحل وتغوص بلطف فيما يشبه فقاعة، كما لو أنها تنفصل عن جزء من ذاتها.

كان عزاؤها الوحيد هو أنّ أمّها لن تراها قطّ على هذه الحال. مما لا شك فيه أنها ماتت وهي تعتقد أنّ مستقبلاً زاهراً ينتظر ابنتها. حياة مليئة بالحب والسعادة.

آسفة يا أمّي، ما أنا إلا مدمنة قذرة.

الواقع أنّ مزيّة موت الوالدين الوحيدة هو أنّ المرء غير مهدّد بتخييب أملهما.

أخرجت من محفظتها صورتها الوحيدة المتبقية. كانت جودي في الثالثة أو الرابعة من عمرها. وكانت أمّها تحملها بين ذراعيها، وفي الخلفية كانت تظهر بحيرة وجبار. لعلّ روتيللي هو من التقط الصورة.

وبينما كانت جودي تتقدّم شيئاً فشيئاً في مجاهل جحيم ناعم، راحت تندنن بأنغام أغنية كانت تغنيها لها أمّها، وهي ألحان لجيرشوين<sup>(1)</sup> حولتها إلى تهويّدة: Someone to watch over me?<sup>(2)</sup>.

كانت الغيوم قد تبّدت في الخارج، واخترقت فضاء البناءيات بعض أشعة الشمس، لكن جودي لم تبصرها.

---

(1) ملحن أميركي (George Gershwin) (1898-1937).

(2) هل من أحد يحميني؟



ما الحياة إلا نفس.

كتاب جوب

لما دفع سام بباب الغرفة 808 كان ليونار ماكوبين ينهي جولة شطرنج على رقعته الإلكترونية.

سأله سام وهو يلقي نظرة على نتيجة المباراة.

- من المنتصر يا ترى؟

أجاب ماكوبين:

- تركته يتتصر.

- تركت آلة تتتصر؟

- نعم، رغبت في القيام بعمل خيري. يحدث لي هذا لـما أكون رائق المزاج. أما أنت فلا تبدو بالمقابل على خير ما يرام...

- كلا، ولكنني أنا الطبيب...

- ... وأنا المصاب بالسرطان.

وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى انتابه سعال طويل، ورانت على نظرة سام مسحة من القلق، لكن ماكوبين طمأنه بطريقته الخاصة.

- إنني بخير يا دكتور، لا تقلق علىّ. لن أموت اليوم.

- هذا شيء سار.

- أتعلم ما الذي سيسعدني أنا؟  
نظاهر سام بالتفكير.

- لست أدرى... سيجار كوبى؟ راقصة عارية؟ زجاجة فودكا؟

- الواقع أنتي أريد أن أشرب معك كأساً.

- كفاك مزاحاً...

- لست أمزح يا دكتور. نشرب كأس جعة معاً. يوجد مقهى غير بعيد من هنا، مقهى بورتوبيللو...

- لا تحاول حتى التفكير في هذا يا ليونار.

- ومن سيمعني من الذهاب إلى هناك؟

- قانون المستشفى.

هزّ ماكوين كتفيه وعاد للهجوم:

- هيا يا دكتور، آخر كأس نشربه معاً، في حانة حقيقة، مصحوبة بالموسيقى والدخان...

- أنت لا تستطيع الوقوف يا ليونار...

- أشعر بأنّ حالتي تحسّن هذا المساء! هناك ستة ومعطف في الخزانة. مدهماً لي.

حرّك سام رأسه.

كان ماكوين مقاولاً، مقاولاً حقيقياً. لمدة أربعين سنة وهو يخلق الشركات ويتطورها. نجح في تكوين ثروة في سن مبكرة، ثم أفلس قبل أن يعود إلى الثراء مجدداً. كان يحبّ المجازفة، وكان يملك قدرة غير معهودة على الإقناع حافظ عليها حتى وهو يُحتضر فوق أحد الأسرة بالمستشفى بسبب السرطان.

- هيا! مجرد سُويعة. أعطني سبياً واحداً مقبولاً لرفضك.

أجاب سام دون أن يرتكب:

- أستطيع أن أستعرض لك بسهولة مئات الأسباب. أولها أن في ذلك مخاطرة بمنصبي . . .

- مجرد هفوة بسيطة . . . أعدك بألا أموت بين يديك.

- كلا، في ذلك كثير من المخاطرة . . .

- . . . لكنك ستقبل مع ذلك، أليس كذلك؟ فأنت رجل طيب.

لم يستطع سام أن يمنع نفسه من الابتسام وأدرك ما كوينز بأنه انتصر.

\*

بلاغ صحفي - سفارة فرنسا.

ستتمثل مواطنتنا الشابة جولييت بومان في الساعات القادمة أمام محكمة كويينز الثالثة التي ستقرر في أمر إطلاق سراحها. ذلك أنَّ شرطة نيويورك برأتها من حادث تحطم الطائرة الذي أحزن الولايات المتحدة قبل أيام.

ونحن مبتهجون للنهاية التي يبدو أن هذه القضية ستعرفها، والتي تعبات لها قنصليتنا العامة بنيويورك وسفارتنا بواشنطن.

\*

جلس سام وليونار في زاوية هادئة، بأقصى صالة مقهى بورتوبيللو. كان المصباح الموضوع على طاولتهما ينشر نوراً هادئاً. وراح ليونار، المبتهج بوجوده هناك، يستمتع بجعنته مرتشفاً رشفات صغيرة، بينما أنهى سام شرب كأس آخر من القهوة أضافه إلى الكؤوس العديدة التي شربها خلال اليوم.

- يخبرني خنكري أنَّ هناك امرأة جديدة في حياتك . . .

- ما الذي أوحى لك بهذا؟  
- إنها أمور أستشعرها.  
- ماذا لو تحدثنا في أمر آخر؟  
- حسناً. أما زلت لم تقرر زيارة منزلي بكونيكتيكوت؟  
- سأزوره يوماً.  
- عليك أن تزوره برفقة عشيقتك. سيروقها...  
- ليونار!  
- حسناً، حسناً، لم أقل شيئاً. على كلّ حال، لما تزوره، لا تردد في النزول إلى القبو.  
- لأنّذوق خمورك المعتقة؟  
- نعم، هناك زجاجة على الخصوص، زجاجة بوردو شوفال بلان تعود لسنة 1982 احتفظت بها بورع. نبيذ رائع ذو نكهة متفجرة...  
.

ردد سام عبارة «شوفال بلان» بنبرة فرنسيّة سائبة.  
فقال ليونار وهو يرشف من جعته مترجمًا:  
. White Horse –  
White Horse –، كنت أظنّها علامه ويسكي.  
رفع ماكوبين عينيه إلى السماء:  
- دعك من هذا، فأنت لا تعرف شيئاً!  
- هذا صحيح.  
- على كلّ حال، اشرب تلك الزجاجة معها.  
- إنها فرنسيّة.  
- ستعجبها إذن.  
.

وخيّم الصمت لبعض دقائق. ترك سام دون أن يشعر يده في جيده

حتى يتحسّس علبة السجائر وهو يعلم أن التدخين غير مسموح به.  
وأخيراً كسر ماكرين الصمت قائلاً:

- لماذا لست برفقتها هذا المساء؟

- لا أستطيع يا ليونار.

- تظن أن لديك الوقت؟ هذا ما يقوله المرء في الحياة،

لکن . . .

- إنّها في السجن .

- اتمزح پا دکتور؟

هزّ سام رأسه:

- سأشرح لك .

قص على العجوز بكثير من الحياة تعلقه بجوليت منذ الناظرة الأولى يوم العاصفة الثلجية. وحدثه عن عطلة الأسبوع التي قضياها وعن ارتباكهما في المطار. ثم أشار إلى عدم فهمه:

وعن ارتباكهما في المطار. ثم أشار إلى عدم فهمه:

- لست أدرى لماذا ادعت جوليت أنها محامية.

- هيا، لا تكن غرّاً! لم تقل لك إنها نادلة حتى لا تظن أنها بلهاء

ترغب في الإيقاع بطبيب لامع وثرى.

- لست ثرياً ولا حتى لاماً. مجرد طيب ماهر، حسيب ما

یز عموں۔

- هم... ليس في مجال سيكولوجيا النساء على كلّ حال!

تظاهر سام بالضيق، ثم انتهي به الأمر إلى البوح:

- ليست جولبيت فقط هي من كذبت، أنا أيضاً زعمت أنني

مترّفج

همس ماقوین:

- بفضلہ بکا دائماً!

لَوْح سَام بِيَدِه لِيُوقِفُهُ :

- هُنَاكَ أَمْرٌ يَنْبَغِي أَنْ أَقُولَهُ لَكَ .

وَهُكُذا رَوَى سَامُ، الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ أَنْ يَأْتِي بِأَسْرَارِهِ لِأَحَدٍ، لِلْعُجُوزِ  
بعْضِ التَّنْفِ من قصته الأليمة مع فيديريكا. أَنْصَتْ لَهُ مَا كُوِينْ باهتمام،  
وَسَرِعَانَ مَا تَحَوَّلُ فِضْلُولُهُ إِلَى تَعَاطُفٍ حَقِيقِيٍّ. وَرَغْمَ طَبْعِهِ الْمُتَحَفَّظُ،  
تَحَدَّثَ سَامُ بِدُونِ خُوفٍ. لَمْ تَكُنْ مَعْرِفَتُهُ بِلِيونَارٍ قَدِيمَةٍ، لَكِنْ شَيْئًا مَا  
فِيهِ جَعَلَهُ يَطْمَئِنُ إِلَيْهِ. كَانَ مَا كُوِينْ يَمْلِكُ حُكْمَةً مَنْ يَرْضُونَ بِمَوْتِهِمْ،  
وَهَذَا مَا كَانَ يُشَيرُ إِعْجَابًا سَامَ بِقَدْرِ مَا يُشَيرُ مَشَاعِرَهُ .

أَنْهَى سَرْدَ قَصْتَهُ فِي وَقْتٍ مُتأَخِّرٍ مِنَ اللَّيلِ. كَانَتْ حَرْكَةُ الْمَرْوُرِ  
فِي الشَّارِعِ أَخْفَى، وَكَانَ الْمَقْهَى عَلَى وَشَكٍ أَنْ يَغْلُقَ أَبْوَابَهُ قَبْلِ  
اِنْصَرَافِ آخِرِ الزَّبَائِنِ . عَادَ الرَّجُلُانِ إِلَى الْمُسْتَشْفَى فِي صَمْتٍ، وَكَانَ  
لِيونَارٍ مُتَعْبًا . رَافِقُهُ سَامُ إِلَى غُرْفَتِهِ وَهُوَ يَسْاعِدُهُ دُونَ أَنْ يَظْهُرَ ذَلِكُ.  
وَفِي لَحْظَةٍ فَرَاقُهُمَا، أَشَارَ مَا كُوِينْ إِلَى آلَةِ التَّسْجِيلِ الَّتِي كَانَ يَحْمِلُهَا  
سَامُ دَائِمًا فِي جَيْبِ سَرْتَهِ، وَيَسْتَعْمِلُهَا فِي تَسْجِيلِ فَحْوصَاتِهِ .

- أَظُنُّ أَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَحْكِي لِجُولِيَّتِ كلَّ مَا قَلْتَهُ لِي .



كَانَتْ جُولِيَّتِ جَالِسَةً فِي زِنْزَانِهَا عَلَى الْفَرَاشِ مُسْنَدَةً ظَهَرَهَا إِلَى  
الْجَدَارِ وَقَدْ دَفَنَتْ وَجْهَهَا بَيْنَ رَاحِتِيَّهَا . لَمْ تُعْدْ تَشْعُرْ لَا بِالْتَّعْبِ وَلَا  
بِالْخُوفِ، وَكَانَ يَتَزَاحِمُ فِي رَأْسِهَا حَسْدٌ مِنَ الْأَسْئَلَةِ :  
عَلَمَ تَتَوَقَّفُ الْحَيَاةُ؟ عَلَمَ يَتَوَقَّفُ الْحَظْظُ؟ مَا مَقْدَارُ حَرِيَّتِنَا فِيمَا  
يَقُولُ لَنَا؟ مَنْ لِهِ الْكَلْمَةُ الْفَصْلِ فِي تَصْرِيفِ الْأَمْوَارِ، الصَّدْفَةُ أَمُّ الْقَدْرِ؟  
هَذِهَا الْمُفْتَشِ دِي نُوْفِي بِإِيْدَاعِهَا سَجْنَ لَابَارِجِ، السَّفِينَةُ الْعَائِمَّةُ  
الرَّاسِيَّةُ قَبَالَةَ بِرُونِكَسِ، وَذَلِكَ حَتَّى يَجْعَلُهَا تَعْتَرِفُ بِأَيِّ شَيْءٍ، لَكِنَّهَا

صمدت. وكانت السجينات الموجودات في الزنازن المجاورة، وأغلبتهن سوداوات أو أميركيات لاتينيات، ينادينها الفرنسية دون أن يدر肯 حقاً سبب وجودها هناك.

اعترفت جولييت بأنها زورت تاريخ تأشيرتها، لكنّ هذا لا يجعل منها إرهابية. لم تقم بذلك إلا من أجل رجل، رجل عاملها بطريقة مختلفة، رجل أشعرها بأنها مختلفة وذكية وغالبة.

ولو اقتضى الأمر أن تقترب الخطأ نفسه من جديد... لفعلت. ثم فكرت في والديها وأختها: حتى ولو أطلقوا سراحها ورحلوها إلى فرنسا، سيستمرون في النظر إليها بوصفها بلاء الأسرة. فمهما فعلت، لا تصل أبداً إلى أن تكون في مستوى تطلعاتها. كانت تحلم بأن تصير نجمة سينما، فوجدت نفسها نادلة؛ كانت ترغب في نيل إعجاب رجل، فألفي بها في السجن. ما هي إلا فتاة خرقاء!

انفتح باب الزنزانة، ووضع أحد الحراس صينية طعام، وتقدمت بخطى متعرّة نحوها كطائر مكسور الجناح. كان حلقها جافاً ففتحت قنية الماء المعدني الصغيرة وأفرغت نصفها.

لتحت وجهها المنعكس على الصينية المعدنية: تراءى لها شحوبها وملامح وجهها المنهك، وبؤبؤ عينها الممدّد بسبب قلة النوم. وتذكرت ساخرة كل تلك الساعات التي قضتها في السعي لأن تكون الأجمل. أضاعت كل تلك الساعات لكي تمثل لمعايير الجمال الحالية.

لماذا يعتقد الناس أن خلف الوجه الجميل توجد بالضرورة روح طيبة؟ لماذا يرغب بكل الناس في عصرنا في أن يكونوا شباباً مشوقين رغم بلوغهم سنّاً متقدمة، ورغم علمهم المسبق بأنّهم سيخسرون المعركة؟

وبما أنها اهتدت إلى القرارات الصائبة، أقسمت على أن تؤثر  
منذئِ الجوهر على المظاهر. وإذا كان عليها أن تتشبه بأحد، فلتكن  
هي نفسها. دَوَّت صفارة إنذاراً بموعد إطفاء الأنوار، فآوت إلى  
فراسها بينما كان ضوء مصباح زنزانتها يتناقص شيئاً فشيئاً إلى أن انطفأ  
 تماماً.

بمجرد ما خيم الظلام، شعرت فجأة كما لو أن بطنها يعجّ  
بدويادات لزجة. انقبض قلبها، وما هي إلا لحظة حتى أحست بحرارة  
دموعها تنزل على خديها في صمت. كانت تعلم وقد شلّها الخوف  
والبرد أن جفنها لن يعرفا للنوم طعماً. وبمجرد ما أطفئت الأنوار،  
تذكّرت من جديد من ماتوا في حادثة الطائرة. واستحضرت في ذهنها  
بوضوح بعض الوجوه التي التقها بشكل عابر لما كانت تغادر الطائرة.  
وفي كلّ مرة كانت تحاول أن تناهُم، أيقظتها أصوات تناديها.  
أصوات قادمة من القبور، محملة بالألم والذعر.  
أصوات تلومها على أنها لا تزال حية.  
أصوات تقول لها إنه كان عليها أن تموت.

\*

كان سام يهم بمعادرة المستشفى لما نادته ممرضة الفرز وهي  
تومئ إلى طيف موجود في الطرف الآخر من الردهة:  
- دكتور غالواي، هناك امرأة بانتظارك.  
- مريضة؟  
- لا أظن.

عبر سام الردهة الطويلة وقد تملّكه الخوف من زيارة أخرى  
لغريس كوستيللو.

كان ثمة امرأة واقفة بمواجهة زجاج النافذة وقد أدارت له ظهرها  
شاردة تنظر إلى الظلام. كانت تتواشح بوشاح «بيربورى» وترتدي  
معطفاً طويلاً تغطي ياقتها شعرها المشعشث.

هذا اللباس وهذا الشعر... هتف وهو يتقدم نحوها:  
- جولييت!

انتفضت المرأة وهي تلتفت: كانت لا تزال تلبس البذلة نفسها  
والملابس نفسها، لكنّها لم تكن جولييت.

- الدكتور غالواي؟ اسمى كولين باركر، أنا من تقسم الشقة مع  
جولييت.

انتاب سام شيءٍ من الضيق بسبب خطئه، وحيثما المرأة التي لم  
تردّ في تفخّصه من أعلى إلى أسفل. تفرّسها سام بدوره، ملاحظاً  
قسماتها الدقيقة وعينيها المائلتين إلى الخضراء. فقد كانت كولين  
جميلة، وهي تعلم ذلك.

قالت موضحة:

- قرأت الجريدة هذا الصباح، وما زلت لا أصدق: جولييت  
متّهمة بتفسير الطائرة! هي من لا تعرف حتى كيف تستخدم فرن  
الميكرويف!

ابتسم سام بابتسامة مجاملة، فاسترسلت المرأة:  
- أخبرني محاميها بكلّ ما قمت به، وهو من أعطاني عنوانك.  
- أظنّ أنّ ثمة أمل في أن يطلقوا سراحها غداً.

هزّت كولين رأسها، وخمن سام السؤال الذي كان يؤرقها، وهو  
ما لم تتأخر في طرحه:  
- أتعرف جولييت منذ فترة طويلة؟  
- ليس كثيراً.

- منذ شهور؟

- منذ أيام.

حدّقت الشابة من جديد باهتمام في الطبيب. وكلّما أمعنت في الإنصات إليه، زاد فهمها لما جذب جولييت إليه: مزيج من التصميم واللطف، بريق نظرته الذي يضفي عليه طابع الإثارة... .

قالت بعد قليل من التردد:

- هل تسمح بأن أطرح عليك سؤالاً؟

أومأ سام بيده داعياً إيتها إلى الاسترسال:

- ما الذي دفعك إلى مساعدة امرأة لم تتعرّف عليها إلا منذ

أسبوع؟

- إنّها قصة بسيطة ومعقدة في آنٍ.

صمتت كولين لثوانٍ، ثمّ قالت:

- لا أعرف إلا شيئاً واحداً يجمع بين البساطة والتعقيد.

- ما هو؟

- الحبّ.

\*

بعد ذلك ساعات، في جوف ليل نيويورك ببحي هارليم، تسلّل طيف بخفة إلى بناية من الطوب. إنّه مخزن شاسع غير بعيد عن المكان الذي فتح فيه كليتون مكتبه بعد معادرة البيت الأبيض، كانت تُحفظ فيه ملفات التشريح الطبي بعد حفظ القضايا الجنائية أو حلّها. دخلت غريس كوستيللو إلى ردهة البناء الإدارية. كانت هادئة تماماً. نظرت إلى ساعتها: تجاوزت الثالثة صباحاً بقليل. وكما توقّعت، لم يكن في المداومة الليلية غير عدد قليل من الموظفين.

قالت وهي تقترب من موظف كان يتناءب خلف مكتب الاستقبال:

- مساء الخير.

- مرحباً. يا له من برد في الخارج!

ردت وهي تقدم له بطاقتها وشارتها كما ينص على ذلك القانون:

- نعم.

كانت تعلم أن ثمة كاميرا مراقبة تصور كل حركاتها في هذه الأثناء، لكنها قيلت بالمخاطرة. كانت تعتقد أن لا أحد سيشاهد هذه التسجيلات، على الأقل ممن يستطيعون التعرف عليها.

قالت وهي تفرك يداً بيده:

- لو منحتني قهوة لن أرفضها.

أجاب الموظف وهو يشير إلى موزع آلي في أقصى الردهة:

- توجد آلة قهوة هناك . . .

ابتسمت غريس في وجهه ابتسامة هي وحدها من تعرف سرها. ابتسامة تستطيع إرباك أكثر الرجال حزماً. كانت تعلم أنها سلاحها الفعال، وأنها سلاح غير شريف إلى حد ما، لكن للضرورة أحکام، وهذا هو الحال هذه الليلة.

قال الموظف:

- انتظري، أنا من سيدفع ثمن القهوة.

- إنه لطف منك.

- اسمي روبي.

- تشرفت بمعرفتك.

ابعد عن مكتبه، فاغتنمت غريس الفرصة لتسلل إلى حاسوبه.

رقنـت إذن اسمها، ظهرت لها على الشاشة المعلومات المنشودة:

غريس كوستيللو

ملف رقم 674-1060

سجلت هذه الأرقام على قطعة ورق وانتظرت عودة روبي لكي  
تطلب منه الملف انطلاقاً من رقمه لا من اسم الضحية.  
علق قائلاً:

- لم يسبق لي أن رأيتك هنا.

- عشت بعض المتاعب الصحية في السنوات الأخيرة.

- مع أنك تبدين بصحة جيدة.

عاد بعد دقائق ومدّ لها جيب كرتون سميك. حمداً للرب، لم  
يتتبه لتشابه الاسمين.

بعد أن شكرته، انزوت في مقصورة صغيرة لكي تطلع على  
الملف وهي واعية بأنها مقبلة على تجريب إحساس لم يعرفه ميّت  
قبلها: أن يطلع على تقرير تشريحه الطبي . . .

رغم محاولتها الحفاظ على هدوئها، لم تستطع منع أصابعها من  
الارتفاع وهي تفتح الصفحة الأولى من الملف.

معلومات عامة.

غريس لوران كوستيللو

الجنس: أنثى - العرق: بيضاء - السن: 38 سنة.

القامة: 179 سم - الوزن: 66 كلغ.

قالت في نفسها حتى تخفّف من وطأة الموقف: 66 كلغ! لو كنت  
أعلم ما كان ينتظري لما اتبعت تلك الحمية.

واصلت القراءة محاولة التعرّف على عنصر قد يساعدها على  
تذكر ملابسات موتها. يقول التقرير إنّهم عثروا على جثتها على الساعة

الخامسة صباحاً في سيارتها الخاصة مركونة في زقاق صغير غير بعيد عن جسر مانهاتن.

لكن كلّ هذا لا يخبرني بما كنت أفعل هناك.

وعثرت في ظرف على مجموعة صور بولارويد شقّ عليها النظر إليها. رغم قدرتها على التحمل، لم تستطع الصمود أمام هذا الشعور السريالي الذي ينتاب المرأة وهو يشاهد جثّته. فقد قُتلت بطلق ناري في الرأس. وبما أنّ الطلق كان من الخلف، فجّرت الرصاصية الجزء الأيسر من ججمتها قبل أن تعلق في الجزء العلوي الأيمن من المخ. لم تكن مؤخّرة ججمتها على الصور سوى كتلة دامية.

لم تكن تبدو على بقية جسمها غير كدمه - انتفاخ واضح يأخذى الوجتين - دون آثار تعذيب ولا اغتصاب ولا جروح دفاعية. لم يتوفّر لها الوقت حتى للمقاومة أو الاحتماء، لأنّها كانت تدير ظهرها لمن أطلق النار على رأسها.

كادت في البداية ألا تطلع على الصفحتين الأخيرتين المخصصتين للتقرير المتعلق بالسموم، مقتنعة بأنّها لن تعثر فيه على طائل. وحتى لما قرأتها، أجهدت نفسها لتعيد قراءة هذه المعلومات مرات ثلاث، بما أنّ ما اكتشفته تركها مشدوهة: تكشف عينات من دمها عن وجود آثار مخدر الكوكايين في جسدها.

تتكوّمت فوق مقعدها. صعب عليها تحمل الصدمة. هناك شيء ما في غير موضعه. فهي لم تتناول المخدرات قطّ! قامت مصعوقة وأعادت الملف لروبي:

لما خرجت إلى الشارع، لسع وجهها برد قارس ولاذع، لكنّها لم تحفل به. كانت تتشابك في ذهنها ثلات أسئلة كأفاع سامة: من

قتلها؟ لماذا كان المخدر في دمها؟ وهل لهذا صلة بالمهمة الملغزة  
التي كلفت بها ذلك اليوم؟

\*

### الثلاثاء صباحاً

عرضت جولييت بومان على محكمة كوينز الثالثة على الساعة التاسعة صباحاً. لما دخلت إلى القاعة بحثت بيأس عن عينين ووجه مألف، لكن الجلسات لم تكن عمومية. فلا كولين ولا سام تمكنا من الحضور. وقد اعترفت أمام هيئة القضاء، بناء على نصيحة محاميها، بعدم الامتثال للشرطة وخرق قانون الهجرة.

وبما أن الشرطة لم تستطع أن تثبت تورّط الشابة الفرنسية في حادثة الطائرة، تنازلت المحكمة عن كل التهم الموجهة إليها في هذا الملف، وبعد مداولة مع وكيل النيابة، حكم عليها بكفالة فقط، بمبلغ 1500 دولار.

بعد أن عادت إلى مفوضية الشرطة ل تستعيد أغراضها الشخصية، اقيمت إلى مصلحة الهجرة التي كانت ستُفعّل إجراء ترحيلها. إلا أنها في الوقت الذي كانت تنتظر فيه أن ترحل إلى فرنسا بصورة فظة، أبدت لجنة تحقيق غامضة، أنشئت بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، رغبتها فجأة في التحقيق معها في غضون الأيام القادمة. علّقت إذن إجراءات ترحيلها على الساعة الثانية عشرة. ومن غرائب الاتفاق أنها غادرت البناء وفي جيبيها تمديد استثنائي لتأشيرتها يمتد حتى اليوم الموالي لاستدعائها!

كانت كولين قد جاءت للقائهما، فارتمت كلّ منهما بين ذراعي الأخرى، وراحتا تقبلان بعضهما بعضاً وهمَا تبكيان، وشعرتا بأنهما

قريبتان إحداهما من الأخرى أكثر من أي وقت مضى .  
امتنعنا سيارة تاكسي أقلّتهما إلى شقتها . كان الجو صحوأ وجافاً ، ولم يسبق أن بدا ضوء النهار لجوليت أكثر إنعاشاً مما بدا لها ذلك اليوم .

وما كادت تصل حتى دخلت الحمام ، وتركت الماء الساخن يتتدفق إلى أن تحولت الحجرة إلى حمام سونا . نزعـت ملابسها ودخلـت إلى الماء المعطر ، وتركت الحوض يمتلئ إلى أن كاد يفيض . غطـست تحت الماء لأكثر من دقيقة محاولة إفراغ ذهنـها لعلـها تستعيد قواها .

مثل اعتقالـها على ذمة التحقيق مـحنة لم تكن مستعدـة لـمواقـجتها ، ولـن تنسـها أبداً . لم تـكن تـأمل مع مرورـ الزـمن إلا في ألا تـترك هذه التجـربـة آثارـاً عمـيقـة على نفسـيتها . أما الآن فـهي تـسعـي لأن تـمحـوها من ذـهنـها ، وهي مـمـتنـة لأـمـها الـتي لم تـرهـقـها بـالـأسـئـلة .

أخرجـت رأسـها من المـاء لـتنـفس ، وـشعرـت كما لو أنها تـجدـدت . هي منهـكة وـمـفعـمة بالـحيـويـة في الآـن نفسـهـ ، وـتهـيـأ لها أـنـ قـدرـتها على النـوم لـشـلـاثـة أيام متـواصـلة لا توـازـيها إلا قـدرـتها على الرـكـض لـعـشر كـيلـوـمـترـات في أـرجـاء سـانـترـال بـارـك .

التـفتـ في بشـكـيرـها وـلـحقـتـ بـكـوليـنـ في الصـالـونـ .  
ـ شـكـراـ علىـ مجـيـئـكـ للـقـائـيـ .

أـمـاتـ كـوليـنـ لـحـقـيـة سـفـرـ كانتـ مـوـضـوعـة علىـ الأـرـيـكةـ .  
ـ حـضـرـتـ لـكـ بـعـضـ الـمـلـابـسـ ، عـثـرـتـ عـلـيـهاـ في دـوـلـابـكـ .  
شـرـعـتـ جـولـيـيـتـ تـبـحـثـ فيـ الـحـقـيـةـ كـماـ لوـ كـانـتـ صـنـدـوقـ كـنزـ .  
مـعـظـمـ الـمـلـابـسـ تـعـودـ إـلـىـ الـحـقـبـةـ الـتـيـ كـانـتـ فـيـهاـ طـالـبـةـ ، وـبعـضـهاـ إـلـىـ طـورـ مـراهـقـتهاـ .

علقت كولين عرضاً:

- أتعلمين، لقد قلق عليك كثيراً...

- من؟

- من سيكون في نظرك؟

- لست أدرى، السيد أندرو، جارنا التسعيني؟

استرسلت كولين وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة:

- انظري، أنا أفهم هيامك به... إنه حقاً... ماذا سأقول؟

وسيم، لا أظن أن الكلمة تفي بالغرض... ولا حتى جذاب... على كل حال، إنه رجل حقاً.

- لست أدرى من تقصدين.

- حسناً، كما تثنين، لن نتحدث في هذا الموضوع ثانية.

واصلت جولييت التنقيب في ألبسة شبابها باحثة عن شيء يمكن أن ترتديه. أخرجت قميصاً بعقد خيط كبيرة مزين بالخرز والأحجار، وبلوزة بورود مطرزة لا تزال تثير الإعجاب وسروال جينز باهت اللون مليء بالجيوب والخدوش، اشتراه - حسبما تذكر - في منتدى هالز عند اجتيازها امتحان البكالوريا.

بينما كانت تتعاظم بالدهشة من هذه الكنوز التي عثرت عليها، ظلت تجترّ ما قالته لها كولين. ندمت على إنهاء تلك المحادثة، وظلّ سؤال يلحّ عليها: كيف علمت رفيقتها في الشقة بسام غالواي؟

- قوللي لي...

- همم؟

- ماذا قصدت بالضبط بقولك إنه قلق عليك؟

تظاهرت كولين بعدم فهم قصدها:

- لا شيء يا عزيزتي . تريدين الحفاظ على حديقتك السرية ،  
وهذا من حقلّك .

- كفي عن إيلامي !

رفعت كولين عينيها عن شاشة حاسوبها راضية :

- حسناً ، لقد تحدثت قليلاً إلى سام غالواي ، وأظنّ أن هذا  
الرجل حريص عليك .

- الأمر في غاية التعقيد : هو طبيب ومتزوج ... ولا أظنّ أنه  
يمكن أن يحبّني كما أنا حقيقة .

ردّت كولين وهي تمدّ لها آلة التسجيل الصغيرة :

- وأنا أظنّ خلاف ذلك .

مطّلت جولييت شفتها مستفهمة ، لكن كولين زادت من ترقّبها .

- حسناً ، سأتركك ، الآن وقد اطمأنّت على مصيرك ، سأخرج  
للتسوق . لقد عثرت على فستان ظريف عند ساكس ، وأظنّ أنني لن  
أقوى على مراقبته ولدي الرغبة في شرائه ...

بمجرّد ما انسحبت كولين بخفة ، ضغطت جولييت على زرّ  
تشغيل الجهاز ، فتردد صوت سام في غرفة الفندق بعيد جداً وفي  
منتهى القرب في آن .

- عزيزتي جولييت ...



ما تعلّمته يمكن إجماله في ثلاثة كلمات: يوم يُغرِّم  
بك أحد يكون يوماً جميلاً، لا أستطيع أن أعبر  
بصيغة أقصى: الجو الآن في منتهى الجمال.

جان غابان

عزيزي جولييت...

أرجو أن تترى وتنصتي لكلامي، رغم أنّك غاضبة مثّي...  
أعلم أنَّ الأيام الأخيرة كانت في غاية القساوة، وصدقيني إنْ قلت  
لك إنّي لم أكُنْ لحظة عن التفكير فيك.  
أعلم كذلك أنَّ لا شيء مما وقع كان سيحدث لو أنّي تحلىت  
بالشجاعة وطلبت منك البقاء معِي عوض ركوب تلك الطائرة اللعينة. لم  
يكن الشوق هو ما ينقصني، بل ربّما عدم الثقة في الحياة والخوف من  
أن تكون علاقتنا قائمة على مجرّد كذبة.

جلست جولييت على الأريكة وركبتها ملتصقتين بصدرها دون  
أن يخطر ببالها ما سيوح لها به سام.  
لأنّني كذبت عليك: كنت متزوجاً ولم أعد، ذلك أنَّ زوجتي توفيت  
منذ سنة.

كانت تُدعى فيديريكا، وقد عرفتها منذ الطفولة. نشأنا في الحي

نفسه ببروكلين، وهو حيٌّ فقير شبيه بالأحياء الفقيرة الموجودة في المدن الكبرى. لم أتعرف على والدي، وجدتني هي من ربّتني في حدود إمكاناتها، في حين أنَّ فيديريكا لم يكن لها من أهل سوى أمًّا مدمنة تقضي كلَّ يومها في المخدرات من الصباح حتىّ المساء. هكذا قضينا طفولتنا. ولكي أعطيك فكرة أخرى عنها، اعلمي فقط أننا ما كنَا نشاهد صور الصفِّ الدراسي في السنوات الأخيرة إلا لكي نلاحظ بأنَّ زملاءنا القدامى إما ماتوا أو يقبعون في السجون.

في حين كنَا نحن ما نزال أحياء. أنا طبيب وهي رسامة، ونعيش في شقة فاخرة. نجحنا في التخلص من ذلك الوضع البئس. هذا ما كنت أتصوره على الأقلَّ إلى أن حلَّ ذلك المساء الرهيب... أذكر أننا كنَا في منتصف كانون الأول / ديسمبر، وأنني استسلمت لنوبة المرحلة. احتفلنا بعيد الميلاد بالمستشفى في فترة الظهيرة في جو بهيج، حيث زين الأطفال شجرة ميلاد بتماثيل ورقية من صنع أيديهم. كان قد مضى أسبوعان لم أفقد فيهما مريضاً من مرضىي. كانت فيديريكا تنتظر مولوداً وهو ما غمرني بالبهجة.

لما غادرت المستشفى ذلك المساء، تجولت لحظة أمام واجهات المحلات الفاخرة لشراء بعض الهدايا: كتاباً عن رفائيل لفيديريكا، دمية خشبية ملوّنة وفيلاً محشوّاً لتزيين غرفة الوليد...

لأول مرّة بدا لي المستقبل هادئاً وزاهراً، وعدت إلى البيت مطمئنَ القلب. كان الباب مفتوحاً، فناديت فيديريكا من السلم، لكنها لم تجب. دفعت بباب الحمام بشيء من التوجّس لاكتشف ما لا أستطيع وصفه. كان الجدار والبلاط ملطخين بالدم، وجثة فيديريكا مستلقية في ماء يميل لونه إلى الحمرة. كانت مشقوقة عروق الرسغين. لقد انتحرت زوجتي وهي حامل.

كفكفت جولييت دمعة سالت على خدّها وقد تشوّش بالها.  
خرجت إلى الشرفة لتأخذ نفساً وآلة التسجيل متصلة بأذنها. استرسل  
سام:

مهما يقع لي في المستقبل، فأنا واثق أنه لن يكون في فظاعة  
موت زوجتي.

ينبغي أن تفهمي يا جولييت: إن عملي كطبيب يقوم على اقناع  
مفاده أن المعاناة ليست أمراً حتمياً. فأنا أستقبل يومياً في عيادي  
أطفالاً حطمهم العنف أو الحزن أو المرض، وواجبي هو أن أقنعهم  
بأنّهم يستطيعون القيام من جديد وتجاوز الصدمة. وكثيراً ما أنجح  
في ذلك. وهذا ما يفسّر جزئياً سبب اختياري للطب: لأنّني مقتنع بأنّ  
الحياة تبقى ممكناً بعد المحن المهولة. إنّ معالجة الناس لا تقتصر  
على البحث عن أسباب مرضهم، بل هي إعطاؤهم الأمل بأنّ الغد يمكن  
أن يكون أفضل من الأمس.

لكنني لم أنجح قطًّا في إقناع فيديريكا. كانت المرأة التي أحبّها  
تعيش أزمة، ووجدت نفسي عاجزاً عن تخلصها من معاناتها. كنا  
نعيش تحت سقف واحد، ولكن لكلّ منا حياته الخاصة، ولم ننجح  
يوماً في أن نعيش معاً.

أعتقد أن المرأة لا يمكن أن يساعد غيره إلا إذا قبل هذا الغير  
الممساعدة، لكن انكفاء فيديريكا على نفسها كان يزداد يوماً بعد يوم. لم  
تحرّر قطًّا من ماضيها. فقدت الرغبة في الكفاح إلى حدّ لم أكن  
أتوقعه. ينبعي أن يبلغ اليأس بامرأة مبلغاً كبيراً ليدفعها إلى الانتحار  
وهي حامل...

خلال الشهور التي تلت تلك الحادثة، ما عاد شيء يعنيني، ولم  
أعد أحفل بفرح ولا ترح، ولم يعد الموت يخيفني، بل انتظرته في  
بعض الأيام لعله يكون الخلاص.

الشيء الوحيد الذي ظلَّ يثير اهتمامي هي مهنتي، لكنني صرت أمارسها بقدر أقلَّ من الاقتناع. لم يعد لي أمل في شيء، وصرت أعيش كروبوت.

إلى أن أتيت...

كم كان احتمال لقائنا في نظرك؟ لا أذكر أين قرأت أن مليوناً ونصفاً من البشر يلتقيون يومياً بتأيمز سكوير. مليون ونصف، هل تقدرين هذا؟

كم كان يلزم لكى خطئ موعد لقائنا؟ ثانية واحدة على الأكثر...  
لو أنه عبرت الطريق قبل لقائنا بثانية لخطأنا بعضاً. لو أنهى  
غيرت الاتجاه ثانية واحدة من بعد لكننا أخطأنا بعضاً.

كل ما وقع بيننا يتوقف على تلك الثانية.

ثانية واحدة وما كان لي أن ألمح وجهك.

ثانية واحدة وما كان لك أن تعلمي حتى بوجودي.

ثانية واحدة وما كان لك أن تنزل لي من الطائرة...

وقالت جولييت في نفسها: ثانية واحدة وكنت سالقى حتفي.

ماذا لو كانت هذه الثانية هي ثانيةتنا؟ شرارتنا غير المتوقعة،

فرصتنا.

الفرصة التي بإمكانها أن تغير حياتنا إلى الأبد...

فكري في هذا!

أعلم أنهني كذبت عليك، ثقي بأنني ندمت على ذلك.

أعلم كذلك أنه لست محامية، لكن لا تظني أنَّ هذا الأمر ضايقني، بالعكس. نادلة أو ممثلة، الأمر عندي سيان. فأنا لا أبحث عن الثروة ولا عن الشهرة. ولم يكن المال يوماً عاملًا حاسماً في قراراتي. لا

ثروة لي ولا أملك شيئاً، ولا حتى شقة أسكن فيها، كل ما أملك لا يتعدي مهنة، وهي كلّ حياتي. ثمَّ أملك أملاً أترك لك عنابة تخمينه...

أطفأت جولييت آلة التسجيل وقد ترقرقت عيناهما بالدموع. نزعت بشكيرها وارتدت ما انتقت من ملابس في طرفة عين من دون حتى أن تتجمل، ثمَّ توشحت بوشاح طويل ذي ألوان ناصعة وسترة من القطيفة المخططة المبطنة بالفرو. وما هي إلا لحظة حتى غادرت الشقة. لكنّها لم تلبث أن عادت: من عجلتها خرجت حافية القدمين. بحثت في الحقيقة، فعثرت على حذاء «الكيكرز» الجلدي ذي اللونين ونعل الكاوتشو.

سوّت هندامها قليلاً أمام المصعد. الواقع أنه لم يكن هنداً ماماً شيئاً. أضفت عليها ثيابها القديمة مسحة بوهيمية. لم تكن بالطبع في قمة الأنقة، لكنّها كانت هي نفسها على الأقل.

\*

لحقت بسام في المستشفى، وحذتهما الرغبة معاً في قضاء الظهيرة خارج المدينة. ومن حسن حظهما أنَّ ليونار ماكونين اقترح على سام أن يزور بيته بجي إنجلترا الجديدة، ولم يرفض هذه المرة. غادرنا نيويورك إذن عبر الطريق 95، وحتى وهمَا في السيارة ظلاماً متشابكي الأيدي بحيث كان يعالج محول السرعة وقد وضعت يدها على يده، وعند كلّ وقوف في ضوء المرور كانا يتبدلان القبل. كانت قبلاتهما بمذاق الربيع، وهو ما أثار دهشتهمَا. وما إن خرجا من نيويورك وبلغا هيفن حتى تركا الطريق السيار لكي يتمكّنا من الاستمتاع بجمال المناظر الطبيعية. كان الساحل الممتد نحو الشمال الشرقي

مرصعاً بالخلجان والأجوان والمرافئ، وقادهما إلى قرية صيادين صغيرة واقعة على الحدود بين كونيكتيكوت و«رود أيلاند» هناك حيث كان يوجد منزل ماكوبين.

يجذب هذا المكان خلال الأيام المشمسة العديدة من السياح وأصحاب اليخوت بفضل أروقتها الفنية و محلاته الحرفية، لكن القرية تبدو اليوم شبه فارغة، ومن ثمة أكثر أصالة مما تكون عليه في موسم الصيف.

بعد ركن السيارة، تجول سام وجولييت للحظة في الشارع الرئيس الذي تطغى عليه بنايات القباطنة البحرية القديمة، ثم توجهما إلى الشاطئ. كان الجوًّا صحوًّا منذ الصباح والحرارة معتدلة على نحو لا يصدق، كما لو أن هذا اليوم سُرق من الصيف ليحلّ في عزّ الشتاء.

مما لا شكَّ فيه أن التغيرات المناخية تزداد جلاء يوماً بعد يوم. وراحَا يتوجّلان تحت الأشعة الذهبية يداً في يد على طول رصيف الميناء. كانا يستمتعان بمنظر السفن لما قالت جولييت مداعبة:

- لو كنَا في فيلم، لو كنت مشهورة وكنت أنت كيفين كوستنر، لركبنا أحد هذه اليخوت فتأخذني بعيداً عن الشاطئ.

- إنها أمنية لشدّ ما يمكن أن تتحقق: فقد أخبرني ماكوبين بأنه يملك مركباً راسياً هنا.

- ما اسمه؟

قال سام وهو يراجع أوراق المركب:

- الياسمين.

وما هي إلا لحظات حتى كانا أمام مركب رائع بمقاس ثمانية وعشرين قدماً، مصنوع بكماله من الخشب الملمع.

سألته وهي تقفز إلى سطح المركب :

- هل تعرف قيادة المراكب؟

- من مزايا دراسة الطب في هارفرد أنّ الطالب يُدعى خلال بعض عطلات الأسبوع لتعلم سيقة اليخوت لدى الأميركيين البيض (الواسب) بالمنطقة .

- هل تنوی فعلاً القيام بجولة في البحر؟

- ينبغي أن أكون في مستوى مرجعياتك السينمائية .

- لكن إن كانت قيادة مثل هذا المركب تتطلب رخصة . . .

- لا تقلقي ، إنْ أوقفونا هذه المرة ، فأنا من سيدهب إلى السجن .

بسط الأشرعة وهيأ المركب ، وبعد أن بحث عن المفتاح المناسب في حزمة المفاتيح التي سلمها له ماكونين ، أداره فأزّ المحرك الصغير بدون مشاكل . وهتف سام :

- أرجخي العجال ، هذا ما كان سيقوله كوستنر ، أليس كذلك؟

ردّت وهي تقبله :

- لن يبلغ كعبك .

ثم قفّزت بحركة رشيقة إلى المكان المرتفع من سطح المركب حيث راحت تتأمل طيور الخرشنة وهي تحوم فوق رأسها . وما إن عثر سام على الرياح المواتية حتى أوقف المحرك ، ومضى يرفع الشراع ويؤزره . صارت سرعة المركب ترتفع تدريجياً ليبعدهما من الشاطئ . كانت الشمس تميل إلى المغيب بحيث اصطبغت السماء بلون برتقالي . ولحقت جولييت بسام عند ذراع دقة المركب ، فضغطت نفسها إليه . أضفى عليهما ضوء المساء لوناً بهيجاً ولقهما بوشاح غير مرئي ، وراحوا يتذوقان صامتين متعة كونهما معاً ، واستسلما لانفلات

هذه اللحظة التي يبدو فيها الوجود، الذي غمره النور فجأة، كما لو أنه يمنحهما فرصة أخرى.

\*

مضت نصف ساعة على عودتهما إلى المرفأ، ولاذت جولييت بأحد مطاعم القرية الصغيرة ل تستدفِئ أمام فنجان شاي بينما بقي سام بالمركب ليرتبه كما كان. ولمّا أنهى المهمة، عاد أدراجها مشياً، فقطع الممر الطويل الذي يحاذي البحر. شعر بالخفة والابتهاج. لمّا يكون المرء عاشقاً، تتحذّل الحياة في عينيه ألواناً مختلفة، وبدا له أنّ وجودهاكتسب معنى من جديد.

كان على وشك اللحاق بجولييت لما وضعت رنة حداً لبهجته. لم يكن لا جهاز الإخبار ولا هاتفه الجوال، بل مجرد هاتف أحد المخادع العمومية الموجودة في الهواء الطلق. أهي مزحة؟ التفت يميناً وشمالاً: كان الممر مقفرًا. قرر في البداية ألا يأبه به، لكن رد فعله كطبيب سرعان ما هيمن عليه: وإذا كان أحدهم بحاجة إلى مساعدة؟ حرّيّ به أن يجاذب بالرد من أن يُعرض.

رفع السماعة وسأل:

- من؟

سمع في الطرف الآخر صوت الشخص الذي لم يكن يود سماعه:

- لا تنس الصفقة التي أبرمنها يا غالواي: ستنتهي الحكاية يوم السبت عند منتصف النهار.

- كوسستيللو؟ ماذا تريدين مني؟ ثم، أين أنت؟

- أنت تعلم جيداً ما أريد.

- لا أستطيع أن أفعل ذلك بالمرأة التي أحبّ!
- أخشى ألا يكون أمامك اختيار!
- لماذا تفعلين هذا بي أنا. لقد عرفت الحزن والحداد! وتحمّلت حظّي من المعاناة!
- أعلم ذلك يا سام، لكن، لست أنا من يقرر.

فهتف سام :

- من يقرر إذن؟ من؟
- لكن غريس أغلقت الخط.

استشاط سام غيظاً وأهوى بالسماعة على المخدع، فهشمها.



على الإنسان أن يعيش حياته وهو ينظر إلى الأمام، لكنه لا يفهمها إلا بالنظر إلى الخلف.

سورين كيركغارد

### الخميس صباحاً

التفت سام إلى جولييت، لم يكن يبدو من الغطاء غير كتفها العاري وجدائل شعرها الذهبي المنتشر على الوسادة كأشعة الشمس. توقف في النوم لبعض ساعات، لكنه ظل يشعر بقلق مرير رغم حضور المرأة الشابة. استفاق من النوم وألقى نظرة على المنبه: الخامسة وأربع دقائق، وقرر أن يقوم من الفراش رغم الوقت المبكر. انطلاقاً من الآن، عليه ألا يكذب على نفسه: هناك خطر يتهدّده، وهو لا يعرف كيف يواجهه. شعر بنفسه وقد اكتسحته الحيرة بأنه شخصية من شخصيات البُعد الرابع، تلك السلسلة التلفزية التي دأب على مشاهدتها في صغره: رجل عادي تخطّى حدّاً لم يكن يتوقع وجوده، ويدرك بفزع وجود صدع في الواقع.

غادر السرير دون ضجيج. كانت آثار جماعهما في الليلة السابقة لا تزال مبعثرة على الأرض: قميص قصير، كنزة ملوّنة، قميص آراو ملوّن، بعض الملابس الداخلية . . .

توجه إلى الحمام وفتح صنبور الرشاش، فزعزع وصول الماء الساخن القنوات، وملأ الغرفة بخاراً. ارتمى تحت الدفق الحارق والهواجس لا تزال تنهشه. كان زمام الأحداث على وشك الإفلات من يده، لا سيما وقد وجد نفسه وحيداً أمام تلك الأسئلة. لمن تراه يستطيع أن يبوح بما يحدث له دون أن يثير ريبته؟ لمن عساه يلجأ؟

وقال في نفسه: هناك شخص يمكن... لكن مضى زمن طويل... رفض إمعان التفكير في هذه الإمكانية، ثم خرج من الحمام ونشف نفسه بهمة.

عاد إلى الغرفة ولبس بسرعة ثم خط كلمة لجوليت وضعها في مكان بارز على الوسادة. ترك لها أيضاً مفاتيح شقته بمنهاهن... بحث بياض عن بقايا قهوة، لكن عبثاً.

عجبًا، لا أجد لها هذا الصباح الذي أحتاج فيه بالضبط إلى عشرة فناجين !

نظر إلى جولييت لآخر مرّة قبل أن ينصرف، ثم خرج ووقف عند الباب حيث استقبله ريح بارد وصوت الأمواج الهادر. نزل الأدراج وهو يفرك يديه مستغرقاً في أفكاره. ولم يجد أيّ صعوبة في تشغيل محرك سيارته الرباعية الدفع رغم البرد الشديد.

وبما أنّ الوقت كان لا يزال مبكراً، بلغ نيويورك في أقلّ من ساعة. وبينما كان يهم بالانعطاف إلى الشرق لكي يتوجه إلى المستشفى، أدار مقود السيارة بنية أن يعود أدراجه نحو بروكلين.

- آآه !

ضغط فجأة على الفرامل لكي لا يصطدم بشاحنة أحد باعة الزهور الذي كان عائداً بعد تسليم بضاعته. صرّت إطارات السيارة وانزلقت على الطريق. كان جهاز الفرامل فعالاً، لكنه لم يمنع السيارة

من الارتطام بمؤخرة الشاحنة. لم تكن الصدمة قوية، لكنّها كانت كافية لكي تخضه.

رجع سام إلى الوراء ثم زاد من السرعة ليتجاوز شاحنة بائع الزهور، ولاحظ أنّ السائق الناقم، وهو من أصول إسبانية، لم يصب بأذى، بل لقد راح يلوح بيديه في كل الاتجاهات وبهدوء بقبضته.

قرر سام ألا يتراجّل من سيارته، وتناول إحدى بطاقات زيارته الموجودة على الدوام بمحفظته، ثم قذف بها من خلال زجاج النافذة.

وهتف بالسائق وهو ينطلق:

- سأدفع كل ما يلزم!

كان مستعداً لتحمل مسؤوليته، لكن كانت له في تلك اللحظة أولويات أخرى.

كان عليه أن يلقى أحدهم.

شخص سبق وأن لجا إليه في الماضي، لما شعر بأنه عاجز عن إعطاء معنى للأشياء.

\*

ركن سيارته بمحاذاة الرصيف. لقد مضت على مغادرته بيد ستوي عشر سنوات. وكان قد أقسم على ألا يعود إلى هناك أبداً، وهو قسم التزم به حتى تلك اللحظة. ما حيّره أولاً هو التحول البرجوازي الذي طرأ على الحي. ذلك أنّ التهاب أسعار العقارات طردت الطبقة الوسطى من مانهاتن، مما جعل عدداً كبيراً من سكان المدينة يسارعون إلى شراء مباني الحجارة البُنيَّة الصغيرة التي كان يشغلها الرعاع بأثمان زهيدة.

كانت سيارة شرطة أسفل الشارع تقوم بدوريتها في هدوء، بل إنّ

المكان بدا أنظف، كما لو أنَّ بيروت الصغيرة صارت في غضون  
سنوات في هدوء ضاحية سكنية!

لكنه ما لبث مع ذلك أنَّ شعر بقشعريرة تسرى في جسده على  
غرار ما كان يقع له في الماضي. عندئذٍ أدرك بأنَّ أشباحَ مَن كانوا  
يحتلُّون المكان وكذا باعة الكراك لا تزال تحوم حول كلِّ أولئك الذين  
عاشوا هناك خلال السنوات العصيرة.

مشى في الشارع. كانت الكنيسة الصغيرة لا تزال في مكانها،  
مضغوطة بين ملعب الكرة الطائرة ومخزن منذور للهدم قريباً. صعد  
سام بضع درجات ووقف أمام المدخل. كان الأب هاثاوي يترك باب  
«بيت الرب» مفتوحاً دائماً، إلا في بعض الحالات. ومنذ أن مات  
الأب هاثاوي، عوّضه قسٌ آخر. مع ذلك، لما دفع سام الباب  
الخشيبي الشخين، انفتح مُصدراً صريراً. ها هو يعثر أخيراً على شيء  
لم يتغيّر... .

كانت البناءة تتميز بزينة فاخرة، تجمع بين ضروبٍ مختلفة من  
الصور والنقوش في نوع من التناسق على غرار ما هو مألف في  
كنائس أميركا الجنوبية. كانت الجدران ملبسة بشوب مذهب، ومزينة  
بعدد لا يحصى من المرايا الصغيرة. فوق المذبح انتصب تمثال  
مجتح للعذراء وهي تمد يديها نحو الزائرين، بينما يصوّر رسم جداري  
بألوان زاهية آلام المسيح.

مشى سام بين الصفوف بانفعال. كثيراً ما كان يلوذ بهذا المكان  
في صغره. خصص له الأب هاثاوي مساحة صغيرة بغرفة المقدسات  
لكي يتمكّن من إنجاز واجباته المدرسية فيها. ولم يمتلك سام يوماً  
إيماناً مفرطاً، لكن الأماكن المناسبة للدراسة كانت نادرة في الحي.

دنا الطبيب من تجويف مغمور بضوء شاحب. كانت ثمة مبخرة

معلقة في سلاسل صغيرة، وحولها كانت تتقد عشرات الشموع الدقيقة. وضع بعض دولارات في صندوق الصدقات وأشعل ثلات شمعات: واحدة لفيديريكا والثانية لأنجيلا والثالثة لجولييت.

كانت تفوح في الكنيسة دائمًا رائحة مميزة هي مزيج من رائحة البهار والفانيلا، وهي رائحة كانت بالنسبة إلى سام بمثابة آلة للسفر في الماضي والعودة فجأة عشر سنوات إلى الوراء.

لم يكن ينتظر في قراره نفسه غير هذا. تهيأ له لفترة طويلة أنه تغلب على المحن التي عاشها في صباه، لكن الأمر لم يكن صحيحاً. فقد عاش منذ عشر سنوات بكيفية آلية، قضاها في الدراسة وممارسة الطب بلا كلل. قال في نفسه بغباء إنه إنْ تمكّن من إنقاذ عدد من المرضى، سيشفى نهائياً من هواجسه وسيعيش بسلام، لكن الأمور لم تجر بهذا التحول: اختفت الكدمات، لكن الجروح ظلت في مكانها، وهو لا يعرف كيف يداويها. كان بإمكان انتحار فيديريكا أن يجبره على مواجهة واقع ماضيه لكي يتخلص منه على الوجه الأمثل. وعوض هذا، تجمد في موقف الأرمل التعيس، إلى أن اعترضته نظرة أمل... لكن هذا اللقاء غير المتوقع بجولييت كدرته كذبتها ثم نبوءات غريس كوستيللو المفزعة.

جلس سام على أحد المقاعد البسيطة المصطفة على جانبي الممر، واستسلم لذكرياته في ضوء الكنيسة المؤاسي.

وطفت على السطح نتف من الماضي كانت محبوسة في أعماق

ذاكرته لتعود به إلى شهر آب / أغسطس من سنة 1994. إنه الصيف الذي انقلبت فيه حياتهما رأساً على عقب...



إنها السنة التي أكملًا فيها التاسعة عشرة. كان قد نجح هو وفيديريكا حتى ذلك الحين في البقاء خارج دوّامات العنف بالحي رغم المصاعب.

تدبر أموره بالمدرسة على أحسن ما يرام. وأمضى عاماً وهو يدرس العلوم الجامعية. كان يقضي وقته بين الكتب، وأتت جهوده أكلها: تقدم على كل زملائه، وإن استطاع أن يحافظ على تفوقه، أمكنه الالتحاق بأفضل مدارس الطب في الضفة الشرقية، لكنه كان بحاجة إلى المال. كان حينئذ يستفيد من منحة متواضعة سينتهي صرفها في السنة الموالية. حصل إذن على قرض لمتابعة الدراسة، لكنه لم يكن كافياً. دأب لمدة أربعة عشر سنة على الاشتغال خلال مواسم الصيف، مدخراً كل ملیم على نحو سري تقريباً لعله يجمع مبلغاً لا بأس به من المال. كان قد عثر على عمل في ذلك الصيف كنادل بأحد أفخم الفنادق المحاذية للمحيط يدعى أتلانتيك سيتي. وقد كانت مدينة اللعب تلك على بعد ساعتين ونصف من نيويورك مما جعله يقيم هناك، ولا يعود للقاء فيديريكا إلا مرة كل أسبوعين، خلال عطلته.

أما سبيل فيديريكا فكان أكثر اضطراباً. أنهت تكوينها في أحد مدارس البستنة وهي تعمل نصف وقتها بالموازاة مع ذلك لدى أحد مرببي النحل من ماساشوستس، كان قد ثبتت عشرات الخلايا بحدائق ومتزهات مانهاتن.

وهي إن كانت في الحقيقة لم تستهلك المخدرات فقط، فقد كانت بالمقابل تُتاجر فيها بين الفينة والأخرى في فترات متقطعة، وذلك حتى تتمكن من شراء ما تحتاجه منها من مخدرات ودواء، لا سيما وأن صحتها كانت في تدهور مستمر.

كان سام قد اقترح عليها إقراضها بعض المال، لكنّها رفضت بإصرار جعله لا يلتحّ عليها. حاول أيضاً أن يعيدها إلى رشدها محذراً إيّاها من أن يكون لذلك عواقب سيئة، بل بلغ به الأمر أن كان يعطيها دروساً في الأخلاق: فهي تعرّض حياة الآخرين للخطر بتوزيع المخدرات مشاركة بذلك المهرّبين جرائمهم، لكن كلامه كان يذهب سدى. «لا تطلب متى أن أترك أمي تموت». كان هذا هو جوابها الوحيد الذي يضع حدّاً للمحادثة.

اكتفت لفترة طويلة بتوزيع بعض الكميات الصغيرة هنا وهناك خلال جولاتها على خلايا التحلّل. ثم في بداية ذلك الصيف المشار إليه آنفاً، اشتدّ المرض على أمها، وكان عليها أن تخضع لعملية جراحية عاجلة مما كان يتطلّب دفع مبلغ كبير كتسبيق.

عندئذ ظهر على نحو مفاجئ داستفاس في حياتهما. كان هذا المهرّب العنيف يسيطر على جزء من الحي. وقد كان يضع عينه على فيديريكا منذ فترة. ذلك أنّ الفتاة كانت تملك جاذبية عجيبة شائعة لدى نساء أميركا اللاتينية، حتى ولو كنّ يعيشن في الفقر. إنّها مزيج من العزة والسمو، وهي التي تفسر بلا شك عدم تعرّض الشرطة لها لما كانت تحلّ بالحي. وهذه الهبة هي التي جعلت داستفاس يفكّر في أمر: استعمال فيديريكا كوسيلة لتهريب الكوكايين للولايات المتحدة.

لو علم سام بهذا الأمر، لكان اعترض عليه بالطبع، حتى ولو اقتضى منه ذلك استعمال القوة حفاظاً على صديقه. ومن سوء حظه حدث ذلك في الفترة التي كان يشتغل فيها بأتلانتيك سيتي. استقلّت فيديريكا الطائرة إلى كاراكاس دون أن تخطره بشيء، وجلبت معها في رحلة العودة ثلاثين كريمة من الكوكايين ابتلعتها قبيل سفرها. كانت هذه اللحظة من أرعب لحظات حياتها القصيرة. قضت الرحلة بكمالها

وهي تصلّي، ينهشها الخوف من أن يتمزّق المطاط الذي يغلف  
المخدر وينتشر في معدتها.

وما إن خرجت من هذا الكابوس حتى أقسمت ألا تعود لهذا  
ال فعل، لكن داستفاس ما لبث أن رجع إليها مفترحاً مهمّة أقلّ خطراً  
مقابل عمولة أكبر. كان عليها هذه المرة أن تسفر إلى المكسيك وأن  
تعود بسيارة حشيت إطاراتها بالكوكايين.

ولسوء حظها، لم تستطع أن ترفض. فطارت إذن إلى مكسيكو  
حيث تلقت سيارة تويوتا عادية مليئة بالغبار الأبيض. ولما اجتازت  
نقطة الحدود بتخوانا دون تفتيش، توجهت إلى نيويورك مستعملة  
الطرق الأقلّ ازدحاماً، ومحترمة إشارات تحديد السرعة. إلى هذا  
الحدّ، سارت الأمور على أحسن ما يرام، لكنّ كان عليها أن تتحذّر،  
لأنّ الحظ كما يُقال لا يحالفك دائماً.

توقفت في طريق باتون روژ بإحدى المحطّات للتزوّد بالوقود  
والذهاب إلى المرحاض، لكنّها لما عادت إلى موقف السيارات،  
تفاجأت باختفاء العربة.

أهو سوء الحظ أم نصب؟ بالنسبة إليها لا فرق من حيث  
العواقب: لن تستطيع أبداً تسديد ثمن السلعة الباهظ، ووحش مثل  
داستفاس يستطيع أن يعتذّرها، أن يستبعدّها وقد يقتلها.

وأمام تعذر العودة إلى بروكلين، استقلّت الحافلة إلى أطلانتيك  
سيتي لكي تنهار بين ذراعي سام.

لما سمع حكاية صديقته، أصابه الذهول. أخبرته فيديريكا بنيتها  
في مغادرة عن نيويورك نهائياً، فحاول أن يقنعها بالعدول عن هذه  
الفكرة. لا يمكنهما أن يتخلّيا عن كل شيء بين عشية وضحاها، وإذا  
قبلّ بالهروب اليوم، فسيقضيان كلّ حياتهما هاربين، لكنّه لن يتخلّى

عنها مهما كان. فهما مقتنعان تمام الاقتناع بأنّ مصيرهما واحد، وأنّهما إن فرّا سيفران معاً وإن مكثا سيمكثان معاً. هو ذاته ينبغي أن يلوم نفسه على كونه لم يتتبّع لمقدّم هذه الكارثة، لكن ألسنا نرفض رؤية ما نخشى رؤيته؟ قبضت فيديريكا الليل كلّه وهي تعذر لسام عن النرجّ به في هذه المطبة، لكن وقت التراجع كان قد فات.

وفي الأخير قرّر سام العودة بمفرده إلى نيويورك، وظنّ بسذاجة أن الأمور ستنتهي إلى الحلّ تلقائياً. ترجل من أوتوبيس كرايهدوند بينما كان الليل يخيّم على الحي. ذهب أولاً إلى بيته ثم قرر أن يبحث بنفسه عن داستفاس. استخرج قبل ذلك الصندوق الحديدي الذي كان يودع فيه مدخراته لتمويل دراسته. كان يحوّي 6000 دولار تقريباً، وكان مستعداً لعرضها على داستفاس مقابل تخلّيه عن الانتقام من فيديريكا، لكنّه عرج قبل ذلك على صديقه شايك باويل. لم يكن الصديق في بيته، وقد وجد سام ذلك أفضل. تسلّق واجهة البناء حتى السطوح، ومن هناك تسلّل إلى أن بلغ نافذة غرفة صديقه، وهناك عثر على السلاح الذي كان يخبئه شايك خلف آجرة بالجدار، فيما يشبه خزنة سوّاها له أخوه قبل أن يمضي لقضاء عطلة في جزيرة رايكرز<sup>(1)</sup>. ثبّت سام من أنه ملقم ثم وضعه في جيب سترته الداخلي. لطالما حرص على تجنب السلاح، لكنّه هذه المرة خشي من أن تسير الأمور على غير ما يأمل.

وهذا يدلّ على أنه لم يكن بالغ السذاجة . . .

\*

---

(1) وهو سجن واقع على جزيرة بين كوينز ومنهاطن، مشهور بشدة العنف.  
(المؤلف)

- أما زلت مستغرقاً في أحلامك أيها الابن الضال؟  
أخرج الصوت الأخش الطبيب من ذكرياته، وجعله يجفل كما لو  
أنه ضبط بصدده ارتکاب خطيئة. رفع بصره ليرى شايك باويل الذي  
دخل من توہ من باب بيت المقدس.

- شايك!

- مرحباً سام.

مهما بدا الأمر مستحيلاً، فقد صار شايك قسًا، وخلف الأب  
هاثاوي. ذلك أنّ موت أخيه منتحرًا بالسجن حطمه، ولا شك أنّه  
وجد في الإيمان العزاء الذي كان بحاجة إليه.

تصافحاً تبعاً لشفرة معقدة كدأبهما في الأيام الخوالي، ثم تعلقا  
بحرارة. كان الأسود الفارع لا يزال قويّ البنية كلاعب مصارعة، وهو  
يرتدى سروال جينز باهت وجزئية ملتصقة بغضاته الضخمة. كانت  
لحيته قصيرة بيضاء تبدو أبرز فوق بشرته السوداء التي فقدت بريقها.  
لقد وهبت الطبيعة شايك قوة بدنية خارقة، ولا يستطيع سام أن يعد  
المرات التي حماه فيها من عنف الحي.

- كيف حالك؟

- أفضل من آخر مرة التقينا فيها.

لم يلتقي الرجالان منذ عشرة أعوام رغم أنّهما ظلا يتصلان عن  
بعد. ذلك أنّ سام قطع كل صلاته بالحي بناء على نصيحة شايك في  
تلك الليلة الرهيبة، رغم أن ذلك حرمه من لقاء الصديق الوحيد  
الأقرب إلى نفسه.

قال سام معلقاً حتى لا يغلبه التأثر:

- كما لو أننا التقينا أمس.

- بدت لي هذه المدة دهراً. لما التقينا آخر مرة كنا لا نزال فتياً بينما أراك ترتدي اليوم زيِّ رجل أعمال وتشتغل في مستشفى كبير.

- لك يد في هذا.

- كفاك هراء!

خَيْم الصمت على الصديقين، ثم قال شايك:

- علمت بما حل بفيديريكا، وحاولت الاتصال بك هاتفياً مرات عديدة...

- أعلم ذلك، توصلت برسائلك، وقد واستني رغم أنني لم أتصل بك.

ثم سأله شايك كما لو كان يتمتع بحسنة سادسة:

- لديك متاعب يا رجل!

- ومن ليس له متاعب؟

- هيَا، تعال وحدثني عن ذلك ونحن نشرب فنجان قهوة. إنه منزل الرب، لكنه بارد بشكل لا يطاق!

كان شايك يقطن بشقة صغيرة نظيفة وأنيقة، واقعة خلف الكنيسة مباشرة. دعا سام للجلوس على أحد مقاعد غرفة الجلوس، ثم مر خلف الكونتوار لكي يهيء كوبَي إكسبريسو على آلة قهوة عتيقة معدنية اللون، جديرة بمقهى إيطالي قديم. وعلى الرف اصطفت العديد من الجوائز التي فاز بها شايك في بطولات الملاكمه، لكن حتى لا يبدو الأمر دعوة للعنف، وضع القس مقوله لشكسبير داخل إطار: «لا ينبغي غسل الدم بالدم، بل بالماء».

وضع كوبَي من القهوة على رغوة وهو يقول:

- ذُقْ هذا، وقلْ لي ما رأيك؟

- هل هو بنْ كولومبي؟

- بل جامايكى : بلو ماونتین . رائع ، أليس كذلك ؟  
وافق سام بتحريك رأسه .

قال شايك وهو يومئ لقطعة من جريدة معلقة على دعامة خشبية :

- انظر ، لقد قصصتُ المقال الذي نشرته نيويورك تايمز عنك .

- يتحدث عن المستشفى وخاصة ، وليس عني أنا .

- أرى أنك مولع بالتواضع . . .

هزّ سام كتفيه .

- تلقيت أيضاً حوالاتك . خمسة آلاف دولار كل عيد ميلاد من

أجل الأعمال الخيرية للأبرشية . . .

- إنني أثق فيك : أنا واثق من أن ذلك المال صُرف في محله .

- نعم ، ولكنك لست ملزماً لإرسال كل هذا المبلغ .

- إنها طريقة لأداء ما عليّ من دين . لما رحلت من هنا مع  
فيديريكا ، أقرضنا الأب هاثاواي مالاً .

- أعلم ذلك . قال لي مرة إنه أفضل استثمار قام به طيلة حياته .

- لكن هذا المال كان مخصصاً للفقراء . . .

لاحت ابتسامة خاطفة على وجه شايك :

- ألم يخطر على بالك قطّ بأننا كنا نحن هم الفقراء آنذاك ؟

فكّر سام لحظة في هذه الحقيقة ثمّ التفت نحو صديقه :

- يحدث لي شيء في متنه الغباء يا شايك . . .

قصّ عليه سام إذن الواقع الغريبة التي قلبت حياته رأساً على  
عقب في الأيام الأخيرة . أشار في البداية إلى لقائه العجيب بجولييت ،  
وإلى ذلك الشعور بالرضا والكمال الذي غمره ومنحه الأمل في  
الإحساس بالحب من جديد ، وفي إنشاء أسرة . كما حكى له عن  
هواجسه وتصرفه الأخرق الذي منعه من الاحتفاظ بها ، وقادها إلى

المتاعب مع القضاء بعد تحطم الطائرة. إثر ذلك مضى يحدّث بشيء من التوجّس عن لقائه بمفتشة الشرطة تلك التي تدعي أنها موفدة من السماء للقيام بمهمة مريرة.

كان شايك باويل رجل العمل الميداني، قرر أن ينذر حياته لمساعدة الأسر الفقيرة والشباب الذين يعيشون أوضاعاً صعبة. وبذلك لم تكن الميتافيزيقا هي مجاله، وكان يترك القضايا اللاهوتية لغيره. هذا فضلاً على أنه لم يكن شغوفاً بالخوارق، لكنه مع ذلك أنصت باهتمام بالغ لكلام صديقه، وكان يعلم أن سام لم يكن صاحب رؤيا ولا شخصاً سريعاً التصديق. وقد صادف هو نفسه، خلال حياته كفّس، مرّة أو مرتين أشياء مستعصية على التفسير. وحين حدث له ذلك، انحنى خاضعاً أمام هذا الشيء الذي يتتجاوزه. لا شك في أنّ على المرء ألا يصرّ على فهم كل شيء. ومني نفسه بأنّ الأجوبة قد تأتي لاحقاً.

لكته بمقدار ما كان سام يتقدّم في سرد حكايته، كان ذهن شايك يزداد تشويشاً. ولما أخبره بالصفقة المريعة التي عرضتها عليه الموفدة، تضاعف قلقه.

لذا بالصمت لفترة طويلة، ثم نطق شايك بسؤال ارتأى أنّ عليه أن يطرحه رغم علمه بالجواب:

- أما زلت لا تؤمن؟

- لا، أفضل ألا أكذب في هذا.

- انظر، إنّ الربّ أحياناً...

لكن سام حاول بتحويل مجرى هذا الحديث:

- اترك الربّ جانباً أرجوك.

ثمّ قام واقفاً وجلس على حافة النافذة، ولاح له من خلال

الزجاج ملعب كرة السلة حيث لعب مراراً، واحتفظ منه بذكريات متباعدة. ذلك أنهم كانوا يتسلون فيه أحياناً، وأحياناً أخرى كانوا يتعرّضون للاعتداء ممّن يكبرونهم ويفوقونهم قوّة وصلابة. ومهما يكن، فهو لم يسكب دمعة أمامهم أبداً، وكان يعدها شكلًا من أشكال الانتصار.

سؤال سام صديقه وهو يلتفت إليه:

- ماذا عليّ أن أفعل في نظرك؟

تنهّد شايك.

- ما حكّيت لي مقلقاً، لكن عليك ألا تخضع لابتزاز هذه الموقفة المزعومة.

- لكنّها تهدّدني أنا وجولييت.

- عليك أن تواجهها إذن، لكن دون أن تحشر جولييت في ذلك. عليك أن تحمي المرأة التي تحبّ يا سام.

- لست واثقاً من أنّي قادر.

- ما زلت تهون من قدراتك كعادتك ...

- كلا، أتكلّم بجدّ. لست أعلم ماذا سأ فعل.

قال شايك مفترحاً وهو يضرب يداً بيده:

- دعني أكلّمها. دعني أخيّفها قليلاً ...

- كلا يا شايك، لن ينجح الأمر هذه المرة. هذه المرأة تعطي الانطباع بأنّها لا تخشى شيئاً.

- لا وجود لمن لا يخاف يا سام، صدقني!

رفاق القسّ سام إلى سيارته. كان الحي يستيقظ ببطء: البقالة الكورية تفتح أبوابها، حافلة مدرسية تقطع الشارع ببطء والحياة شرعت تدبّ عند فريسكو.

- أتعلم؟ لا يكاد يمرّ يوم دون أن أتذكّر ذلك المساء المشهود  
الذي مرّت عليه الآن عشر سنوات، لـ...  
قاطعه شايك:

- أعلم. سأذكّره كلّ يوم إن كان ذلك يواسيك.  
- أنت واثق من أننا اتخذنا القرار المناسب؟  
ولاحت في عيني القسّ مسحة من الكآبة:  
- لا يمكن للمرء أن يكون واثقاً من أنه اتّخذ القرار المناسب.  
هذا هو ما يضفي الرونق على الحرية التي منحناها رب إياها.  
أدّار سام مفتاح تشغيل السيارة وأنزل زجاج النافذة:  
- مع السلامة يا شايك.

- أخبرني بما استجّد، ولا تتردد في الاتصال بي إن احتجت  
إليّ. لا تنتظر عشر سنوات أخرى لكي تعود! الأمور تسير على نحو  
أحسن الآن، وليس ثمة ما تخشاه هنا.  
لم يكن سام واثقاً من ذلك.

شغل المحرك ولوّح لصديقه قبل أن ينطلق.

لطالما طرح على نفسه هذا السؤال: ماذا كان سيقع لو أنه لم  
يذهب للقاء داستفاس بسلاح في جيب سترته؟ ثم أُنقذ فيديريكا حقّاً  
ذلك المساء المشهود؟ أم أنه لم ي عمل إلا على تأجيل نهاية لا مفرّ  
منها؟

علم منذ ذلك اليوم أنّ الناس ينقسمون إلى فتّين على كل حال:  
من قتلوا شخصاً من جهة ومن لم يقتلوا من جهة ثانية.  
أما هو فيتمي إلى الفتّة الأولى.



ها أَنْذَا أُبَعِثُ أَمَامَكَ مَلَاكاً يَحْرُسُكَ فِي  
الطَّرِيقِ، وَيَوْصِلُكَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي هَيَّأْتُ لَكَ.

الخروج 23، 20

كانت غريس تتجول في شوارع إيسٍت فيلاج وقد وضعت حقيبتها على ظهرها. كثيراً ما كانوا يكلّفونها في بداية مشوارها المهني بالقيام بدوريّات في هذا الحي. لا تزال تذكر أنّه كان مكاناً نابضاً بالحياة يخالط فيه مهاجرو أوروبا الشرقيّة البنكس والراستاس والقوطيين. وعلى غرار باقي أرجاء مانهاتن، فالحي اليوم في طريقه إلى التبرّج رغم مقاومة بعض جيوب الفقر حول عمارات ألفابت سيتي السكنية المخصصة لذوي الدخل المحدود.

كان البرد قارساً، لكن شمس الصباح تبشر ب يوم شتاء جميل. توّقفت في إحدى المخابز لكي تشتري قهوة محمولة وقطعة من حلوي بلاك فورست. فالحياة الإنسانية حافلة ولا شكّ بالمغريات التي تصعب مقاومتها.

مشت جودي كوسٌيللو في شارع فيرست أفينيو باتجاه حديقة تومبكينز سكوار. يعرض العديد من الباعة على جانبي الشارع سلعاً زهيدة الثمن. تأكّدت وهي متوازية خلف البضائع المعروضة من خلوّ المكان من رجال الشرطة. لما ترحب في النهل، تستهدف السيّاح

على الخصوص لأن احتمال العثور على المال في حقائبهم أكبر، لكنّها وجدت نفسها في هذا الصباح في مكان غير آهل بالسياحة، غير أنّ حضور الشرطة فيه ضعيف. لم تكن على خير ما يرام: فهي ترتعش وتشعر بألم في بطنها وبالكاد تستطيع المشي على قدميها، وكان عليها أن تتجمّب وضع نفسها في موقف حرج، لأن يلاحقها شرطي يريد التظاهر بالبطولة في الجري.

رمقت امرأة ترتدي سترة جلدية كانت تدير لها ظهرها، ذات قوام رياضي ويبدو أنها لا تزال شابة. كان الأمر محفوفاً بالمخاطر، لكنّها كانت تمسك كوب قهوة بيده وحلوى باليد الأخرى. ولعلّ حقيقتها الجلدية الرفيعة هي ما كان يشي على الخصوص بأنّها على قدر من الشراء.

قدّرت جودي الوضع جيداً: أقدم أم أحجم؟ يا إلهي، أقدم أم أحجم... كانت تكره أن تقوم بهذا، إذ كانت تشعر بالحقاره، وتملّكها الخوف. أقدم أم أحجم... لكن حاجتها إلى المال ماسّة لكي تشتري المخدر. وشعرت بقطرات من العرق تسيل أسفل عمودها الفقري. أقدم أم أحجم... وحسّمت أمرها فجأة وبدأت تتأهّب: سأقدم.

شعرت غريس بذراعها الأيسر يُسحب إلى الأمام بعنف كما لو أنه انخلع، وتطاير كوب القهوة في الهواء قبل أن يسقط على الرصيف، بل هي نفسها فقدت التوازن وسقطت على الأرض. لم تبصر من المعتمدي سوى طيفه: إنه امرأة أو بالأحرى فتاة تلبس معطفاً واقياً عسكرياً. لمحت أيضاً شعرها القرمزى وأظافرها المصبوغة بالأسود، بل إن نظريهما التقى في لمح البصر، والتمع شيء فجأة في عيني جودي المنطافتين: مزيج من الأمل والرعب، لكنّ موجة من

الارتياح سرعان ما طمسته. لم يدُم ذلك أكثر من ثانية، لكن اللحظة استطالت كما لو أنها تباطأت وتجمدت إلى الأبد كشظية بَلْور في ذهن كلّ منها.

ثم تسارع كلّ شيء. استأنفت جودي عدوها وهي تشدّ الحقيقة المنشولة إلى صدرها، وتعالت الصيحات المنددة حولها. أمّا غريس فقامت واقفة في لمح البصر وانطلقت في إثرها... كان شيء ما يشوش ذهنها في هذه الفتاة، لكنّها لا تعرف ما هو. عبرت جودي الشارع وهي تحاذر من أن تدوسها سيارة، والتفت خلفها لتتبّئ أنّ ضحيتهاطاردها. حاولت أن تزيد من سرعتها وأنفاسها تكاد تنقطع رغم أنها لم تُعد تشعر بقدميها. وعبرَت غريس بدورها الشارع تحت أبواق السيارات المتعالية لكي تلتحق بالجانب المقابل. كانت أسرع من الفتاة، وكانت تقترب منها شيئاً فشيئاً. شعرت جودي بمعذتها تنقلب: لو كان فيها شيء لكان تقيّاته هناك في الشارع. كانت غريس تدارك ما يفصلها عن غريمتها بعناد، لكنّها كلّما تقدّمت إلا وزادت حيرتها دون أن تتمكن من فهم سبب اضطرابها. خارت قوى جودي، لم تُعد تفصلها عن مطاردتها سوى بعض خطوات، وما إن بلغت الشارع الرابع عشر حتّى انعطفت شماليّاً حيث توجد محطة مترو غير بعيدة. كان عليها أن تصمد لبضعة أمتار.

وهتف صوت رجولي:

- ها هي!

أدانت جودي رأسها قليلاً لتلمح شرطيين بزيهما الرسمي بلا حفانها.

لما التفت نظرات غريس بعيوني سارقتها للمرة الثانية، شعرت بقشعريرة تسري في كلّ أوصالها. أدركت إذن سبب الاضطراب الذي

أصابتها به هذه الفتاة، وكان الأمر أبعد ما يكون عن الاحتمال بحيث أنّ فكرها رفض تصديقه.

اندفعت جودي وهي تكاد تموت خوفاً في مدخل محطة المترو، ونزلت السلم الرئيس مسرعة ثم استجمعت قواها وتسلقت السلم الآلي وغريس والشرطيان في إثراها. لم ترد غريس أن تتخلى عن المطاردة إذ دفعت العديد من المسافرين، ونزلت سلماً متراجعاً في الاتجاه المعاكس لكي تبلغ أخيراً رصيف المحطة، ولمحت من جديد الفتاة فنطق لسانها عوضاً عن عقلها، وصاحت:

- جودي ! جودي !

توقفت الفتاة فجأة كما لو أنها أصيبت بصعقة كهربائية. التفت بيضاء، وتركت الحقيقة تسقط على الأرض وهي تشعر بقلبها يطقطق كما لو أن قنبلة انفجرت بداخله فتطايرت أشلاؤه. هذا الصوت وهذا الوجه . . . .

وقفت المرأةان وجهها لوحة مشلولتين ومعقودتي اللسان لا تفصل بينهما إلا بضعة أمتار.

بادرتها جودي بصوت متقطع :  
- مام . . . ؟

فتحت من جديد فمها دون أن تصدر أي صوت، وراحت تتنهب نحيباً اهتزّ له كل جسدها. ومن جديد طالت اللحظة، وجرى الزمن بيضاء. كانت لحظة تعارف واعتراف لطيفة تقع خارج الزمن والعقل. ووصل المترو محدثاً ضجة كبيرة وهبة ريح كالزوبعة. وما إن توقفت العربة، وخطت جودي خطوة لتقترب من غريس حتى كان الشرطيان قد لحقاً بهما، فارتدى أحدهما بنية على المراهقة بكلّ ما أوتي من قوة، وهتف وهو يطرحها أرضاً :

- لقد أمسكت بها!

شلّ حركتها بسهولة، وقلبها على بطئها ولوى ذراعها إلى الخلف لكي يثبت الأصفاد على يديها. وما إن كبل اليدين الأولى حتى شعر بركلة قوية قطعت أنفاسه. وفي اللحظة التي استدار فيها نحو غريس وهو لا يدرى ما وقع له، بادرته بكلمة أخرى على الوجه جعلته يفقد توازنه. قالت لابنتها بلهجة آمرة بينما كان الشرطي الثاني يستل هراوته:

- أصعدني إلى العربة!

بقيت جودي مسمرة في مكانها من أثر الانفعال دون أن تفهم حقاً ما يجري. كررت غريس لحظة سماع إشارة إغلاق الأبواب:  
- أصعدني إلى العربة!

هوت الهراء على قفاهما مرة ثم مررتين، وقبل أن يُغمى عليها تهياً لها أنّ ابنتها قفزت داخل إحدى عربات المترو. وبينما كان المترو يتحرك، ألسقت جودي وجهها بزجاج النافذة لترى الشرطين يسحبان أمها عبر السلم.

\*

كان شايك باويل يشعر بالقلق، ولم يشا أن يظهر ذلك أمام سام، لكنّ حكاية الموفدة بلبت ذهنه، وظلّ سؤال يشغل باله.  
هاتف مصلحة الإرشادات، وطلب الاتصال بمستشفى ماتيوس. كشف عن اسمه، وطلب الدكتور غالواي.  
شايك؟

- قل لي يا عزيزي، ما اسم المرأة التي حدّثني عنها قبل قليل?  
- غريس كوستيللو، أيوحي لك هذا الاسم بشيء؟

أجاب القس كاذباً:

- كلا، آسف على إزعاجك.

سارع إلى إنتهاء المكالمة خشية أن يطرح عليه صديقه مزيداً من الأسئلة.

ردد: غريس كوستيللو، إنه الاسم الذي كان يخشى سماعه، لكن، كيف يمكن ذلك؟ شعر شايك بدقائق قلبه تتسارع، وأحس بشيق في التنفس. نزل سلم شقته متراجعاً حتى بلغ ملعب كرة السلة. غريس كوستيللو! أعلمه أن يخبر سام؟ فكر لحظة في هذه الإمكانية، لكنه لم يستطع أن يحسم الأمر. ودخل إلى الكنيسة وقد أوشك على اليأس، وأومأ بيده راسماً رمز الصليب. ظلّ لسنوات يراهن على وجود ربّ متفهم رؤوف ليحافظ على إيمانه، لكنه ما زال يعرف في العمق عن طبيعة الذات الإلهية؟ من المؤكد أنّ الرب الذي كان يناجيه ودود كريم، لكن، ألهذا الربّ وجود حقيقي خارج ذهنه؟

\*

استيقظت جولييت وهي تنعم بفراش مريح لا علاقة له بما عاشته في الزنزانة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة. سحبت فوقها الغطاء الناعم الدافئ قبل أن تلقي نظرة على الساعة وتقوم مذعورة: إنها الثامنة والنصف، ومصالح الهجرة ضربت لها موعداً على الساعة العاشرة لتجتاز الفحص الطبي اللازم لتمديد فترة تأشيرتها. فالأمر يتعلق بـلـفـاحـ تـأـخـرـتـ عنـ الـقـيـامـ بـهـ.

قفزت من الفراش وهاتفت شركة سياراتأجرة، ثم راجعت مواعيد القطار. بإمكانها أن تكون هناك في الموعد، لكن شريطة أن تسرع.

وبيّنما هي تُسارع للاستحمام، عثرت على الكلمة التي تركها سام على الوسادة، فرأتها باستمتاع مرتين ومرتين وثلاثة. خرجت إلى الشاطئ متذكرة بقططاء ل تستقبلها السماء والبحر والريح. تلذّذت باللحظة وقد راقّ مزاجها بسعادتها الطارئة، ومضت تستعيد شريط ساعاتها الأخيرة بابتهاج. كان هواء البحر بارداً، لكن ليس إلى درجة منعها من التشقلب على الرمل.

شعرت بنفسها جميلة ورشيقه، وووجدت الحياة رائعة.

\*

لمّا فتحت غريس عينيها، وجدت نفسها مربوطة إلى الباب الخلفي لسيارة شرطة، فصاحت بهم:

- هيء ! تمّلّوا ! إنّي بنت الدار !

استدار أحد الشرطيين ورمقها شزاراً وهو يضع على أنفه خرقه مطلية بالدم . . .

- إنّكم ترتكبون حماقة أيّها الرجال. أنا مفتشة شرطة بالمقاطعة

. 36

فرد السائق :

- طيب ، وأنا أمي هي بريتي سبيرز !

- فتشوا في جيبي الداخلي وانظروا . . .

فتش الشرطي ذي الوجه المجروح بوثوق في جيب سترة غريس، فعثر على شارة NYPD، فصاح السائق وهو يضغط فجأة على دواسة الفرامل :

- اللعنة !

ناور وركن السيارة وسط طريق ليكسينغتون، وسأل متحيراً:

- وما شأن تلك الفتاة إذن؟

فقالت غريس موضحة:

- إنها من مخبراتي!

- رغم أنها خطفت حقيبتك؟

- تظاهرت بذلك فحسب!

- تظاهرت؟

- اسمعوا يا رجال، لا تسعوا لفهم كل التفاصيل، مفهوم؟

- وكنت بحاجة إلى تهشيمنا بهذا النحو؟ كدت أن تكسرني أتفى!

هزّت غريس كتفها:

- كان من اللازم اللجوء إلى التضليل لتصليح غلطكم.

قال السائق مبرراً وهو يفك قيدها:

- لم نقم إلا بواجبنا. لقد انخدعنا بالمظاهر.

- لا بأس! هيأ صلحاً غلطكم وأوصلاني إلى حيث أريد.

- إلى أين تريدين الذهاب؟

أجابت وهي تفرك رصفيها:

- إلى مستشفى ماتيوس.

\*

كانت مرافق مركز جون كينيدي الصحي موجودة ببرج من المعدن والزجاج واقع بتقاطع بارك أفينيو والشارع 52. اندفعت جوليت داخل البناء مسرعة. كانت متأخرة عن الموعد بربع ساعة، لكن لا بأس، فلن يعيدها إلى السجن بسبب ذلك.

بالرغم من أنّ المرأة لا يمكن أن يكون واثقاً من شيء هنا . . .  
حدّقت بإعجاب في القبة المتعالية فوق باحة المدخل ذات الطراز  
البيزنطي، والمكسوّة بأوراق الذهب والفسيفسae. هذا ما كان يعجبها  
أكثر في نيويورك: حتى وإن كان المرأة يعيش هناك لسنوات، نادراً ما  
يمرّ يوم لا يكتشف فيه رائعة من الروائع لا علم له بها.

استقلّت المصعد إلى الطابق الثالث والثلاثين وقد عزمت على  
العودة إلى هناك بعد الفراغ من هذا الإجراء لتأمل القبة بتأنّ.

قدمت استدعاءها لمصلحة الاستقبالات، فطلبوا منها الانتظار  
قبل أن يدخلوها إلى رواق تفوح منه رائحة المستشفى. كانت جولييت  
لا تزال حالمه، ولم تفلح حتى الألوان الكالحة والباردة كالحديد في  
أن تكدر مزاجها. كانت تفضل بالطبع لو أنها في مكان آخر. فقد  
كانت جدّة أمّها، التي جاوزت الخامسة والستين وهي بصحة جيدة  
تردد: تجنبني الأطباء إن أردت الحفاظ على صحتك، وهي النصيحة  
التي ما زالت جولييت تعمل بها إلى الآن.

سأل رجل بوزرة بيضاء:

- السيدة بومان؟

- أنا هي.

- أنا الدكتور غولدوين. إن كنت موافقة، سبّداً.

تبعته إلى أن بلغا غرفة عارية الجدران وبالغة الطول. كانت  
الزيارة عبارة عن فحص سريع. جددوا في البداية لقاحتها، وأخذوا  
عينة من دمها، ثم أجبت بعد ذلك عن بعض أسئلة تتعلق بسوابقها  
الصحية وسوابق عائلتها. وفي الأخير تنصلت الطبيب على دقات  
قلبه. ولكي تخفّف من وطأة الموقف، قالت بنبرة متولّة:

- لا تذكر السرطان اليوم من فضلك: فأنا عاشقة.

لكن الطبيب لم يردد حتى بالابتسام. فقد كان المركز الصحي يعالج الناس بالجملة، وإذا كنت تنتظر قليلاً من الدفء الإنساني، فحريري بك أن تطرق باباً غير هذا.

- انتهينا يا آنستي.

- أَسْتُطِعُ الانتصاف؟

- بالطبع، اتركي لنا عنوانك، وسنوافيك بكشف كامل، إلا إذا كنت تفضلين انتظار التائج؟

- هل يلزم الانتظار طويلاً؟

- نصف ساعة.

- سأنتظر.

الأولى إنتهاء هذه الحكاية مرة واحدة. رجؤها أن تنتظر بقاعة انتظار معقّمة. اشتريت كوب قهوة من موزع آلي ووقفت طويلاً عند النافذة تنظر إلى انعكاس ناطحات السحاب المحيطة ببارك أفنيو. كان زجاج كل بناية يعكس السماء والبنيات المحيطة به بشكل أشبه بعلبة مرايا. ووجدت جولييت هذا رائعًا ومروعًا في الآن نفسه، لأنها ربما شعرت بنفسها ضئيلة وضعيفة وفانية.

أشعرتها القهوة بالغثيان. مرت الكوب الكرتوني وهي تتتساءل: لماذا انتابتها فجأة هواجس حول حالتها الصحية؟

كان الأمر سخيفاً. فهي بحالة صحية جيدة، وبوسعها أن تشارك في مارathon نيويورك أو تصعد على قدم واحدة السبعة آلاف درج في مبنى الأبراج ستيل بيلدنغ. طردت هذه المخاوف من ذهنها بالتفكير في أشياء أكثر تفاؤلاً. فبمجرد ما ستخرج من هنا، ستتمرّ على سام لتقبّله. لا شك في أنه يتوقف عن العمل فترة الزوال، وسيكون بوسعهما أن يذهبا إلى بارك ليستريحا قليلاً.

انفتح باب الحجرة لتلوح منه ممرضة.  
- نتائج تحليلاتك بين يدي الدكتور غولدوين يا آنسة بومان،  
اتبعيني من فضلك.

\*

ظلّت جودي تلصق جبينها بزجاج النافذة طيلة الرحلة. تتابعت مناظر نفق المترو أمام عينيها بسرعة مذهلة. لم تعد تعرف فيمَ تفكّر بعد أن توزّعها الشدّو والإنهاك. لا شكّ في أنها ستجنّ. كيف ستفسّر ما تهياً لها من رؤية أمها؟

إنّها لا تمني نفسها بالأوهام، فهي تعرف جيّداً أنّ غريس مات ودفنت منذ عشر سنوات. وكلّ ما رأت لا يعود أن يكون من أثر ذلك المخدر اللعين، ضرباً من الهلوسة التي شوّشت عقلها.

ومع ذلك بدا لها الأمر في منتهى الواقعية. فأمّها تبدّت لها كما هي تماماً في ذاكرتها: في العمر نفسه، والهيئة نفسها، والصوت الحنون المطمئن نفسه. كانت صور هذا اللقاء الغريب تتّعاقب في ذهنها كما لو جرى تبطّئها بينما كان طنين عنيف يتردّد في رأسها على نحو متزايد. وكان ثمة سؤال يلحّ عليها: كيف عرفت هذه المرأة اسمها ولماذا حمتها من الشرطيين؟ لا تملك جودي أيّ جواب، بل أكثر من ذلك لم تكن متأكّدة تماماً مما رأت، لأنّها منذ أن صارت تستعمل المخدرات، لم تُعد متيقنة من شيءٍ.

نزلت الفتاة بمحطة أونيون سكواير واستقلّت المترو المتجه شمالاً. وفي العربية التي ركبتها في طريقها إلى برونكس، خفض أحدهم عينيه ليلمع الأصفاد المتذليلة من رسغها، فدست يدها في جيبها لإخفائها.

راحت تبكي والدموع تسيل على خديها، ولم تستطع كففكتها.  
لم تشعر قطّ بمثل ما تشعر به الآن من ضعف ووحدة.

\*

دفعت جولييت باب مكتب الدكتور غولدواين.

- اجلسني يا آنسة بومان.

جلست أمامه، وقد ظهر بمظهر الطبيب الذي يعرف شيئاً عن مريضه لا يعرفه هو، مما يمنحه سلطة عليه.

سألت جولييت حتى تضع حدّاً لهذه المسرحية.

- ماذا يا دكتور؟

مدّ الطبيب للمرأة الشابة ورقة واحدة: نتيجة التحليلات الطبية.

خفضت جولييت رأسها، لكنّها لم تبصر غير سلسلة من الأرقام المتراقصة أمام عينيها.

- سألت بنبرة تجمع بين الجد والخوف:

- سأموت قريباً؟

- كلا، بالعكس . . .

- بالعكس؟

- إننا نقوم باختبار الحمل لكلّ مريضاتنا اللواتي يكنّ في سن الإنجاب . . .

- و. . .؟

- أنت حامل يا آنسة بومان.

لسنا مصنوعين إلا من أولئك الذين نحبهم،  
ولا شيء غيرهم.

كريستيان روبان

### مستشفى سان ماتيوس

- غير مسموح بالدخول إلى هذه المنطقة يا سيدتي !  
التقت غريس كوستيللو على مكتب الاستقبال بمصلحة الطوارئ،  
واقتربت من الجدول الذي يلخص توزيع مهام الموظفين لتبث عن  
اسم سام، وإذا بحارسين فارعين ينبهانها :  
- هذا المكان مخصص للموظفين !  
كانا يهمنان بالقبض عليها ، وقبل أن يمسكا بتلابيبها لوحت أمام  
أعينهما بشارتها العجيبة .

- أنا من البوليس ! أبحث عن الدكتور غالواي ، الأمر في غاية  
الاستعجال .

بحثت «كوني» في الجدول وقالت :  
- اصعدني إلى الطابق الثاني ، الغرفة 203 .  
صعدت غريس الأدراج أربعة أربعة ، وتوقفت في القاعة التي كان  
ينهي فيها سام تصميم صبي حاول أن يقلد في بيته بعض الحركات

الخطيرة التي شاهدتها في سلسلة جاكاراس<sup>(1)</sup>.  
وما كاد يراها تدخل عليه حتى رفع بصره إلى السماء، لكن  
غريس لم ترك له الوقت لإبداء غضبه:  
- أنا بحاجة إلى مساعدتك يا غالواي.  
تطلع إليها باهتمام أكبر وقد فاجأه طلبها. سألها وهو يومئ إلى  
الخدمات الناتجة من الضربات التي تلقت.  
- لا تشکل خطورة.  
- لكنك تزفين...  
رفعت غريس يدها لتحسس حاجبها وقد علتها الدهشة: كان  
الدم يسيل على صدغها من جراء اصطدام رأسها بالأرض لما ضربها  
الشرطيان، لكن لم يخطر ببالها أنها جرحت.  
ولما أنهى سام علاج الصبي، اقترح عليها قائلاً:  
- اجلسي لأضمد جرحك.  
نزع غريس سترتها وجلست على الكرسي، فتناول سام ضمادة  
وشرع ينظف الجرح.  
- من شجوك هكذا؟  
- شريطيان، لكن ينبغي أن ترى ما فعلت بهما.  
لم يستطع سام أن يمنع نفسه من الابتسام أمام حمية الكبراء  
هذه، وفهم عندئذ لماذا لم يجرؤ روتيلى على البوح بمشاعره لهذه  
المرأة المسيطرة المعتزّة بنفسها.  
- لا داعي لأن تظاهري بالصلابة أمامي.

---

(1) برنامج أثار كثيراً من الجدل عرضته قناة MTV، وهو يقدم ثلاثة أصدقاء  
يقومون في حياتهم اليومية بأعمال خطيرة. (المؤلف)

- حسناً. جئتك لأنني بحاجة إليك، لكن لا تنتظر أن أركع أمامك.

- فيمَ ستفيدك مساعدتي؟

- لكي أعنِ على ابتي.

تغيرت نبرة صوتها بشكل لا يكاد يُلحظ، وتهيأ لسام أنه لمس في صوتها شيئاً من الضعف.

- أرأيت ابتك؟

- كان ذلك بشكل غير مقصود: حاولت أن تنسل مني حقيبتي قبل نصف ساعة.

قال وهو يتنهَّد:

- بالطبع، يا لها من أُسْرَة!

نظرت إليه مؤنثة:

- أتحدث بجد يا غالواي. أنا قلقة حقاً. رأيت في عينيها ذلك

الشيء ...

- قطب حاجبيه:

- ما هو؟

- ... تلك المسحة الحزينة القلقة التي تُرى في عيون المدمنين على المخدرات.

- ولكن كيف أمكن أن تلتقيا صدفة؟

قَضَتْ عليه بتفصيل ظروف لقائهما العابر مع جودي في ذلك المكان، فلم يستطع أن يخفِّي تأثيره.

ثم اقترح عليها:

- لماذا لا تحاولين التحدث إليها؟

تنهَّدت وهي تقول:

- لأنني ميتة يا غالواي. كنت أظن أنك ستفهم هذا الأمر مع مرور الزمن.

فرد وهو يتفحص الجرح بعد تنظيفه:

- يا له من جرح، ينبغي أن يُغرز. سأضع غرزتين.

وبيّنما كان يهوي لوازمه، استرسلت غريس:

- أرغب في أن تساعدني في العثور على جودي وفي أن تُكلّمها.

- ماذا سأقول لها؟

- أنا واثقة من أنك ستجد ما تقول لها.

- ولماذا أنا بالضبط؟

- ... لأنك طبيب وهي بحاجة إلى علاج... ثم ليس لي أحد سواك يا سام. فأنا ميتة بالنسبة إلى الجميع، وعلىي أن أبقى كذلك. لا يحق لي التدخل في حياة الناس مهما كانت الذريعة.

رفعت عينيها إليه. كان يمتزج في نظرتها الأمل بالخوف من الرفض. ولبعض ثوانٍ، تغلبت المرأة في غريس على مفتشة الشرطة، فتأثر سام لهذا الخليط من الصلابة والأئنة، لكن غريس قالت وهي تصرخ:

- آآي! إنك تؤلمني، أتعمد هذا؟

- نعم، أستمتع برؤيتك تتألمين.

- يسعدني إذن أن أمنحك هذه الفرصة ل تستمتع، إلا أنني أنتظر منك الآن جواباً: هل ستساعدني أم لا؟  
ودون أن يجيب سام عن السؤال مباشرة، استرسل في الاستخار:

- أين تقطن ابنته الآن؟

- لو كنت أعلم لما لجأت لك .  
- أنت هي البوليس ، أما أنا ف مجرد طبيب .  
لم تجب بشيء . استغرق في التفكير لبرهة قبل أن يضيف :  
- إن شئنا العثور على جودي ، أظنّ أننا سنكون بحاجة إلى  
أحدهم . . .

قطّبت غريس حاجبيها ، وأخرج سام من حافظة نقوده البطاقة التي  
سلّمه إليها روتيللي ، وقدمها لغريس ، فكانت ردّ فعلها عنيفة :  
- دع مارك بعيداً عن هذه القضية من فضلك .  
- اسمعي ، قلت لي إنك رأيت أصفاداً عالقة بيد جودي . هذه  
جزئية لا يمكن التغاضي عنها . قد يخبر أحدهم الشرطة بذلك ، فيتهي  
الأمر إلى علم روتيللي .

- ليس بالضرورة . أنت تعرف أنهم قهقروه . . .  
فقال سام ملحاً :  
- لو أخطرناه ، أنا على يقين بأنه سيساعدنا بشكل من الأشكال .  
لقد كان مفتشاً بارعاً ، أليس كذلك ؟  
فردّت غريس على الفور :  
- أفضل مفتش على الإطلاق .  
- دعيني أتصل به إذن ، ونحن من جانبنا لن نمكث مكتوفي  
الأيدي .

ظلّت غريس متربّدة ، لكن سام حاصرها .  
- هذا الشخص هائم بك يا كوستيللو ، وأنا أظنّ أنك لا تجهلين  
ذلك .

لم تُجب غريس بشيء ، لكن شيئاً ما برق في عينيها . ليس  
دموعة ، بل مجرد بريق ملوّن بالحنين والأسف .

واصل سام كلامه :

- جعل موتك ، شيئاً ما يخبو إلى الأبد في روتيللي .
- أتفطن أنني لست عالمة بذلك؟ لا داعي لنكون الجراح وإشعاري بالذنب . أذكرك بأنني قُتلت ، وأنا لم أختار مصيري !

نظر إليها سام بإشفاق . ولأول مرة بدت له غريس إنسانة ذات مشاعر . مما لا شك فيه أنها لا تختلف عنه كثيراً ، ولو أنهما التقى في ظروف مختلفة ، لربما نشأت بينهما صداقة وثيقة . وتبادر إلى ذهنه سؤال :

- من قتلك يا غريس؟ أتعرفينه؟

ظلّ السؤال معلقاً في هواء المستشفى الدافئ لبضع ثوانٍ إلى أن انفتح الباب ولاحت منه جانيس فريمان بصحة أحد المرضى .

- ظنت أن لا أحد بهذه الغرفة . . .

فرد سام :

لقد أنهيت ، لكنني بحاجة إلى يوم العطلة الذي طلبته منك .

فقطاعته جانيس :

- لا يخطرن ذلك على بالك ، فقاعة الانتظار غاصة ، ولا داعي لتذكريك بأنك استفدت من نصف يوم بالأمس . . .

- لم أطلب منك يوم عطلة منذ أن التحقت بالعمل هنا قبل عامين !

- ما عليك إلا أن تستمر في مواظبك .

فقال ملحاً :

- الأمر بغایة الأهمية .

- قلت لك لا يا غالواي ، لدى مصالح يجب أن أسرّها على سيرها .

فرغ صبر غريس التي اعتادت على الأساليب الفظة، فتدخلت  
وهي تتطلع إلى رئيسة المصلحة البدنية:  
- أنا ضابطة من بوليس نيويورك. نحن بقصد التحقيق في قضية  
خطيرة وبحاجة إلى مساعدة الدكتور غالواي.

\*

نزلت جودي من المترو بإحدى محطات ساوث برونكس. كانت شفتها ترتعشان وجبينها ملتهباً. كانت تشعر بنفسها ضعيفة بحيث قررت أن تتوجه مباشرة عند سيرروس رغم علمها المسبق بأنها ترتكب حماقة. فهي لا تملك مالاً، وهو لن يتردد في العودة إلى مراودتها على نفسها، لكن لا خيار للمدمن بما أنه يفقد السيادة على نفسه. يصير المرء عبداً للمارد الداخلي الذي يفترس أحشاءه ويعذبه بلا هواة. وهو أمر لا دخل للإرادة والعقل فيه.

عبرت جودي الساحة المحاطة بالبنيات العتيقة ذات الجدران الملائمة بالرسوم والخربيشات، ثم اختصرت الطريق بالمرور عبر مكان خالي مطوق بالأسلام الشائكة. لقد تم تجديد بعض الأماكن منذ بضع سنوات بفضل أموال عمومية، لكن ذلك لم يشمل منطقة هايد بيرس. كان يحلو لوسائل الإعلام أن تطري على الطابع الخالق لهذا الحي، والمجهودات التي يبذلها سكانه لإشاعة الأمن، لكن جنوب برونكس بقي مع ذلك من بين أكثر مناطق البلد فقراً. ومعظم الناس الذين يعيشون فيه لم يختاروا العيش هناك طوعاً. وإذا قيض لك أن تقوم بجولة في المدينة، فحرّي بك أن تختار مكاناً آخر غير هذا. بلغت أمام الجناح الذي يقطن به سيرروس كما لو كانت قوة مغناطيسية تجذبها. على واجهة البناء يظهر رسم قاتم يمثل سجيننا خلف القضبان

ينظر إلى حمامه وهي تطير. وفي أسفله رسمت عباره محدّرة: «غيب الأمل هو الجحيم»، وهو شعار جميل لم يمنع أحداً يوماً من تناول المخدرات . . .

لما اقتحمت جودي السّلّم، التقت بـأحدى زبونات سيروس، وهي امرأة أشبه بالشبح، هزيلة تكسوها الندوب. لعلها كانت أثني في يوم من الأيام، لكن لم يفضلُ من أنوثتها الآن شيء. وسمعت هاتفًا بداخلها يقول: اسمعي، ما زال أمامك وقت لكي تُحجمي عن الصعود . . . كان همساً بغضاً، صوتاً هائلاً يلتذّ بألمها، ولم تستطع إخراسه، لكن الأمر كان هكذا: الشعور بالذنب هو أيضاً جزء من العذاب. وسمعت الصوت يقول: لعلك خائفه، أليس كذلك؟

أجهدت جودي نفسها حتى لا تنصت له. صعدت أدراج السّلّم كالآلة محاولةً ألا تفكّر في شيء. هي لا تملك القدرة على المقاومة على كلّ حال. كانت تشعر بالبرد، برد شديد حتى إنّها تمنت لو تلتف في غطاء وتغطّ في نوم أبيدي، لكن الصوت لم يترك لها مهرباً: أنت مستعبدة، أتدركين ذلك؟ عبدة قذرة مدمنة على المخدرات.

بلغت أمام باب شقة سيروس، وسمعت تلك الموسيقى المزعجة التي كانت من الارتفاع بحيث يهتزّ لها الباب.

تطئين أنك تألمت بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟ لكنك إن دفعت الباب ودخلت، فستقومين بخطوة أبعد في الظلمات.

توقفت جودي لبضع ثوان، كما لو أنها أرادت أن توهم نفسها بأنّها لا تزال سيدة مصيرها.

وسمعت الصوت يأمرها: هيا، ادخلني! لكن الأمر سيكون أدهى مما تتصورين، صدقيني!

وَدَّتْ لو كان بإمكانها أن تضغط على زر لإيقاف آلامها،

وشعرت بساقيها يتآرجحان، واستجمعت قواها ثم طرقت الباب:

- هذه أنا، يا سيروس!

سمعت صوت قفل يُفتح، ثم شعرت بنفسها تغور في الشقة كما لو أنها تسقط في هاوية.

\*

صعد سام وغريس جنباً إلى جنب الشارع المحاذي للمستشفى. كان سام مستغرقاً في مكالمة هاتفية مع روتيللي. كان يريد أن يعرف منه ما إذا كانت لديه أخبار عن جودي.

سأله روتيللي بارتياب:

- فيم يعنيك هذا؟

- لأنني أظنّ أن جودي في خطر.

- مضت عشر سنوات على هذه الصبية وهي في خطر: منذ أن فقدت أمها.

ورانت على نظرة غريس التي كانت تتبع المكالمة مسحة من الحزن.

سأل سام:

- أتعرف مقرّ سكنها؟

- فرّت من ملجاً للشباب المنحرف منذ ستة أشهر. ومنذ ذلك الحين، من المستحيل تحديد المكان الذي تستقرّ به. أبصروها مؤخراً بناحية برونكس ساوث، لكنّني لا أتوفر على عنوان محدد، ومن الصعب القيام بدوريات هناك والاعتماد على الحظ والصدفة للعثور عليها.

- اسمع، كاد شرطيان هذا الصباح أن يلقيا القبض عليها.

- أين؟

- بحبي إیست فيلاج. استطاعت الإفلات منهما، لكنّ أحدها  
كان قد شرع في تصفيتها.

- اللعنة! كيف عرفت كلّ هذا؟

- لا أهمية لذلك، يا روتيللي.

- ألقيتها من جديد؟

- من؟

- تلك المرأة التي تتنكر في صورة غريس، هل لقيتها؟

استفسر سام غريس بعينيه، لكنّها هزّت رأسها، وأومأت له بأن  
يُنهي المكالمة.

- أنا مضطّر لقطع المكالمة يا روتيللي. هاتفني إن توفرت لك  
أخبار.

\*

كان التاكسي عالقاً في زحمة المرور مما جعل صبر جولييت  
ينفد. طلبت من السائق أن يتخلّى عنها أمام موراي هيل. سيكون  
بإمكانها أن تمشي بسرعة أكبر، وسيساعدها الهواء البارد ربما على  
تجليّة أفكارها.

لم تتمكن من تهدئة نفسها وهي لا تزال تحت وقع مفاجأة  
الحمل. فإذا كان قلبها يطالبها بأن تعيش هذه اللحظة السعيدة بكلّ ما  
أوتت، فإنّ عقلها كان يحدّرها من الإغراء في الحماس.

تذكّرت من جديد كلّ ما عاشته في الأيام الأخيرة. هناك لحظات  
شعر فيها بأنّ كلّ شيء في الحياة يتسارع. فهذا الجنين نشاً منذ

أسبوع، في ليلة ثلجية عاصفة، مع رجل لم تعرفه إلا قبل ذلك  
ساعات.

حاولت تنظيم أفكارها. هل هذه هي اللحظة المناسبة للإنجاح؟  
من المؤكد أنها ليست كذلك. لكن، هل هناك حقاً لحظة مناسبة؟  
كانت دائماً تقول في نفسها إن اللحظة المثلثى لذلك هي حين تحصل  
على عمل قار وشقة بملكيتها، وتكون على علاقة برجل. ولكن،  
لماذا لا تتظر نهاية المواجهة بأفريقيا، أو ظهور مسيح جديد؟

كانت مفلسة بالطبع، ولم تكن حياتها نموذجاً للاستقرار. والعالم  
بالطبع مضطرب، والكوكب يرتجح تحت التلوّث، ولكن أيّ معنى  
سيكون لحياة هذا العالم بلا أطفال؟

كان يتردد في ذهنها سؤالان اثنان. هل ستخبر سام بحملها؟ وإذا  
كان الجواب بالإيجاب، كيف سيكون رد فعله؟

كادت سيارة كانت تشق طريقها في الرحمة وقد أطلقت العنان  
لبوقها، أن تدوسها، وأوسعها السائق شتماً. وحتى لا تنتهي مسحوقه  
تحت العجلات، فتّشت في حقيبتها وأخرجت نظارتها الطبية. وما  
كادت ترتديها حتى أبصرت سام في الجانب الآخر من الشارع.

تسارعت دقات قلبها. همت بمناداته والتلويع له لما تنبّهت إلى  
أنّ امرأة ترافقه. لم تميّزها بوضوح في البداية، ذلك أنها كانت تواجهه  
شمس الزوال. تنحّت قليلاً إذن لتلمع غريس بجلاء. بدت لها امرأة  
سمراء طويلة القامة ورشيقّة، تتنعل حذاء طويلاً ذات كعبين عاليين.  
ويظهر ساقها المستدقان من خلال سروال جينز، كما أنها تلبس سترة  
جلدية على مقاسها تماماً، مما يمنحها قدّاً جذاباً ورائقاً. ولكي لا  
يلحظ سام وجودها، أعرضت عن عبور الشارع، وتوارت خلف  
واجهة أحد محلات الكعك.

مَنْ هِيَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ يَا تَرَى؟ أَهِي زَمِيلَتُهُ فِي الْعَمَلِ؟ صَدِيقَةٌ؟  
عِشِيقَةٌ؟

فِي غَضُونِ ثَانِيَةٍ تَبَخَّرَ كُلَّ مَا شَعَرَتْ بِهِ مِنْ بَهْجَةِ الْحَمْلِ،  
لَتَكْتَسِحَهَا كَآبَةً مَفَاجِئَةً.

رَغْمَ مَا بَذَلَتْ مِنْ جَهْدٍ، لَمْ تُسْطِعْ تَحْوِيلَ بَصَرَهَا عَنْ تِلْكَ الَّتِي  
بَدَأَتْ تَعْتَبُرُهَا غَرِيمَتَهَا. كَانَ يَبْدُو كَمَا لَوْ أَنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَهُمَا تَقْوِيمٌ عَلَى  
ضَرْبِ مِنْ الْأَلْفَةِ الْغَرِيبَةِ. كَانَا يَتَحَدَّثَانِ مَعًا بَنْوَعٍ مِنْ الْطَّلَاقَةِ وَالْحَيْوَيَةِ،  
وَفِي لَحْظَةٍ مِنَ الْلَّهَظَاتِ أَمْسَكَتِ الْمَرْأَةُ بِمَرْفَقِ الطَّبِيبِ لِتَدْعُوهُ لِلِّدُخُولِ  
إِلَى أَحَدِ الْمَقَاهِيِّ. وَبِمَا أَتَهُمَا جَلْسَا إِلَى طَاولةِ قَرْبِ الْمَدْخَلِ، كَانَ  
بُوْسِعُ جَوْلِيْسِتَ أَنْ تَوَاصِلَ مَرَاقِبَتَهُمَا مِنْ خَلَالِ الزِّجاجِ.

غَرِيبَةٌ هِيَ الْكِيفِيَّةُ الَّتِي تَسْرُقُ بَهَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ الْأَضْوَاءِ. كَانَتْ  
مَتَّالِقَةً، تَنْطُوْيِ علىْ شَيْءٍ يَعْذَرُ الإِمسَاكُ بِهِ. فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَاتِرِينِ زِيْتا  
جُونِز<sup>(1)</sup>، لَكِنْ دُونَ أَنْ تَفْقَدْ عَفْوَيَّةَ الْفَتَاهُ الْعَادِيَّةِ الَّتِي تَبَعُثُ عَلَى الثَّقَهَ.  
كَانَتْ جَوْلِيْسِتَ وَاثِقَةً مِنْ أَنَّهَا نِيُوبُورِكِيَّهُ حَقِيقَتَهُ عَلَى كُلَّ حَالٍ. تَصَوَّرَتْ  
أَنَّهَا ذَاتُ شَخْصِيَّةٍ كَارِيزِمَيَّهُ قَوِيَّهُ، وَأَنَّهَا مِنْ أُولَئِكَ النِّسَاءِ الْلَّوَاتِي  
يُسْتَطِعُنَ التَّحْكُمُ فِي مَصَائِرِهِنَّ.

وَفِي غَضُونِ لَحْظَةٍ تَسَاءَلَتْ عَنْ سَبَبِ شَعُورِهَا بِذَلِكَ الْغَضَبِ  
وَالْإِحْبَاطِ. رَبِّما لِأَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةُ «أَفْضَلُ مِنْهَا»: أَطْوَلُ وَأَجْمَلُ وَأَكْثَرُ  
رَضَاً عَلَى نَفْسِهَا. هَكَذَا أَيْقَظَتْ رَؤْيَتَهَا مَعْ سَامَ كُلَّ شَكُوكَهَا فِي قَدْرَتِهَا  
عَلَى الإِغْرَاءِ.

أَهِيَ الْغَيْرَهُ؟ إِنَّهُ شَيْءٌ مَؤْلِمٌ عَلَى كُلَّ حَالٍ. تَمَنَّتْ لَوْ تَشَقَّ فِي سَامِ  
وَهِيَ تَعْلَمُ يَقِيْنًا أَنَّ مَا يَنْقُصُهَا هِيَ الثَّقَهَ فِي نَفْسِهَا.

---

(1) Catherine Zeta-Jones مُمَثِّلهٌ بِرِيْطَانِيَّهُ وَلَدَتْ سَنَةَ 1969. (المُتَرَجِّمُ)

لكي تطمئن نفسها فكرت في الرسالة التي سجلها لها، وفي الكلمة التي تركها لها هذا الصباح، وفي الساعات الأخيرة المفعمة بالحب التي قضياها معاً.

لكن كل ذلك لم يستطع تهدئة عذابها.

\*

كان سام وغريس جالسين إلى مائدة قرب النافذة وهم يفكّران فيما يمكن فعله للعثور على جودي.

- إن كانت ابنته تتناول المخدرات، فلا شك أنّها ترددت على مستشفى أو مراكز علاج المدمنين.

- أتظن ذلك؟

- تستقبل مصالح الطوارئ كثيراً من المدمنين فضلاً عن تناولوا جرعات زائدة ومن جاؤوا يبحثون عن الميثادون. بإمكانني أن أراجع سجلات القبول لأنّك ممّا إذا كانوا قد احتفظوا بأثر لزيارة جودي.

- هل لديك الحق في القيام بهذا؟

- نظريّاً ليس من حقّي، لكن بإمكانني أن أقوم ببعض الاتصالات الهاتفية. أعرف أطباء في معظم المستشفيات: أناس تعرّفت عليهم خلال البعثات الإنسانية إلى أفريقيا والبلقان. إنّها تسمح بنسخ علاقات: لن يرفضوا مساعدتي إن ألحّت عليهم.

- حسناً، ولكن ينبغي القيام بذلك على نحو منظم. فقد قال مارك بأنّ جودي شوهدت بحي برونكس ساوث.

- طيب، سأتصل بمصلحة الهاتف بالمستشفى لأحصل على أرقام هواتف مستشفيات هذه المنطقة.

\*

- ألا يوجد أي أثر لجودي كوستيللو؟ أنت متأكد؟ حسناً يا  
أليكس، أشكرك.

أنهى سام المكالمة. إنها المكالمة الخامسة بلا نتيجة. كان يعقد  
أملاً كبيراً على مكالمة أليكس ستيبيل، وهو طبيب تعرف عليه بنينجرا  
خلال حملة التلقيح الأخيرة ضد شلل الأطفال. كان ستيبيل رئيس  
الأطباء المعاونين بمصلحة طوارئ مستشفى مونت كراون، أكبر  
مستشفى ببرونكس، وقد كان سام واثقاً من أنه سيغادر هناك على خط  
يوصله إلى جودي. وقرأ خيبة كبيرة على وجه غرييس، فحاول أن  
يطمئنها:

- سنصل إليها، أنا واثق من أننا سنعثر عليها.  
وليؤكّد لها انخراطه في البحث، هم بتركيب رقم آخر، لكن  
هاتفه رن. ففتح الخط وقال:  
- غالواي.

- أنا جولييت يا سام...  
- أردت الاتصال بك، لكنني لا أتوفر على رقمك. كيف كان  
الفحص الطبي؟

- جيد.  
- أين أنت؟

- في بارك أفنيو. هل بإمكانني أن الحق بك؟ ربّما تغذينا  
معاً...

- اسمعي، تمنيت ذلك، لكنني لا أستطيع. لدينا عمل كثير  
بسبب وباء الأنفلونزا. يسمع الناس التلفزة تتحدث عن أنفلوانزا  
الطيور، فتلتبس عليهم الأمور، وبذلك علينا طمأنتهم. أنا عالق في

مصلحة الطوارئ حتى الثانية بعد الزوال، بعد ذلك على أن أستقبل مرضي.

- أين أنت؟

تردد سام، ولم يكن يرغب في الكذب، لكن الوقت غير مناسب ليحدثها عن غريس كوستيللو. سيحكي لها كل شيء، ولكن ليس الآن، لما سيتأكد بأن جودي لم تعد مهددة.

- أين أنا؟ إنني في الشغل.

- بالمستشفى؟

فأجابها بضيق:

- نعم بالمستشفى.

حدجته غريس بنظرة غريبة، كما لو كانت تحذر من شيء.

- ماذا كنت تفعل لما اتصلت بك؟

- كنت مع إحدى مريضاتي، رضيعة في شهرها السادس.

- ممّ تشكون؟

- من التهاب القصبات. إنه نوع من الالتهابات التنفسية التي تصيب الرضع و... .

- أعرف ما معنى التهاب القصبات. ما اسم مريضتك؟

- آه... مايا. اسمعي، رنة صوتك غريبة يا جولييت. أنت متأكدة من أنك بخير؟

- كلا، لا شيء على أحسن ما يرام.

- لماذا؟

- لأنك تكذب عليّ.

فقال مدافعاً:

- كلا!

فصرخت به وهي توجه ضربتين براحتها لواجهة المقهى:

- أنت تكذب!

انتفضت جميع زبائن المقهى في الوقت نفسه الذي انتفض فيه سام، وراحوا ينظرون إلى النافذة الزجاجية.

كانت جولييت واقفة هناك خلف الزجاج. نظر إليها سام مشدوهاً. همست له بشيء، ومن النظر إلى حركة شفتيها، خمن الرسالة:

(١) I don't trust you anymore –

نهض الطبيب وخرج من المقهى جارياً، لكن جولييت هربت منه. حاول أن يستوقفها:

- انتظري من فضلك!

لكن المرأة اقتربت من الطريق وشرعت تلوح لسيارة أجرة.

- اسمعني يا جولييت من فضلك! أعطيني فرصة لأشرح لك على الأقلّ!

وقفت سيارة أجرة أمام الفرنسية التي اندفعت إلى داخلها دون أن تلتفت لسام. جرى الطبيب في إثر السيارة وهو يطرق زجاج النافذة بلا جدوى. زاد السائق من السرعة فاختفى التاكسي.

قال سام بخيبة:

- اللعنة!

لما عاد أدراجه، رأى غريس تومي بيديها دلالة على عجزها:

- أنا آسفة يا غالواي!

- كفي عن الكلام!

---

(١) لم أعد أثق بك.

كان يهمّ بأن يقول شيئاً لما رأى الهاتف من جديد. أجاب بلهفة  
معتقداً أنّ جولييت هي من تهafته.

- اسمعي يا حبيبي، سأشرح لك كلّ شيء! على كلّ حال،  
فالأمر لا علاقة له بتاتاً بما تخيلت . . .

أجابه صوت أليكس ستيل:

- أنا أصدقك وإن كنت مقتنعاً بأنني لست من ت يريد إقناعه . . .

- اعذرني يا أليكس، اعتقدتكم شخصاً آخر . . .  
قال ستيل متنهاً:

- سيتهي الأمر بالنساء يوماً إلى القضاء علينا.

ردّ سام مؤيداً وهو يحدّج غريس بنظرة قاسية:

- هذا صحيح . . .

- على كلّ حال، إن كان أمر جودي كوستيللو ما زال يهمك،  
فقد عثرنا عليها.

أجاب سام وهو يومئ بابهامه باتجاه غريس:

- حقّاً؟

- أخذ منا الأمر بعض الوقت لأنّنا لم نعالجها هي قبل ثلاثة  
أشهر، بل رفيقها التي تعرضت لمحة. لدى عنوانها إن كنت لا تزال  
ترىده.

فقال سام وهو يخرج قلماً من جيب سترته الداخلية:

- هيا، أمله علىّ!

سجّل على راحة يده العنوان الذي أملأه عليه صديقه، ثم شكره  
 وأنهى المكالمة. لقد استعاد شيئاً من حماسه واقتصر على غريس:

- سيارتي ليست بعيدة من هنا، لكن مع اكتظاظ الطرقات في  
هذه الساعة، حرّي بنا أن نسرع.

مشى سام بخطى ثابتة نحو موقف السيارات بالمستشفى بحيث تجاوز غريس ببعض خطوات. نادته قائلة:

- غالواي، أريد معرفة بعض التفاصيل!
- أي تفاصيل؟
- صدقني إن قلت لك إني ممتنة لمساعدتك، لكنني لن أستطيع بالمقابل أن أقدم لك شيئاً.

فرد سام وهو يقطب حاجيه:

- ماذا تقصدين؟
- أنا هنا من أجل العودة بجوليت معك، ومساعدتك لن تغير من هذا الأمر شيئاً، هل تدرك هذا؟

لزم الصمت لثوانٍ كما لو أنه ما زال لا يصدق هذه الحكاية رغم الحبيبات المشوّشة التي تراكمت. نظرت إليه غريس بحيرة كما لو أن حيويته أبهرتها. ذلك لأن في هذا الرجل إصراراً على عمل الخير مثيراً للانتباه.

قال وهو يرفع ذراعه وينظر إلى ساعته ليُفهم غريس بأن الدقائق محسوبة:

- هيا أسرعي، سنعثر على ابنتك.

\*

التمعت في وجه سيروس ابتسامة سادية. فها هي جودي تستعطفه ليمنحها شيئاً ما، أي شيء: أقراصاً كانت أم «كراك» أم هيروين... فهي لا تملك مالاً، لكن بإمكانها أن تؤدي بطريقة أخرى.

ابتهج باائع المخدرات، ذلك أنه كان متأكداً من أن جودي ستزع  
أمامه يوماً. هذا هو شأن المدمنات: تقفن أمامه في البداية بكبرياء،  
لكنهنّ لـما يسقطن في الإدمان، يعدن إلـيه زاحفات على بطونهنّ،  
تارـكات كرامـتهنـ جانبـاً، مستـعدـات لـتنفيذـ كلـ ما يـطلـبهـ منهاـنـ.

ولعلـ ما أثـارـهـ أكثرـ هوـ أنـ جـودـيـ فـنـةـ جـمـيلـةـ. فـرـغـمـ مـيـلـهاـ إـلـىـ  
الـنـحـولـ بـسـبـبـ ماـ كـانـتـ تـتـناـولـهـ مـنـ سـمـومـ، فـقـدـ كـانـتـ فـاتـنةـ معـ ذـلـكـ.  
لـمـ تـثـرـ الفـتـيـاتـ شـهـوـتـهـ بـهـذـاـ النـحـوـ إـلـاـ نـادـرـاـ. وـلـمـ يـشـعـرـ إـزـاءـ مـعـانـاةـ  
هـذـهـ الفتـنـةـ بـشـفـقـةـ وـلـاـ رـحـمـةـ، ذـلـكـ آـنـهـ كـانـ يـعـيـشـ فـيـ عـالـمـ لـاـ تـحـكـمـهـ  
إـلـاـ القـوـةـ. وـقـبـلـ أـنـ يـنـتـقـلـ إـلـىـ الـأـمـورـ الـجـدـيـةـ، وـدـ أـنـ يـتـسـلـىـ قـلـيـلاـ.  
أـمـرـهـ أـنـ تـجـلـسـ عـلـىـ الـأـرـيـكـةـ وـتـنـزـعـ سـتـرـتـهـ الـفـرـائـيـةـ. وـبـمـاـ أـنـهـ أـطـاعـتـ  
أـوـامـرـهـ بـاـنـقـيـادـ، التـصـقـ بـهـاـ وـأـمـسـكـ بـطـوـقـهـاـ وـمـزـقـ قـمـيـصـهـاـ.

- دـعـيـنيـ أـرـىـ تـخـارـيمـكـ!

أـخـرـجـ الـاعـتـداءـ جـودـيـ مـنـ اـسـتـكـانـهـ. صـرـختـ وـهـيـ تـحـاـولـ  
الـإـفـلـاتـ مـنـهـ، لـكـنـ سـيـرـوـسـ أـهـوـيـ عـلـيـهـ بـقـبـضـةـ مـنـ حـدـيدـ، وـأـمـسـكـ  
بـرـقـبـتـهـ.

- لـاـ تـسـتـعـجـلـيـ يـاـ بـاـبـ-أـوـ-رـاماـ.

شـعـرـتـ بـالـاخـتـنـاقـ، وـحاـولـتـ التـخلـصـ مـنـ قـبـضـتـهـ، لـكـنـ عـيـثـاـ. كـانـ  
الـشـابـ الـأـسـوـدـ يـخـنـقـهـ بـيـدـ وـاحـدـةـ وـهـوـ يـضـغـطـ بـسـبـابـتـهـ وـإـيـهـامـهـ عـلـىـ  
قـصـبـتـهـ الـهـوـائـيـةـ. لـمـ تـعـدـ تـنـنـقـسـ، وـشـعـرـتـ بـدـفـقـ مـنـ الدـمـ يـطـنـ قـرـبـ  
أـذـنـيـهـ. ضـغـطـ سـيـرـوـسـ أـكـثـرـ وـأـحـسـتـ بـأـنـهـ عـلـىـ وـشـكـ الـإـغـماءـ، مـمـاـ  
جـعـلـهـ يـغـتنـمـ الـفـرـصـةـ وـيـحـاـولـ إـسـقـاطـهـ. هـكـذـاـ أـسـقـطـهـ أـرـضاـ وـوـجـدـ نـفـسـهـ  
فـوـقـ ظـهـرـهـاـ فـزـادـهـ ذـلـكـ إـثـارـةـ، لـكـنـ جـودـيـ ظـلـلـتـ تـقاـومـ بـقـوـةـ اـسـتـنـفـدـتـ  
كـلـ اـنـتـباـهـهـاـ.

- اهدئي !

وضع ركبته على عمودها الفقري لكي يشل حركتها ، وهو ما لم يتطلب منه جهداً كبيراً بالنظر إلى أنه كان يزن ضعف وزنها ، ثم لوى ذراعها وسحبه إلى الخلف ، فطرطق شيء جعل جودي تصرخ عالياً من الألم .

صاح بها وهو يهوي عليها بصفعة كافية لتُفقد مصارعاً مُحترفاً وعيه .

ارتطم رأس جودي بالأرض وبدت كما لو أغشى عليها . تصلبت أعضاؤها وتجمدت عضلاتها كما لو أن إغماء تخسيسياً أصحابها . اغتنم سيروس الفرصة لكي يفلّ المنديل الذي يلف رأسها ، وسدّ به فمها . لما استعادت وعيها ، وجدت نفسها مكممة ومكبلة وسيروس ينزل بها السلم وقد حملها على كتفه ككيس إسمنته حقير . ولما بلغ الباحة ، فتح صندوق سيارة لوكسوس آخر طراز ، ورمאה فيه بدون اكتراش ، ثم جلس إلى المقود .

أخرج من جيبه وهو يقود هاتفاً نقالاً ذا لون فضي ثم ركب رقمأً لكي يعلن عن وصوله .  
سؤاله صوت :

- أتتني بما طلبت منك ؟

أجاب سيروس :

- نعم سيدتي .

ثم أنهى المكالمة .

حرّك الشاب يده وهو يكثّر من الألم : ذلك أن هذه البلهاء الصغيرة قد خمسنته حتى أدمنه ، وكشطت بشرته على مدى عشر

ستمترات . كان عليه أن يوسعها ضرباً قبل أن ينال وطره منها . هذا ما تستحقه .

وهو إن كان كبح جماح نفسه فليس رأفة بها ، بل لأنّه يخبيء لها مباحث أخرى .

ثم إن قليلاً ممن دخلوا هذا المكان الذي يقودها إليه عادوا ناجين .



الشّرور التي يتسبّب فيها البشّر تبقى بعدهم،  
بِينما يدفنُ الخير مع رمادهم.

شكسبير

كان سيروس يقود سيارته الرياضية بسرعة البرق بين بناءات هايد بيس. كان يرغب في إنهاء ذلك الأمر بأسرع ما يمكن. لو خَيَّر، لما اختار أن يكون هنا، لكن حين يطلب منك العُقاب خدمة، فحرّي بك ألا تتلَّكَ في القيام بها، على الأقل إن كنت تنوّي تمديد إقامتك هنا . . .

كان اسم العقاب في الحقيقة هو كلارانس ستيرلينغ، وهو يدير جزءاً لا بأس به من تجارة المخدرات في برونكس ساوث، وكان هو مالك معظم شحنات المخدرات التي ينقلها سيروس. كان ستيرلينغ في البداية مجرّد قاتل مأجور، يعيّر خدماته لمن يدفع أكثر، لكنه استغلّ تصفية حسابات مميتة بين عصابتين متنافستين لكي يدخل بدوره عالم الأعمال.

ومع مرور الأيام أكبّته قسوته وطريقته الرهيبة في قتل أعدائه لقب الفوتور (العقاب)، وإن كان لا أحد يتجرّس على النطق به أمامه. ولعله من المؤكد أن العنف يشكل جزءاً لا يتجزأ من هذا النوع من

الأعمال، لكن كلارنس ستيرلينغ كان يضمنه جرعة زائدة من الوحشية.

الواقع أنه كان يعشق التعذيب. وقد بني جزءاً من أسطورته بصلب مروج مخدرات إلى طاولة بلياردو: دق مساميرين كبيرين في رسغيه واثنين آخرين في كعبيه. إلا أن هذه لم تكن هي الفظاعة الوحيدة التي ارتكب، بل تحدث شهود عيان عن ممارسته التعذيب وبتر أعضاء ضحاياه، هذا في الوقت الذي كان يكفي فيه إطلاق رصاصة على رؤوسهم.

ويبدو أن هذا العنف تضاعف في الأيام الأخيرة. كانوا يتهمون هنا وهناك إن العُقاب مريض، وأنه لم يعد في كامل قواه العقلية (رغم أن عقله لم يعرف يوماً معنى الانسجام).

قبل أيام، وبينما كان سيروس ينقل شحنة من الهروين وصلت حديثاً، عبر له ستيرلينغ عن رغبته في العثور على فتاة لمهمة خاصة. لم يكن سيروس يرغب في معرفة ما كان يقصده العُقاب بهذه المهمة، وحرص على ألا يطلب أي تفاصيل، لكن لما جدد ستيرلينغ طلبه في آخر اللقاء، فَكَر في جودي.

عاد إلى الوراء قليلاً لكي يدخل إلى زقاق صغير يطل على صفت من المخازن جرى ترميمها مؤخراً، ثم توقف أمام مرآب وضغط على البوّاق بلطف لكي يعلن عن وصوله، ثم أومأ بيده لكاميرا المراقبة المشتبأة فوق المدخل.

قال في نفسه وهو يسمع جودي تصوّب ركلة للصندوق الخلفي للسيارة: متى ستفتح هذه الباب وننتهي؟ وما هي إلا ثوانٍ حتى انفتح الباب الآلي، فدخلت سيارة لوكسوس نازلة الرصيف المنحدر الذي يقود إلى الطابق التحت-أرضي.

طبق سيروس الأوامر التي تلقاها إذ فتح صندوق السيارة الخلفي، وأمسك بشعر جودي مجبراً إياها على مرفقته.

- أرجوك يا سيروس، لا . . .

- اسكتي !

حاولت جودي أن تخلص من قبضته، لكنها كسرت ترقوتها، وبذلك أصبحت كل حركة مباغة، تزيد من ألماها. عبرا موقف سيارات صغير معتم ثم قادها إلى غرفة طويلة وضيقة حيث أجبرها على الجلوس على مقعد مائل شبيه بالكرسي الذي يستعمله أطباء الأسنان. عندئذ ربط يديها إلى مسندي المقعد قبل أن يكمم فمها بشريط لاصق.

وما إن أنهى مهمته حتى سارع إلى إخلاء الغرفة دون أن ينبس بكلمة.

وعندما هم بإاطفاء النور، ألقى نظرةأخيرة على الفتاة وانقاً بأنه لن يراها مرة ثانية.

\*

أوقف مارك روتييلي سيارته أمام المدخل الرئيس لمكاتب NYPD.

أنذرته حارسة شابة ببرتها الرسمية قائلة:

- لا يُسمح بال الوقوف هنا!

- اسمعي يا بنيني، لن أركن سيارتي هنا فحسب، بل ستحرسينها أيضاً.

صعد بعض الدرجات، لكنه ما لبث أن توقف لما حذرته الشرطية:

- سأطلب نقل سيارتك إلى المحجز .  
عاد أدراجه ، وانتصب أمام الشرطية التي كانت تفوقه طولاً . إنها إحدى أولئك الشرطيات الموظفات حديثاً ، جميلة وذات قوام رياضي ، أقرب إلى الراقصة منه إلى الشرطية كما يتمثلها روتييلي .

- لن تحجزي شيئاً يا بنتي .

- أهو تهديد؟

أجاب روتييلي وهو يُحكم قبضته على عنقها ويضغط بقوة :

- إن خرجمت ووجدت أن هذه السيارة نقلت من مكانها ولو لملمترات ، سأهشم وجهك ، وسأجمع ما يكفي من الدم لأعيد صباغة هذه البناء باللون الأحمر . هل تهديدي واضح بما فيه الكفاية؟  
- أظن ذلك . . .

- ما معنى أنت تظنين؟

فردت الشرطية الحديثة العهد بالمهمة وهي بالكاد تستطيع النطق على مرأى من المارة المذهولين :

- الأمر . . . في منتهى . . . الوضوح .

حرر روتييلي عنقها من قبضته بعنف قائلاً :  
- أعتقد أننا تفاهمنا .

دلف إلى البناء دون أن يلتفت . لم يكن يلبس البزة ، لكن خبرته مكنته من الإفلات من مراقبة موظفي الاستقبال . فضل استعمال السلم على المصعد ، ووصل أخيراً إلى الطابق الذي يوجد به مكتب جاي ديلغاديو مدير دوريات NYPD .

كان روتييلي على معرفة عميقه به ، إذ كانا في بداية مشوارهما المهني مفتشين شابين متآلقين . ثم تفرقت بهما السبل : غار روتييلي في حياة الوحدة والإدمان في حين تسلق ديلغاديو كل أدراج سلم

التراتبية الأمنية بسرعة فائقة. وقد كان يحرّكه طموح سياسي بحيث لم يكن يخفي رغبته في أن يصبح أول عمداء من أصول إسبانية لنيويورك. اجتاز روتيللي كل الحاجز كما لو أنه مكلف بمهمة إلى أن بلغ مكتب صديقه القديم.

*JAY DELGADILLO*

*CHIEF OF PATROL*

توجه رأساً إلى المكتب، لكن الكاتبة حاولت ثنيه عن قصده:

- كلا يا سيدي، غير مسموح بـ . . .

لكن روتيللي لم يعُر كلامها انتباهاً، واقتصر المكتب.

كان ديلغاديلو مستغرقاً في الحديث مع شخصين آخرين، وما إن

رأى روتيللي يقتصر مكتبه بهذه الطريقة حتى بادره بحدة:

- لا يمكن أن تدخل مكتبي بهذه الكيفية يا مارك، أطلب منك

الخروج!

- امنعني ثلاثة دقائق يا جاي، الأمر في متنه الأهمية.

ما كان جاي في ظروف أخرى ليتردد في طلب الحراس، لكنه

خشى ردود فعل روتيللي غير المتوقعة، وفضل عدم المجازفة، فقال

للرجلين:

- هلا تفضلتما بالانصراف أيها السيدان!

ما إن خلا المكتب حتى دارت بين الرجلين محادثة حادة.

- ماذا تريد مني ثانية يا مارك؟

أخبره مارك بقصته باقتضاب شديد، وشرح له بأنه يبحث عن

جودي كوستيللو، وطلب أن يكون أول من يُخطر في حالة العثور

على فتاة مصفحة الرسغ الأيمن.

فأجابه ديلغاديو:

- طلبك مرفوض تماماً! فأنت لست غير شرطي دوريّة يا مارك.  
وبعد الحماقات التي ارتكبت السنة الماضية، لم يُعد من حُقُّك أن  
تطلب أي شيء.

صمت قليلاً ثم أضاف:

- وإن أردت رأيي، عليك أن تحمد الرب على كونك لم تُطرد  
من عملك.

تنهّد روتييلي، وراوده شعور مفاجئ بأن يرتمي على ديلغاديو  
ويهشم وجهه، لكنه فَكَر في جودي، وتمالك نفسه.

قال ديلغاديو وهو يشير إلى الباب:  
- انتهت المقابلة.

عوض أن يتوجه روتييلي إلى الباب، اقترب أكثر من رئيسه  
وقال:

- اسمع يا جاي، السياسة ليست هي الشيء الوحيد الموجود في  
الحياة. أنت أيضاً كنت تعرف غريس، وإذا كانت ذاكرتي لا تزال  
تُسعّني، فقد كنا أصدقاء أنا وأنت . . .

- صحيح أنتانا كنا أصدقاء، لكن قبل أن تصير حثالة.  
- توقف عن هذا يا جاي.

- اسمع يا مارك، أنت إنسان عاجز، وأنا لم أعد أستلطف  
أمثالك. لقد جلبت العار لجهاز الشرطة، ولمّا سيفكرون في تنظيف  
هذا البيت، فستكون أول من سيتخلّصون منه.

وبذل روتييلي جهداً كبيراً من جديد لكي يتمالك نفسه. وفَكَر في  
أن ديلغاديو يحاول أن يدفعه إلى الانهيار. وعوض أن ينتفض، تسمر  
أمام النافذة الكبيرة المطلة على الشارع وقال:

- أترى البناءة المكسوّة بالرخام الوردي هناك؟

- نعم.

- خلفها توجد ساحة صغيرة مبلطة يلعب فيها الأطفال كرة السلة.

فسأل ديلغاديو بضيق:

- وماذا بعد؟

فرد روتيللي وهو يحدق في عينيه:

- لو طرحتنا سلاحينا وشارطتنا هنا، ورحتنا إلى هناك وسوينا الأمر كما يفعل الرجال لنرى من متى القوي ومن العاجز...

أجابه ديلغاديو مستهزئاً:

- نذهب إلى تلك الساحة الصغيرة لتعارك! «كما يفعل الرجال»!

عد إلى رشك يا مارك! أين تحسب نفسك؟ في فيلم؟ لقد عفا الزمن عن هذه الأساليب.

هز روتيللي رأسه:

- تعتقد أن الأمر انتهى لأنك لم تُعد في الميدان، لأنك تلبس بذلات أرماني، ولأنك تتوهم بأنك صرت شخصية مرموقة.

- إنك تثير شفقتني.

- أثير شفقتك؟ حسناً. دعني أذكرك بأمر: أتذكّر يوم استدعينا أنا وأنت بشكل طارئ حين تعرض ذلك الصائغ ببروداوي للسرقة؟

- فهمت مقصودك...

- أتذكّر شعورك لما وضع أحد اللصين سلاحه على قفاك؟ أنا متأكد بأنك لا تزال تذكر هذا، بل واثق من أنك لا تزال تحلم به ليلاً. يومها كنت مسروراً بوجودي معك...

فقال ديلغاديو موافقاً:

- طيب، لقد أنقذت حياتي منذ خمس عشرة سنة لـما صرعت ذلك اللص، لكن لم تقم إلا بواجبك لا أقل ولا أكثر. وإذا كنت تصر على معرفة كل التفاصيل، فلولا تدخلاتي لكنت طردت من عملك منذ زمن بعيد. أظن إذن أنني أديت الدين الذي أدين لك به يا مارك . . .

فقال روتييلي ملحاً:

- لا تزال مدينا بقسط ، وأعدك بأنه سيكون الأخير: إن ساعدتني في هذا الأمر، لن أطالبك بشيء بعده أبداً.  
شبك ديلغاديو يديه وتارجح بلطف على مقعده وهو يتنهّد. وراح يفكّر قبل أن يقول وهو يرفع سماعة الهاتف:  
- حسناً، سأصدر تعليماتي. إن علمت دورية شيئاً عن جودي كوستيللو، سيخبرونك أولاً، وسيتركون لك المجال لكي تصرف.  
- شكراً يا جاي.

- لكن ثمة شرط بالمقابل: أريد أن تأتيني باستقالتك صباح يوم الاثنين. أنت مخير بين الرفض والقبول.  
لم يكن روتييلي يتظر هذا الابتزاز. عليه أن يقدم استقالته! كيف سيعيش إـنـ حرم من عمله؟ هو مـنـ فقد كل شيء تقريباً. إلا أنه تحمل الصدمة دون أن يظهر شيئاً.  
- حسناً، سأتـيك بها.  
- هي وسلاحك وشارتك.

\*

ترك سام إيست هارليم وسار باتجاه جسر تريبيوروث قاصداً برونكس. قالت غريس محذرة:

- إن عثّرنا على جودي، لا تحدّثها عنّي مهما كانت الذريعة،  
مفهوم؟

- سيكون أمراً صعباً... .

- أعلم، لكن تدبّر أمرك لكي تقنعها بالخضوع لعلاج الإدمان.  
حرّك سام رأسه:

- لكن كيف سأبّرر تدخلي؟ فجودي مراهقة، وهي لن تقبل أن  
يتدخل أجنبى في حياتها لكي يلقنها دروساً في الأخلاق.

- إذا تعلق الأمر بك أنت، فإنها ستقبل. فأنت تملك تلك القدرة  
على كسب الثقة، وهو أمر تعرفه.

حجبت الغيوم في الخارج ضوء الشمس، وكانت بعض ندف  
الثلج تتتساقط هنا وهناك على زجاج السيارة الواقي. ضغطت غريس  
على أحد الأزرار الموجودة في المسند لكي تشعل تدفئة المقعد. كان  
صالون السيارة الرباعية الدفع يوحى لها بيخت فاخر يتجاوز فيه  
الخشب والجلد والتكنولوجيا العالية. وقرأت للمرة العشرين بتوجّس  
العنوان الذي يفترض أن ابنتهما تقطن فيه.

- اسمع يا غالواي، العنوان الذي بين أيدينا يقع بهايد بيرس. إنه  
مكان قد يكون خطيراً، لهذا أطلب منك أن تحفظ بهذا.  
حول سام عينيه عن الطريق لحظة ليُلاحظ بأنّ غريس تمدّ له  
مسدسها.

- كنت أظنّ أنني صادرت مسدّسك.

- الشرطي الحاذق يحمل معه دائماً مسدساً احتياطياً. هيّا خذه.  
رفض الطبيب وهو يقول:  
- أكره الأسلحة.

- كفّ عن مواعظك، حين يُستعمل السلاح في محله، يستطيع أن ينقد أرواحاً.
- لن تقنيعني بذلك. آخر مرّة استعملت فيها السلاح، انتهت بشكل سيئ.
- ما معنى ذلك؟
- قتلت شخصاً.

اندهشت غريس، ولاذت بالصمت لبرهة، ثم أدركت أنّ سام صادق فيما يقول.

- متى كان ذلك؟
- قبل عشر سنوات، بيدفورد-ستويفيسوند.
- أعرف هذا الحي.
- هناك نشأت مع فيديريكا. كانت مدينة بالمال لأحد مروجي المخدرات، شخص يدعى داستفاس. كان يضرب مواعيده بأحد دور تناول الكراك.
- وأنت من ذهب للقاءه . . .
- جمعت جزءاً من المبلغ، وكنت أعتقد بأنّ ذلك سيهدئ من غضبه، لكنني كنت قد استعمرت سلاحاً من أحد الأصدقاء لاستعماله في حالة ما إذا . . .

فخمنت غريس:

- صرعته إذن؟
- كلا.
- لكني قلت لي . . .
- ليس هو من قتلت.
- من إذن؟

شُغل سام الوامض وقد لزم الصمت. وشعر بنفسه فجأة مضطرباً  
ومتوتاً، كما لو أنه يعيش المشهد من جديد.

- لما دخلت إلى منزل الكراك ذاك، لم أجد أحداً بانتظاري.  
كان داستفاس يتشارجر مع أحد الزبائن: شخص يرتدي قبعة رأيته من  
الخلف فقط. ارتفعت حدة الكلام بين الرجلين، فأخرج داستفاس  
سلاحه.

- وماذا فعلت أنت؟

- كنت أعلم أنه سيطلق النار، لردعه إذن هددته بسلاحي. كان  
التوتر على أشده. أغلقت عيني، وانطلقت الرصاصية. لم أعد أذكر  
حتى ما إذا كنت قد ضغطت على الزناد حقاً. كل ما أعلمه هو أنني  
لما فتحت عيني، لم يكن داستفاس هو من قُتل، بل الرجل الآخر.  
ذلك أن داستفاس احتمى به.

- إنها حكاية رهيبة.

- لا يكاد يمرّ يوم دون أن أذكرها. إن هذه الحادثة دمرت حياتي  
بمعنى من المعاني. لن أنعم بالسكينة أبداً بسببيها...

فتح النافذة لكي يتنفس هواء نقياً، ثم أضاف:

- لهذا لا أرغب في سلاحك.

- أفهمك يا سام، أفهمك.

\*

كانت جودي ترتعش من الخوف وهي غارقة في ظلام دامس.  
حاولت أن تخلص من قيودها، لكن سيروس كان قد أحکمَ تكبيلها  
بسنك حديدي أخذ يغور في لحمها كلما قامت بحركة للتخلص منه.

كما أن الكمامـة كانت تقطع أنفاسها وتمنـعها من الصراخ . وحـتى لو  
صرخت ، فمن سيسـمعها؟

حاولـت أن تستعيـد أنفـاسـها لـمـا سـمعـت وـقـعـ أـقـدامـ، وـعـبـرـتـ  
جـسـدهـا قـشـعـرـيرـةـ. كـانـتـ الخطـوـاتـ تـقـتـرـبـ، كـماـ لـوـ أـحـدـاـ كانـ يـنـزـلـ  
الـسـلـمـ الـحـدـيـديـ. وـصـلـتـ جـودـيـ بـكـلـ ماـ أـوتـيـتـ مـنـ خـشـوـعـ لـكـيـ لاـ  
يـنـفـتـحـ الـبـابـ، لـأـنـهـاـ كـانـتـ تـعـلـمـ بـأـنـ الشـخـصـ الـذـيـ سـيـدـخـلـ لـاـ يـمـكـنـ  
إـلاـ أـنـ يـؤـذـيـهـ.

سـُـمـعـ صـرـيرـ، وـأـضـيـئـتـ الغـرـفـةـ بـضـوءـ خـافـتـ صـادـرـ عنـ مـصـبـاحـ  
زـجاـجيـ مـغـبـرـ، وـلـاحـ رـجـلـ فـيـ فـتـحـةـ الـبـابـ وـلـاحـ لـهـ طـيفـهـ الطـوـيلـ  
الـأـعـجـفـ. شـعـرـتـ بـالـدـمـ يـتـجـمـدـ فـيـ عـرـوـقـهـ. تـقـدـمـ الرـجـلـ نـحـوـهـاـ. كـانـ  
مـفـتـولـ الـعـضـلـ رـغـمـ نـحـالـتـهـ. وـكـانـ حـلـيقـ الرـأـسـ فـاتـحـ الـبـشـرـةـ، تـبـدوـ عـلـىـ  
عـنـقـهـ الطـوـيلـ الـعـارـيـ - وـهـوـ سـرـ تـلـقـيـهـ بـالـعـقـابـ - بـعـضـ الـأـوـشـامـ.  
كـانـتـ جـودـيـ، شـائـنـهـاـ شـائـنـ مـعـظـمـ سـاـكـنـةـ الـحـيـ، تـعـرـفـ سـمعـتـهـ،  
لـكـنـهـاـ لـمـ تـعـتـقـدـ يـوـمـاـ بـأـنـهـاـ سـتـصـادـفـهـ فـيـ طـرـيـقـهـ. مـاـذـاـ يـرـيدـ مـنـهـاـ  
رـاحـتـ تـجـيلـ حـدـقـتـيـهـاـ فـيـ عـيـنـيـهـاـ كـحـيـوانـ يـبـحـثـ عـنـ مـهـرـبـ، لـكـنـ  
الـغـرـفـةـ لـمـ تـكـنـ تـحـتـويـ إـلاـ عـلـىـ المـقـعـدـ الـذـيـ قـيـدـتـ إـلـيـهـ وـطـاـوـلـةـ.

كـانـ سـتـيـرـلـينـغـ يـحـلـ حـقـيـبةـ حـدـيـدـيـةـ وـضـعـهـاـ عـلـىـ الطـاـوـلـةـ، ثـمـ  
اقـتـرـبـ مـنـ المـراـهـقـةـ وـحـدـجـهـاـ بـنـظـرـةـ ثـاقـبـةـ. كـانـ بـشـرـتـهـ الـبـيـضـاءـ الـمـرـقـطـةـ  
تـلـعـ كـالـصـدـفـ، فـتـجـعـلـهـ يـبـدـوـ كـكـائـنـ أـثـيـريـ.

وـدـتـ لـوـ تـصـرـخـ، لـكـنـ حـنـجـرـتـهـاـ لـمـ تـعـدـ تـقوـىـ عـلـىـ النـطـقـ.  
وـبـخـلـافـ مـاـ كـانـ مـتـنـظـرـاـ، فـكـ العـقـابـ كـمـامـتهاـ:  
- هـيـاـ: اـصـرـخـيـ، اـبـكـيـ، هـذـاـ يـمـتـعـنـيـ . . .  
حـوـلـتـ بـصـرـهـاـ، وـرـاحـتـ تـتـحـبـ.

فتح كلارنس الحقيقة ليثبت من محتواها: تشكيلة متنوعة من المحاقن والقناei والمباضع المتباعدة الأحجام.

قضى لحظة في البحث داخل الحقيقة، ولما استدار كان يحمل في يده محقنة مليئة بمحلول مائل إلى الصفرة.

راحت جودي تتخطى لعلها تفلت منه، لكن عبئاً. ثبت بسهولة رسغها، وغرز الإبرة في أحد عروقها البارزة وهو يقول:

- تريدين المخدر؟ حسناً، ستحصلين عليه . . .

ثم ضغط على المكبس بعنف.

وشعرت جودي فجأة بفتور مقاومتها وأنها لم تُعد تحكم في نفسها. وأحسست بألم شديد أشبه باحتراق قرب قلبها. مالت برأسها إلى الخلف فبدا لها السقف يدور كالدوامة بسرعة جنونية.

ثم أغمي عليها.



مصاصو الدماء محظوظون: فهم يتغذون على الآخرين. أما نحن، فنضطر إلى أن يأكل بعضنا بعضاً.

مقططف من فيلم «باد ليوتنان» لأبيل فيرارا.

فتحت جودي عينيها بصعوبة. لم تميز في البداية غير غبار نار كثيف وساطع يدور حولها، كما أنها سمعت ضوضاء أيضاً: صرخ أطفال أشبه بالصرخ الذي ينبعث من ساحة مدرسة. وضعت يديها على عينيها لتحميهما من الضوء الشديد ثم أخذت تريح أصابعها الواحد تلو الآخر، وكان أول ما أبصرت هو قوس ساحة واشنطن. كيف حطت بهذا المكان جالسة على مقعد منزوي في قلب غرينويتش فيلاج؟ نظرت إلى ساعتها: لم يكن قد مضى أكثر من نصف ساعة على انتهاء العقاب عليها. حاولت الفتاة الوقوف، لكنها ما لبثت أن أحجمت عن ذلك. شعرت كما لو أن مشدداً يضغط على صدرها، هذا فضلاً عن فقرات عنقها التي تؤلمها.

حاولت تحريك رأسها، لكنَّ المما شدیداً أعاد حركتها، وسرى إلى كتفها فتأوهت. وشعرت بقشعريرة تسري في كل جسدها، وسمعت عظامها تتطقطق كالزجاج. وضفت يداً مرتعشة على جذعها:

لماذا تشعر كما لو أن ستة أصلاء أو سبعة مكسورة؟ فتحت سحاب سرتها الفرائية بمهل، فوجدت أن ما يشبه سترة نجاة تشدّ خصرها وصدرها. لماذا ألبسوها هذا الشيء؟ مضى وقت طويل قبل أن تستوعب ما وقع لها، وذلك لما أدخلت يدها في جيبيها فعثرت على هذا التحذير المكتوب على بطاقة :

One move: you BLOW

One word: you BLOW

Never forget I'm WATCHING YOU<sup>(1)</sup>

فتحت من جديد معطفها وتفحصت الشيء الذي يحيط بصدرها: لم يكن سترة نجاة، بل حزاماً ناسفاً.

\*

لقد فهمت!

كان العقاب جالساً إلى الشاشة وهو في منتهى الانتشاء. كان باستطاعته أن يراقب على حاسوبه كلّ ما يقع بساحة واشنطن بفضل شبكة كاميرات الويب المثبتة في أرجاء الحديقة. قسم شاشته إلى أربعة مستطيلات: ثلاثة تُظهر الحديقة من زوايا متباعدة، وواحد مصوّب على جودي.

مرر أصبعه بلطف على زر الصاعق البرتقالي الموصول بهاتفه المحمول، وشعر بالرعشة لمجرد لمسه.

---

(1) حركة واحدة وتنفجرين  
كلمة واحدة وتنفجرين  
لا تنسِي أنني أراقبك.

فكلّ شيء سيتفجر، ذلك أن العبوة الناسفة المثبتة على جودي تكون من كيلوغرام من تي إن تي مضاد إلى قطعاً معدنية، وسيؤدي تفجيرها إلى مجرزة مروعة. وما أوحى له بهذا هو ما وقع بموسكو قبل شهر لما فجرت اتحارية نفسها بالمترو... أعلنوا في التلفزة عن عشرين قتيلاً وأكثر من ستين مصاباً. كان يأمل في أن يوقع أضراراً أكبر من ذلك. سيقام بعد عشرين دقيقة العرض المسرحي الظاهري الأسبوعي أمام النافورة، ذلك الحفل الذي يحضره دائماً كثير من الناس، وهو بذلك يسمح بارتکاب مذبحة رائعة!

لطالما فكر بأن أفضل طريقة لامتلاك شيء هي تدميره. كان بإمكانه طبعاً لا يتمنى وأن يفجر العبوة فوراً، لكنه فضل التمهل قليلاً لكي يستمتع أكثر ب فعلته، ويُسقط أكبر عدد من الضحايا. كان مولعاً بمثل لحظة الانتظار هذه، حيث يسود الهدوء الذي يسبق التفجير.

قام ببعض نقرات على الفارة حتى يُظهر وجه جودي مكبراً ويستمتع بارتاعتها. فتَّه ضعف هذه الفتاة، وما تبذله من جهد لكي لا تهلك، لكنه شعر بأنها على وشك أن تنتهي. لقد مر كل شيء على أحسن ما يرام، غير أن عليه أن يظل حذراً، ومرر أصبعه من جديد على الصاعق.

عليه ألا يتأنّث كثيراً.

\*

تسلى أحدهم بتكسير كل أزرار الأجراس الموجودة بممر الطابق العلوي من العمارة، وبذلك اكتفى سام بالنقر على باب الشقة. سمع وقع خطوات ثم صوت تذمر فأدرك أن أحداً يراقبه عبر الكوة.

صاح به صوت من وراء الباب:

- اذهب إلى حال سبيلك!

تفحّص سام القفل بعناية ليلاحظ بأنّه سبق كسره .  
فقال قاصداً طمأنة مخاطبه :

- لست لصاً ولا رجل شرطة .

سمع القفل ينفتح ولاح له وجه مقطّب في فتحة الباب : إنها بوردي ، شريكة جودي في الشقة . كانت الفتاة ترتدي لباساً قصيراً : سروالاً قصيراً مثيراً وقميصاً وردّياً يكشف عن سرتها .

- ماذا تريدين؟

- اسمي سام غالواي ، أنا طبيب وأريد مقابلة جودي .  
أجبته بوردي وقد ندمت على فتح الباب :  
- غير موجودة .

رد سام وقد أدخل رجله إلى فتحة الباب ليمنعها من إغلاقه :  
- أرجوك ، إنني أريدها لأمر في غاية الأهمية .  
- ماذا تريدها؟

- كلّ ما أريد هو أن أساعدها .  
- ليست بحاجة إلى مساعدتك .  
- أعتقد أنّها بحاجة إليها .

- هل لديها مشاكل؟  
- إنّها تتناول المخدرات ، أليس كذلك؟  
- قليلاً . . .

حدّق سام في عيني بوردي . كانت عيناهما حزينتين وجامدتين ،  
ملطختين بالمسكارا .

- اسمعي ، أعلم أنّك دخلت المستشفى مرّتين بعد أن تناولت  
جرعات زائدة من المخدرات ، وأنّ جودي هي من حملتك إلى

المستشفى. لقد أغاثتك لمّا كنت بحاجة إلى الإغاثة، واليوم جاء دورك لتساعديها. كلّ ما أطلبه منك أن تقدمي لي عنواناً يمكن أن أثر عليها فيه.

ترددت بوردي

- إنّها تردد هذه الأيام على سيروس . . .

- سيروس؟

- هو مزودنا. سأسجل لك عنوانه، لكن لا تُقل له إنّي أنا

من . . .

- أعدك.

خطّت بوردي بضع كلمات على ظهر قسيمة خصم، فشكرها سام ومدّ لها بطاقة زيارة كتب عليها عنوانه بالمستشفى.

- إن فكرت يوماً في الانقطاع عن المخدرات، زوريني، أستطيع مساعدتك.

لكن بوردي رفضت تسلّم البطاقة.

- ألديك عشرين دولاراً عوضها؟

أجاب سام بتذمّر بسبب تصرف الفتاة:

- كلا، آسف.

كان سام يشعر بالذنب في كلّ مرّة يرى فيها أناساً يعيشون في البوس والفاقة، ويؤثّب نفسه على فشله في مساعدتهم. كان يتمنّى لو أّنه يستطيع إنقاذ كلّ الناس رغم علمه باستحالة ذلك. وقد كانوا كثيراً ما يسخرون منه في المستشفى بسبب هذا النزوع، لكنّه كان يعلم بأنّ ذلك يشكّل أيضاً نقطة قوّته وتوازنه. كان قد نزل بضع درجات لكنّه لم يستطع تمالك نفسه فعاد أدراجه:

- انتظري!

سحب سام ورقتين من حافظة نقوده وطواهما واضعاً داخلهما بطاقة زيارته بحيث لو رغبت بوردي في الورقتين تحتم عليهاأخذ البطاقة معهما.

أمسكت بما مدد لها وصفقت الباب دون أن تنبس.

رجعت بوردي إلى الصالون وعادت إلى ما كانت فيه: مشاهدة الكلمات على التلفاز، لكن ليس قبل أن تعرج على المطبخ لكي تخلص من البطاقة في القمامنة، وحشرت الورقتين بين لحمها ولباسها الداخلي الضيق. بإمكانها أن تقتني بهذا المبلغ جبتين أو ثلاثة تأخذها في سفر بديع . . .

لحق سام خلال ذلك بغريض التي ظلت تنتظره وقد أستدلت ظهرها إلى غطاء محرك السيارة، مستعدة للتدخل في حالة الخطر. سأله بقلق:

- ماذا؟

- جودي غير موجودة هنا، لكتني عثرت على عنوان آخر.  
اصعدي، سأحكى لك . . .

كانت بوردي ممددة بشكل منحرف على الأريكة، رأسها إلى الأسفل وذراعها مشبوكين على شكل صليب حتى تتغلغل الموسيقى أكثر في أعماقها. وفجأة قادها وميض من الصفاء لا تعلم مصدره إلى العودة إلى المطبخ من جديد، وراحت تفتّش في القمامنة عن بطاقة زيارة سام، وعلقتها على لوحة الفلبين الموجودة بجوار الثلاجة. قد أحتجها يوماً...



كانت جودي تتوجه من القيام بأدئي حركة وهي تسمع قلبها يرطم بالمتفجرات. وكانت ركباتها تصطكان وتشعر كما لو أنها تسقط في هوة سحيقة.

كانت تبدو لها الحياة قبل ساعات يائسة وعبثية، وفُكرت في غير ما مرة بأنّ الموت قد يكون هو الخلاص، لكنّها في هذه اللحظة، لم تكن واثقة إلا من شيء واحد هو أنها لا ترغب في الموت. إنّ الرحيل بهذه الكيفية المفاجئة، في هذه الظهيرة الشتوية يجعل قلبها ينخلع. مالت برأسها إلى الخلف وهي في منتهى الاضطراب لعلّ السماء اللامتناهية تهدئ من روعها. ارتطمت ندفة قطنية بوجنتها وتحولت إلى دمعة حارقة.

نظرت من فوق المقعد حولها دون أن تتحرّك. ويفعل الذعر الذي تملّكها، صارت تدرك كل شيء بحدّة قصوى، كما لو أنها تتحدّ بكلّ من في الحديقة.

تقع ساحة واشنطن في أحد أجمل أحياي مانهاتن. فعوض ناطحات السحاب، توجد عمارات صغيرة أنيقة مبنية بالقرميد الأحمر. وبما أنّ أعياد الميلاد كانت على الأبواب، ازدانت الأشجار والشرفات بشرائط من المصايد الكهربائية في هيئة ملائكة ونجوم.

رغم الثلج، كانت مماثلي الحديقة آهله بجماعات من الطلبة. ذلك أنّ هذا المكان كان من أكثر الأمكنة استقطاباً لطلاب جامعة نيويورك التي كانت العديد من بناياتها تحتلّ مساحات بمحاذاة الحديقة. وقد كان بعض الطلبة يتدرّبون على إحدى المسارحيات بينما راح آخرون يلعبون الفريسيبي (الصحن الدوار) أو الرولر أو ألعاب الخفة.

بل إنّ العديد منهم أخرجوا آلاتهم الموسيقية ومضوا يتحفون

المارة بمعزوفاتهم رغم البرد. فهم يفضلون العزف هنا عوض العزف بين جدران الشقق الضيقة. أما في غرب الحديقة فنُصبَت موائد خشبية ومقاعد لاستقبال لاعبي الشطرنج، وراح بعض المولعين باللعبة يتابعون أشواط مقابلة حامية تجمع بين يهودي عجوز يعتمر الكيبا وبطل ناشئ.

كان ثمة أيضاً أمهات تسوين أو شحة أبنائهن، وتعذلن قبعاتهن الصوفية قبل أن تتركنهم يركضون خلف السنابج.

إنَّه الطابع الحقيقي للحياة في مدينة نيويورك، حياة تتسم بالتعدد العرقي والثقافي، بحيث يخيل للمرء أنَّه أمام عالم طوباوي تسوده الأخوة.

كانت جودي تنظر لكلَّ هذا بتعاطف لم يساورها من قبل. على المقعد المجاور جلس عشيقان راحا يقتسمان كعكة وهما يتبدلان القبل. نظرت إليهما بانفعال: فهي ستموت دون أن تعرف معنى العشق.

وتعالت فجأة أصوات جماعة من الطلاب كانوا ينتظرون بداية المسرحية قرب النافورة الوسطى، إذ راحوا ينشدون أغنية ليوار كوهين «هاليلويا» بطريقة جيف باكلبي. وما لبث كثير من المارة أن تحلقوا حولهم مفتونين بجمال الإنشاد، فخيّم على الحديقة لبرهة شعور بالمودة والصفاء. إثر ذلك أوقف خطيب يحمل الإنجيل في يده المتفرجين لكي يعلن لهم عن وشك وقوع كارثة.

لكن لا أحد أبه بنبوته . . .

\*

كان مارك روتيلاي يتوجَّل بميدتاون متظراً، دون أن يكون واثقاً

من ذلك، اتصالاً بالراديو يخبره بخيط قد يوصله إلى جودي. لم يكن قد شرب شيئاً طيلة الصبيحة، ذلك لأن ديلغاديو كان سيشعر برضاءً بالغ لو رأه ثملاً، فقرر ألا يمنحه هذه الفرصة. إنها مسألة كrama.

إلا أنه شعر مع ذلك، قبل بعض دقائق بارتعاش متزايد في يديه. دون أن يستطيع التحكم في نفسه وجد رجله تدوس بقوة على دواسة الكواكب لتتوقف السيارة أمام متجر خمور. لا داعي للحلم: ليس هذا هو اليوم المناسب للتوقف عن الشرب.

ولج المتجر ثم خرج محملاً بزجاجة فودكا ملفوفة في ورق كرافت. انتظر إلى أن امتطى السيارة لكي يشرب الجرعة الأولى. لسع الكحول لسانه وحنكه وحلقه قبل أن يوقد شعلته المبهجة في بلعومه ثم في سائر جسده. وقد كان روتييلي يدرك بأنّ هذا الشعور لم يكن غير ابتهاج خادع، لكنّ هذا السم كان يسمح له أن يكون حاضر البديهة متوبتاً، على الأقل على المدى القصير. ورغم شعوره بالحزن والذنب، تناول جرعة ثانية، فلاحظ برضاءً أن يديه توقفتا عن الارتعاش.

شعر بنفسه متصدعاً من الداخل ومتورماً من الخارج. يخيل لمن يراه أنه رجل قوي جلود، لكنه كان في الحقيقة يعكس ذلك تماماً. إذ كلّما زاد انحرافه في العمل إلا وزاد شعوره بأنّ نفسه طافحة بمشاعر لا يعرف كيف يسيطر عليها.

إنّ عمل الشرطة لا يسمح لمزاوله برؤية الجوانب الإيجابية في الإنسان. وصار يبدو له في كثير من الأحيان أنّ الواقع لم يكن كما كان يلزم أن يكون، وهذا هو ما يدفعه إلى الكحول. يفعل ذلك لكي يشعر بنفسه خارج العالم، ويستطيع تقبّل المأساة ومظاهر البوس المحيطة به.

لما كان يشتغل مع غريس، كانت حياته أهون. كان التفاهم القائم بينهما يساعدهما على التغلب على الجوانب الشاقة في المهنة. وقد كانت غريس موهوبة في هذا الجانب: كانت تضفي على حياتهما اليومية بريقاً خاصاً، وتضفي المعنى على الأشياء بسهولة، هذا في الوقت الذي كان فيه هو دائم الكآبة، وهي كآبة لا تزال تلازمه إلى الآن.

لقد تركت غريس فراغاً في حياته يزداد شعوره به كل يوم. ولما يكون ثملاً أحياناً، يبلغ به الأمر إلى حد إقناع نفسه بأنها لا تزال حية، لكن هذا لم يكن لي-dom طويلاً، إذ سرعان ما يعود إلى رشده، فيضاعف ذلك من ألمه.

وبينما كانت هذه الفكرة تجول في خاطره، أعادته خشخاشة الراديو إلى الواقع:

- الضابط روتيلى؟
- أنا هو.
- أظن أننا نجحنا في تحديد مكان وجود جودي كوستيللو...

\*

ركن سام سيارته أمام حاجز عمارات السكن الاقتصادي، لكنه ترك محرك السيارة مشغلاً. أخلى الثلوج المتتساقط بكثافة الشوارع، وجعل الحي يبدو كما لو أن سكانه هجروه. نصحته غريس مرة أخرى بتوكّي الحذر، فقابل النصيحة بهزّ كتفيه.

قالت ملحّة:

- اسمع يا غالواي، إننا في قلب برونكس، وأنت ستقابل مرقج مخدرات. إنه أمر محفوف بالمخاطر!

- أعلم ذلك.

- احذر إذن، فسيروس هذا ليس من النوع الذي ينبغي الاستخفاف به، مفهوم؟

. Yes, sir -

صمتت غريس قليلاً، ثم قالت وهي مستغرقة:

- كنت أتساءل عن شيء . . .

- ما هو؟

- أمات مروج المخدرات الذي كان يهدّد زوجتك؟

- نعم.

- كيف؟

فتح سام باب السيارة، فاندفع بداخلها هواء بالغ البرودة.

- إنّها قصة قديمة ليس هذا وقت سردها . . .

غادر السيارة دون أن ينطق بكلمة، وراحت غريس تنظر إليه حالمـة وهو يبتعد، ثم لحقت به لما صار على بعد بضعة أمتار:

- انتظـر يا سـام.

أخرجـت سلاحـها وأـزالت شـاحـنه ثمـ مدـتهـ لهـ منـ جـديـدـ.

- إنهـ فـارـغـ. لـنـ تـقـتـلـهـ، لـكـنـ قـدـ يـفـيدـكـ فيـ إـخـافـتـ. . .

قاطـعـهاـ الطـيـبـ قـائـلاـ:

- لاـ دـاعـيـ لـلـإـلـحـاحـ مـنـ فـضـلـكـ! لـكـلـ أـسـلـوبـهـ.

فـأـجـابـتـهـ بـضـيقـ:

- حـسـنـاـ، اـتـرـكـ يـقـتـلـكـ إـنـ كـانـ هـذـاـ مـاـ يـرـضـيـكـ.

دخلـ سـامـ إـلـىـ الـعـمـارـةـ الـأـوـلـىـ لـكـنـهـ تـرـكـهـ فـورـاـ: كـانـ ثـمـةـ شـجـارـ مـسـتـعـرـ بـيـنـ الـجـيـرانـ فـيـ الـدـرـجـ. فـغـرـيسـ مـحـقـقـةـ عـلـىـ كـلـ حـالـ: لـاـ دـاعـيـ لـإـبـدـاءـ الـبـسـالـةـ وـتـلـقـيـ طـعـنةـ طـائـشـةـ وـالـمـوـتـ فـيـ مـكـانـ قـدـرـ كـهـذاـ.

استغرق العثور على عنوان سيروس وقتاً بسبب صناديق الرسائل المنزوعة من مكانها. لم يسأل أحداً عن الطريق إلى الشقة؛ ذلك أنه أمضى طفولته في حي شبيه بهذا، وكان يعلم أنه لا يمكنه الاعتماد إلا على نفسه. ولما وصل إلى باب الشقة، قرع الجرس مرات عديدة، لكن لا أحد فتح الباب رغم صوت الموسيقى المتبعة من الداخل الذي يضم الآذان. طرق الباب إلى أن انتصب أمامه شاب أسود، ورشه بنظرة عدائية.

- ماذا تريد يا رجل؟  
- أنت هو سيروس؟  
- ربّما.

- أبحث عن جودي كوستيللو. أهي معك؟  
فأجابه سيروس بفظاظة:  
- لا أعرفها.  
- لا تهزا بي، أنا أعرف أنك تبعها قداراتك.  
- اغرب من هنا وإلا هشمت وجهك. أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

هم بأن يغلق الباب، لكن سام اعترضه برجله بحركة سريعة:  
- قل فقط أين توجد يا سيروس.  
لكن مروج المخدرات لم يكن مستعداً للتعاون معه. عاد إلى الخلف ورفع رجله ثم وجه ركلة قوية لسام قذفته ليرتطم بجدار الممر.

اللعنة! اغرب!  
شتمه وهو منتشر بتطبيق ما تلقنه في حصص الكيكوبكسينج، ثم صفق الباب خلفه.

نهض سام واقفاً وهو يشعر بالإهانة وبألم حاد في يده. لقد أصابته الركلة في الكبد، فأحسّ بما يشبه الاختناق. وسمع وقع أقدام على الدرج.

بادرته غريس ساخرة:

- يخيل إلي إذن أن أسلوبك بلغ حدوده.

رد سام وهو ينفض الغبار عن معطفه:

- إنه لا يؤتي أكله دائمًا.

- بما أننا مستعجلين، سنستعمل أسلوبي إن سمحت.

- لست أعترض.

قالت وهي تُخرج سلاحها من غمده:

- اعذر رعونته.

وقفت أمام الباب وأطلقت طلقتين متقاربتين فجّرتا القفل، ثم وجّه سام ركلة للباب فانفتح ودخل في إثر غريس.



سأرتمي في السعير لكي أحميك...  
مقططف من فيلم «العراب» لفرانسيس كوبولا

شعرت جودي بنفسها متجمدة. لم يكن معطفها الملهل كافياً لحمايتها من البرد لا سيما وأنها تتصرف عرقاً بارداً. كما أن سروالها الجينز كان ملتصقاً بلحمها لأنها تبولت لما التقت بالعقاب. كانت من شدة ارتعاشها تشعر بجسدها كما لو أنه يذوب.

- مرحباً جودي.

رفعت عينيها مرعوبة: إنه مارك روتيللي. كان يتقدم نحوها وقد حشر يديه في جيبيه. كان بودها أن تحدّره، أن تنهاه عن الاقتراب والتحدث إليها، لأن العقاب يراقبهما، وأنهما معرضان للانفجار. جلس روتيللي على المقعد المجاور حتى لا يجعلها تهرب منه، ولا حظ فوراً الحالة القدرة التي كانت عليها.

بادرها قائلاً:

- كيف حالك؟

ظلّت متسمّرة في البداية، ثم أومأت برأسها، فلا حظ روتيللي أنها تبكي.

- هل أستطيع مساعدتك يا جو؟

قالت وهي تتحبّب:

- أظن... أنتي محمّلة بقنبة...

- قنبة؟

- نعم... مشدودة إلى...

- ماذا تقولين؟

- حول خصري.

هزّ روتيللي رأسه ثمّ قال وهو ينهض واقفاً:

- دعيني أرى.

هم بالاقتراب من المقعد، لكنّها طلبت منه عدم الاقتراب. كان يلوح في عينيها هلع أربك الشرطي ودفعه إلى الجلوس من جديد. حاول أن ينظم أفكاره. فحكاية القنبة هذه لا تستقيم. من الواضح أنّ جودي تهذى. لعلّها تناولت جرعة زائدة مثل كثير من الحالات التي رأها على امتداد مشواره المهني. إن شاء مساعدتها، فالتصرّف الحكيم هو أن ينادي على سيارة إسعاف. وفي اللحظة التي هم فيها ببيث ندائها عبر الراديو، نظر إلى عينيها، وهو أمر كان يتوجّبه دائماً لأنّ نظرتها تشبه نظرة غريس، فشعر بالألم.

كانت عيناها الصافيتان متقدتين، كما لو أضرمت النار في البحر. كانت تمتزج فيهما الدموع بالخوف والمخدرات وقلة النوم، لكن روتيللي قرأ فيهما، فضلاً عن كل هذا، رسالة أو نداء: أنقذني!

\*

أهوى العقاب بقبضته على الطاولة من الحنق. من يكون هذا الشخص الذي يتحدّث إلى جودي؟ تباً! كان عليه أن يجهّزها

بميكروفون حتى يسمع ما تقول! لكن من شدة اهتياجه تعجل وكاد ينسى القواعد الأساسية. نقر وقد استشاط غضباً على لوحة المفاتيح بعض التعليمات حتى يسوّي الكاميرا التي كانت مصوّبة على الصbie، فلاح له في خلفية الصورة خيال روتيللي، قطب حاجبيه وحدق بعينين نصف مغمضتين. هل تعرف جودي هذا الرجل؟ لا بالتأكيد. لا شك أنه أحد أولئك المنحرفين الذين يغزرون بالفتیات القاصرات في الحدائق . . .

لكن يبدو أنّ الحديث بينهما طال أكثر من اللازم. تردد العقاب، ونظر إلى شاشاته الأخرى. كان العرض المسرحي على وشك أن يبدأ، وكان الناس يحتشدون حول النافورة أكثر فأكثر. وقال في نفسه وهو يتحسّس الصاعق بيد مرتعشة: لم تفضل غير دقيقتين.

\*

- أتظنّين أنه يراقبنا؟

هزّت جودي رأسها موافقة بشكل لا يكاد يلحظ. حكت للشرطي تلميحاً ما عاشته في الساعات الأخيرة: كيف خطفها المروج وسلمها للعقاب.

- أتظنّين أنه موجود في مكان قريب؟

أومأت برأسها، فلم يفهم روتيللي شيئاً:

- كيف يرانا إذن؟

- بواسطة الكاميرات.

جال روتيللي بيصره في المكان، ثم قال:

- أي كاميرات؟ لا توجد كاميرات هنا.

- كاميرات ويب . . .

غمغم روتيللي تعبيراً عن تذمره، فهو عاجز عن إدراك معنى كاميرا ويب، لقد توقف عن متابعة التطورات التكنولوجية منذ عشر سنوات خلت. الهواتف النقالة، حواسيب الجيب، الرسائل الإلكترونية، الوي في . . . لم يكن لها كلها مكان في حياته. وتذكر ما قاله له ديلغاديو قبل قليل: لعله محق حين صرّح إن روتيللي «عفا عنه الزمن»، وهي ملاحظة زادت من عذابه.

قالت جودي بعثة وهي تحاول تمالك نفسها حتى لا تبكي:

- المعذرة.

- لماذا الاعتذار؟

- عذراً على أنني لم أثق فيك من قبل . . .

شعر الشرطي بقلبه يعتصر، ذلك أنه هو أيضاً كان يعتذبه الندم.

- ليس الخطأ خطأك يا جودي، إنه خطئي. لم أعرف كيف أحميك. كان عليّ أن أكون أكثر حضوراً في حياتك.

قالت الفتاة معذرة:

- لم أترك لك فرصة لذلك.

والتقت نظراتهما من جديد، فشعر روتيللي كما لو أنّ قوة مجهولة حلّت بداخله.

- سأخرجك من هذه الورطة، ولكن عليك أن تخبريني أولاً أين يختبئ هذا النذل. أتعرفين عنوان مستودعه؟

تنبهت جودي بذهول إلى أنها لا تعرف مقر سكن العقاب على وجه الدقة، ذلك أن سيروس تجول بها وهي في صندوق السيارة قبل أن يعتقلها في حجرة مظلمة بلا نوافذ. حاولت أن تتذمّر، لكنّها كانت مرهقة ذهنياً وجسدياً. كانت تشعر بصداع نصفي يشلّ دماغها لم يسبق لها أن شعرت بمثله قط.

تمتّمت قائلة :

- لم أعد أذكر . . .

فقال روبيلي مشجعاً :

- حاولي .

ركّزت جودي وهي تعي أن بقاءها يتوقف ربّما على هذه المعلومة، وحاولت أن تستمدّ القوة من أعماق أعماقها، من أماكن لم يسبق لها أن ارتادتها سابقاً، لكنّها كانت منهكة.

- أظنّ . . . أظنّ أنه واقع في مكان ما بترافيرس روود، شرق هايد بيرس .

- ينبغي أن يكون تحديدك أدقّ .

- لست أدرى . . . لم أعد أدرى .

حاول روبيلي ألا يظهر خيته، فقام واقفاً ليتحقق بسيارته وقال:

- طيب، سأحاول الاعتماد على هذه المعلومة، ولكن عليّ أن أسرع .

فقالت جودي :

-أشعر بالخوف من البقاء وحيدة .

- أعلم، لكن لا تتحرّكي . سأعود بسرعة .

لم يكن في حياته العاديه موهوباً في مواساة الناس، ولا سيما إذا تعلق الأمر بفتاة صغيرة تعيش مهنة حقيقة. غير أن الكلمات التي تلفظ بها خرجت من فمه مع ذلك بسلامة :

- اسمعي ، في انتظار عودتي ، قومي ب مجرد كل الأمور التي تؤذين تحقيقها قبل بلوغك العشرين . مفهوم؟ حرّكت رأسها موافقة .

- ولما سينتهي هذا الكابوس، سأساعدك على استدراك الزمن  
الصائغ. أعدك بذلك.

\*

وأشار سيروس بصوت متهدّج :  
- إلى اليمين .

كان مرّوج المخدرات جالساً في المقعد الخلفي لسيارة الدفع  
الرباعي وسلاح غريس مصوب على صدغه . بعد استنطاق عسير ،  
أقنعته بأنّ يقودهما إلى مخبأ العقاب .

سأل سام :

- ثمّ ، إلى أين توجه ؟

- سرّ في الاتجاه نفسه ثمّ انعطّف شمالاً عند الشارع الثاني .  
شغل سام ماسح الواقية الأمامية لكي يزبح عنها الثلج الذي شرع  
في التراكم . ودخلت السيارة الرباعية الدفع في زفاف تصطف بجنباته  
مجموعة من المخازن .

سألت غريس :

- هنا ؟

- نعم ، المرآب الموجود في أقصى اليسار .  
تقدّم سام ببطء محافظاً على مسافة آمنة إلى أن بلغ الباب الآلي .  
ثمّ قال ملاحظاً :

- يلزمـنا قـنـ. أـتـعـرـفـهـ؟

- كـلاـ ، هـوـ مـنـ يـفـتـحـ لـيـ الـبـابـ لـمـاـ يـكـونـ عـالـمـاـ بـمـقـدـمـيـ .  
- أـعـطـنـاـ القـنـ؟

رفعت غريس زناد المسدس، وأدخلت بتصميمٍ فوهته في فم سيروس.

- هيا، أعطنا القن!

رفع المروج يديه دلالة على الاستسلام.

- أمنحك ثلاث ثوان. واحد... اثنان... ثلاثة...

هتف سام:

- توقفي، إنه يقول الحقيقة.

- كيف عرفت؟

- إنني طبيب نفسي، وأستطيع تمييز الشخص الذي يكذب.

- لست مقتنعة بما تقول.

لكنّها سجّلت مع ذلك فوهة المسدس من فم سيروس.

- تعال معي.

ترجلت وهي تسحب الشاب الأسود. أوقفته بمواجهة السيارة وفتشته بحثاً عن هاتفه الخلوي.

- ما رقم العقاب؟

رد سيروس كاذباً:

- لست أعرفه، هو من يخطرني لما يتوصّل بالبضاعة.

مدّت غريس الهاتف لسام الذي راجع بسرعة سجل الأرقام، لكنه لم يعثر لرقم العقاب على أثر.

رمت غريس الهاتف أرضاً وهشمته بقدمها، والتفت إلى سيروس

قائلة:

- هيا، اغرب من هنا.

- هل... هل أستطيع...؟

- إن حاولت إخطاره، سأبحث عنك وأقتلك. مفهوم؟

- نعم سيدتي.

لكن سام لم يكن موافقاً على تصرفها.

- إنه مروج مخدرات يا غريس، ألا نوقفه؟

- لست ضابط شرطة يا غالواي.

- ألسنت أنت ضابطة شرطة؟

- دعه عنك. لسنا هنا من أجل هذا.

وبيّنما كان سيروس ينسحب، أضافت غريس:

- لا يستطيع الأطباء أن ينقذوا كل الناس مثلما لا يستطيع رجال

الشرطة أن يوقفوا كل الجناة. هكذا هي الأمور.

- ماذا تفترحين الآن؟

دارت غريس حول السيارة بمهل وهي تفحصها كما لو كانت ستشتريها. إنها سيارة رباعية الدفع من النوع الفاخر، أنيقة المظهر، لكنّها متينة، أشبه ما تكون بالسيارات العسكرية. دققت غريس النظر في الواقية المعدنية الحادة الضخمة في مقدمتها التي تنزل بشكل عمودي بين المصابيح الأمامية المربعة. تأمّلت أيضاً عرض إطارات السيارة وارتفاع مقاعدها: كل شيء فيها يجعلها تبدو متينة وصلبة كما لو أنها متأهبة للصدام.

سألت غريس:

- كم ثمن سيارة بهذه؟

- غالية جداً، ولعلّك، لم أنهِ بعد أداء أقساطها.

- شيء غريب، لم أتصورك بسيارة بهذه.

بدا الارتباك في نظرات سام، فقال معترضاً بصوت متلغم:

- اشتريتها هكذا... يوم زفت لي فيديريكا حملها. كنت فرحاً

بحيث هرعت لأول وكيل لبيع سيارات صادفته، كما لو أن شراء

سيارة كبيرة سيمنعني أسرة كبيرة تناسبها. أشتريتها وأنا أتخيل نزهات  
عطل نهاية الأسبوع والعطل العائلية بالحدائق الوطنية... يا لها من  
فكرة بليدة، أليس كذلك؟

- كلا يا سام.

ربت على كتفه لمواساته، ونظر سام إلى سيارته نظرة حالمه  
وقال:

- أعرف ما تفكرين به يا غريس. وأنا موافق عليه.

- حسناً، لا داعي لإضاعة الوقت إذن.

- ثم صعدت إلى السيارة، وركبت بجانبه. عاد إلى الخلف  
بحيث يستطيع الانطلاق بأقصى سرعة، لا سيما وأن السيارة كانت  
مجهزة بمحوّل بشمني سرعات بسعة 4,4 لترات، وبأقوى محرك لم  
يسبق أن جُهزت به سيارة لاند روفر من قبل.

كان يوجد على لوحة القيادة زر يسمح باختيار طبيعة الأرض التي  
تسير عليها السيارة، فحوّل سام المؤشر من أرض عادية إلى أرض  
وعرة، وضبط نظام الإعدادات الأنسب بالنسبة إلى النواكب والقوة  
ومقاومة الانزلاق.

- كنت أعلم أن هذه السيارة ستصلح لشيء ما في يوم من  
الأيام، طال الزمن أم قصر.

ثم ضغط على دواسة السرعة، فانطلقت السيارة بوزنها الذي  
يناهز الطين بسرعة فائقة ككبس جبار لترتطم بالباب المعدني.

\*

كان العقاب مفتتاناً بالصور التي تتعاقب أمامه، ذلك أن ساحة  
واشنطن كانت أحد الأماكن الأكثر ازدحاماً بالمدينة، وكان هذا

الازدحام يبهره، هو الذي لم ينجح يوماً في أن يشعر بنفسه حياً. كان متتلياً بوجود كلّ هؤلاء الناس، ويتأمل كل تفصيل من التفاصيل مهما صغر: لون شعر هذه الطالبة، ابتسامة تلك الأمّ لطفلها، الخطوط الراقصة لفناني الراب هذين . . .

أغلق عينيه لهنيهة وراح يتخيل ما ستنتهي إليه الأمور. سيسمع الانفجار على مدى كيلومترات محدثاً صدمة عنيفة. سيبدو الذهول في أول الأمر على وجوه الناس، ولن يفهموا كيف عصفت الحرب بحياتهم الآمنة. ثم ستراءى الأشلاء المتناثرة في كل مكان، وسيتعالى الصراخ والعويل من كل جانب، ويفرّ الناجون من الموت مرعوبين في شتى الاتجاهات وقد علا الدم وجوههم.

كانت صور المذبحة المروعة تتوالى في مخيلته تدريجياً، كما لو أنها وقعت فعلاً.

كان كلّ شيء واقعاً تماماً: فتاة صغيرة تصرخ وهي عالقة تحت المقعد: ماما! ماما! شاب ينهض واقفاً بعد أن قُذف على النافورة فتهاشم رأسه. امرأة تهتزّ من النحيب بعد أن لاحظت مذعورة أنها فقدت ساعدها.

يتناثر الموتى والجرحى في كل مكان، وتعمّ فوضى عارمة يتذرّع وصفها، ويختيم على المكان جوّ من الخراب الشامل. ستخيّم المصيبة على الجميع، وستكون من الضخامة بحيث لن تُنسى أبداً.

أهو مجنون؟ لا شكّ في أنه كذلك. لكن، ماذا سيغيّر هذا؟ بعد تفكير مليّ في الأمر، انتهى كلارانس إلى خلاصة مفادها أنّ المجتمع في حاجة إلى أناس مثله. ذلك أنّ الإنسانية بحاجة إلى كبار المجرمين، لا شيء إلا لكي يُفهمونها معنى الشر، لأنّ الشر هو الذي

يسمح للخير بأن يوجد. ولو لا المرض لما وجد الأطباء، ولو لا  
الحرائق لما وجد الإطفائيون، ولو لا العدو، لما وجد الجنود...  
قال في نفسه: أجل، الشر وحده هو ما يُشرع الباب للخير.

\*

أعاد سام الكرّة مرات عديدة قبل أن يفسح له الطريق. ففي  
المحاولة الثالثة تكسرت أخيراً دعائِم الحاجز المعدني، فعبرت سيارة  
اللاند روفر إلى داخل المخزن.

قفز العقاب من مكانه لـما سمع صوت الصدمة من فوقه.  
الشرطة؟ كيف اكتشفت مكانه؟ ألقى نظرة على شاشة مراقبة المكان،  
فأيقن بأنه محاصر، لكنه لاحظ بارتياح أنه لا توجد إلا سيارة واحدة،  
وأنّ من على متنها ليسوا من الشرطة.

تناول مسدساً أوتوماتيكياً من أحد الدواليب وهو ناقم على من  
أزعجه، ومصمّم على جعلهم يندمون على ذلك.

نزل سام منحدر المخزن المرصف بسرعة، وبلغ موقف السيارات  
التحت أرضي. كان الظلام مخيّماً على المكان، فهمّ بإشعال أنوار  
السيارة، لكن غريس نهض عن ذلك حتى لا ينكشفا. أوقف المحرك،  
فإذا بوابل من الرصاص يكسر الزجاج الأمامي للسيارة، فتطايرت  
شظاياه.

صاحت به غريس وهي تجذبه إلى الأسفل:  
- انحنِ.

لعل الرصاص من كلّ جانب مصدرأً ضجة تصم الآذان.  
ظلّت السيارة مسمّرة في وسط موقف السيارات. أقتلت غريس  
نظرة على سام، فلاح لها وجهه شاحباً.

همست قائلة :

- امكث هنا!

كانا متكونين تحت المقعدين، ففتحت غريس الباب من دون حس وهي تشهر مسدسها ثم تدرجت على الأرض. وانهال وايل من الرصاص على السيارة من جديد. نجحت في أن تتسلل داخل تجويف من الخرسانة ثم أطلقت بعض العبارات النارية. ساد صمت مفعم بالتوتر على موقف السيارات لهنئه ثم سمع فجأة وقع خطوات على الإسفالت. خاطرت غريس بأن خطفت نظرة خارج مخبئها، فرمقت طيف العقاب وهو يفر هارباً عبر الممر. صوبت ثم أطلقت النار، لكتها أخطأته. تركت مخبئها وتقدمت بدورها بحذر باتجاه الممر الذي كان ينيره ضوء خافت لا يسمح بتمييز غير شعاع دقيق خلف الباب.

تمطى سام وهو لا يزال في السيارة ليتناول معطفه الموضوع على المقعد الخلفي. بحث في جيده وأخرج هاتفه القال. عليه أن يتصل بالبوليس في أسرع وقت ممكن، لكنه لم يتمكن من تمييز الأزرار بوضوح في الظلام. ضغط على أحد الأزرار لكي ينير الشاشة، إلا أنه لم يتبيّن شيئاً. اللعنة! نسي شحن بطارية هاتفه. تنبه إلى أنّ البطارية فارغة بالأمس وهو في بيت ليونار ماكون، لكنه لم يكن يحمل معه الشاحن. شعر بندم مرير على تهشيم هاتف سيروس ببلاده، ولم يفكر في الاحتفاظ به.

ترجل إذن هو الآخر من سيارته. كيف سيساعد غريس؟ حملق في الظلام، فأبصرها على بعد عشرين متراً منه تقريباً. كانت تتقدم لوحدها في ظلمات الممر بإقدام وشجاعة قاصدة ذلك الباب المفتوح الذي قد تكون جودي محتجزة فيه. استبد القلق بسام، ذلك أنّ

غريس تخاطر بالتقدم مكشوفة هكذا. لا شك في أن العقاب يتظرها مختفيًا خلف الباب، متأهلاً لصبّ وابل رصاصه عليها. إن المعركة غير متكافئة: فمسدس المجرم من النوع الأوتوماتيكي الذي يسمح بإطلاق سيل من الرصاص، في حين لا تملك غريس غير مسدس الخدمة.

ولمح سام فجأة طيفاً يتحرك خلف غريس، فشعر بقلبه ينخلع. كان العقاب لا بدّاً في فجوة عميقه بالجدار بحيث تجاوزته غريس دون أن تراه، فسقطت بذلك في الفخ الذي نصب لها. فتح سام فمه ليحذّرها، لكنه لم يستطع النطق.

بادرها العقاب:

- أتبخرين عني؟

تسمرت غريس في مكانها لبرهة من أثر المفاجأة قبل أن تستدير بكلّ ما أوتيت من سرعة، لكنّ الأوان كان قد فات. ضغط العقاب على الزناد، فارتمت غريس أمتاًراً إلى الخلف وقد مزق الرصاص جسدها.

صرخ سام:

كلا!

وكما لو أن المشهد صور بحركة بطيئة، اندفع سام نحو العقاب، مستفيداً من أثر المبالغة، ووجه له لكمّة قوية طرحته أرضاً، فانفلت المسدس من يده، ثمّ أمسك سام برقبته ليوجه له ركلة، لكن المجرم أفلت منه، ووجه ضربة إلى قدميه حتى يفقده التوازن ويسقطه أرضاً هو أيضاً. قام الرجلان في الآن نفسه، ووقفا متواجهين وهما مستعدان للقتال. كان سام قد نسي خوفه بفعل الغضب. فقد كانت جثة غريس ممددة على ظهرها عند قدميه.

ورغم أنه لم يتعارك منذ مدة طويلة، فإن الغضب جعله يبادر بالهجوم، ويوجه للعقاب سلسلة من اللكمات تمكّن العقاب من صدّها قبل أن يدافع عن نفسه بضربة من مرفقه أصابت سام في صدغه. ردّ الطبيب بركلة قوية أصابت خصمه، فتظاهر بأنه يتلوى من الألم. إنه يدير له ظهره الآن، فبدأ سام أن الفرصة مواتية للإجهاز عليه، لكن ستيرلينغ طوى رجله ووجه للطبيب ركلة أفقدته توازنه.

إنّ ذلك استغل العقاب تفوقه، فطوى ركبته وهو على قصبة سام بكتعبه بكل ما أوتي من قوة، فسقط الطبيب أرضاً وهو يصرخ من الألم، كما لو أنّ عظم رجله انكسر: ثمّ شعر بضربة مرفق تهشّم كتفه، فكانت تلك هي الضربة القاضية.

قال العقاب وهو يستعيد مسده:

- إنّها ضربة في الصميم، أليس كذلك؟  
يسمّي اليابانيون هذه الضربة فيموكومي. إنّها تصلح أيضاً لتهشيم ركبة الخصم أو كعبه . . .

أمسك سام وهو مطروح أرضاً بقصبة رجله لعله يخفّف من الألم الذي يشعر به. كان الظلم لا يزال مخيّماً في المرآب، فأدار العقاب مفتاح النور ليرى وجه أسيره قبل أن يطلق عليه النار. ذلك أنه كان من المهمّ لديه أن يرى الأذى لحظة إلحاقه.

سطع في المستودع ضوء باهر اضطرّ سام إلى إغلاق عينيه وهو مرتعب. أسيّمت إذن وحيداً بشكل مجاني ووحشي بطلقة في الرأس داخل مخزن قدر ببرونكس؟ إنه أمر في منتهى القساوة! وهو غير مستعدّ له. فقد استيقظ ذلك اليوم وهو إلى جانب جولييت، ولم يخطر بباله قطّ أنه سيكون آخر يوم في حياته. لن يكون بالطبع أول من فارقوا الحياة وهم في أوج عنفوانهم، لكنه عزاء لا يخفّف من

المصاب شيئاً. كان يشعر بخوف شديد كما لو أن قلبه يقفز إلى حلقه.

لكن العقاب ما زال لم يطلق النار.

فتح سام عينيه مستجماً ما بقي لديه من شجاعة، فحرى به أن يواجه الموت بإقدام. تبين لأول مرة بوضوح وجه خصمه، ولاحظ بذهول أنه يعرف.

- إنه كلارنس ستيرلينغ!

لما ذكر سيروس اسم الرجل الذي سلمه جودي، لم يشير إلى اسمه الحقيقي، مكتفياً في كلّ مرة بتعميمه بلقبه المرموق. ومثلاً ما تعرف سام على غريميه، تعرف العقاب عليه أيضاً.

- ها ها ها! ... غالواي ...

قام سام واقفاً ببطء، وتسارعت في ذهنه كل الذكريات. لم ير ستيرلينغ إلا مرة واحدة في حياته قبل عشر سنوات، لكنه لم ينسه قط.

بعد تلاشي الدهشة الأولى، لاحظ العقاب:

- إنني أعرفك مثلما تعرفي أنت أيضاً ...

إنه كلارنس ستيرلينغ القاتل المحترف الذي أجره للتخلص من داستفاس. لم يكن ستيرلينغ آنذاك غير وغدٍ حقير من أوغاد الحي، رغم أن الناس كانوا يخشون بطيشه.

- ... لست بحاجة إذن لقتلك. هيا، انهض وتقدم!

وقف سام وشرع يتقدم تحت تهديد المسدس.

بعد لقائه الفاشل مع داستفاس، اقتنع بأن ذلك المجرم لن يتركهما بأمان هو وفيديريكا، ولن يقرّ له قرار حتى يقضي عليهما. أجال هذه الفكرة في ذهنه مئات المرات قبل أن يرضخ لحكم الواقع:

السبيل الوحيد لبدء حياة جديدة هو تصفية داستفاس. كان الناس في الحي يتهامسون أسماء بعض من هم مستعدون للتعاقد من أجل القيام بمثل هذه المهمة. تناول سام إذن الخمسة آلاف دولار التي كان قد ادّخرها، وعرضها على كلارانس ستيرلينغ. ولم يكدر يمضي يومان حتى فارق داستفاس الحياة. لم يعرف أحد يوماً أن سام كان وراء مقتله، بما في ذلك الأب باويل وفيديريكا. كان ذلك قراره هو، ومسؤوليته. وكان يؤذى ثمن ذلك كلّ صباح لما ينظر إلى نفسه في المرأة بينما يحلق وجهه. إنه ثمن الدم.

بلغ الرجالان نهاية الممرّ، وشرعَا في صعود السلم الحديدي الذي قادهما إلى ما يشبه المكتب، وقد كان سام مقتنعاً بأنه سيجد جودي مقيدة في أحد زواياه، لكنّه لم يجد عوض ذلك غير حاسوب بشاشات متعددة. عاد العقاب إلى مقعده وأوّلماً لسام لكي يجلس على مبعدة منه.

- ستكون بصحبتي في الصفوف الأمامية! افتح عينيك وانظر، ستسلّى جيداً!

أبصر سام على الشاشة الرئيسة جودي جالسة على مقعدها، وفي الخلفية، تعرف على ساحة واشنطن، لكن دون أن يدرك خطورة الموقف.

قال العقاب:  
- سنبدأ!

حاول سام أن يستجمع قواه ويرتمي على المجرم، لكن الإصابة أعادته، إذ لم يكن يقوى على الحركة السريعة.

كان لستيرلينغ الوقت الكافي لكي يراه يقترب منه، فأمسك بالمسدس الذي بمتناول يده وصوّبه على الطبيب.

- وأسفاه عليك!

ووضع سبابته على الزناد وضغط، فكسرت طلقة أولى الصمت المخيم على المستودع، ثم أتبعها بأخرى دوت كما لو كانت صدى للأولى، فشعر سام بكتفه ينفجر وتطاير الدم على وجهه، لكنه لما رأى العقاب يسقط صریعاً عند قدميه أدرك أنّ الطلقتين لم تكنونا من مسدسه.

تهاوى الطبيب من الإنهاك والألم وهو يحملق ويده تضغط على الجرح.

كان مارك روتيلاي يقف في فتحة الباب وهو ينظر إلى يده اليمنى التي تمسك بعقب سلاحه.

يدُ لم ترتعش.

تقدّم ببعض خطوات داخل الحجرة وتأكد من أنّ سام لم يكن مصاباً إصابة خطيرة، ثم تقدّم من جهة العقاب وأطلق عليها طلقتين آخرين، كما لو أنه يتخلص بذلك من سنوات من المعاناة والحزن.

كانت تسمع في البعد صفارات سيارات الشرطة والإسعاف.

مرّ روتيلاي خلف المكتب فاكتشف الترسانة المعلوماتية التي كانت تسمح للعقاب بمراقبة ضحاياه. تفحّص الشاشة الرئيسة، فلاحت له عيناً جودي في مشهد مكثّر كما لو أنها كانت تنظر إليه، فدنا من الشاشة وهمس:

- انتهى الأمر... سيكون كلّ شيء على ما يرام الآن.



... كلّ واحد يحمي الآخر من بقية العالم، ويمثل  
كلّ واحد بقية العالم بالنسبة إلى الآخر.

فيليب روث.

مستشفى سان ماتيوس - مصلحة الطوارئ،  
الثامنة وست وأربعون دقيقة صباحاً  
- لا تحرّك يا دكتور غالواي.

أنهت كلير غولياني، وهي طبيبة داخلية شابة بمصلحة الطوارئ،  
تضميد كتف سام الذي ارتدى منامة المستشفى بالمناسبة. استجابة  
لطلب زميلته وكفّ عن التخبط في سريره وقد أغمض عينيه. فبعد  
دوي الطلقات النارية، حلّ صمت المستشفى. ذلك لأنّ حشدًا من  
رجال الشرطة والإطفائيين اجتاحوا المستودع إثر مصرع العقاب  
بدقائق، ودون أن يطلب أحد رأيه، سيق إلى المستشفى الذي يعمل به  
لكي يخضع لجملة من الفحوص والكتشوفات.

قالت كلير معلقة:

- لقد حالفك الحظّ، فالرصاصة اختربت علىباءك دون أن تمتن  
العظم. لكن عليك بالمقابل أن تقوم بفحوص جرثومية في الأيام  
القليلة القادمة: لقد تمزّق النسيج العضلي . . .

- كفى، لا تنسى أتنى طبيب أيضاً. وماذا عن كعبي؟  
فناولته نتائج التصوير بالأشعة.

- لم يتكسر، لكن أوتاره تعرضت للتواء شديد. وكونك طبيباً  
لن يعييك من الراحة لمدة أسبوعين، لكن إن لزمنك الهدوء، وضعت  
على كعبك ضمادة ضاغطة... .

مط سام شفتيه وأشاح بوجهه، لكن أنبوباً بلاستيكياً مغروساً في  
ساعدك أعاد حركته، إلا أنه لم يمنعه من رؤية العملاق الذي كان  
يحرس الباب المواربة.

- إنني بحاجة إلى خدمة يا كلير.

- فسألت الشابة وهي تزيل كيس الثلج الموضوع على كعب  
مرتضها:

- وماذا سأكسب بالمقابل؟

- تشّكري على الخالصة.

- مع عشاء عند جان جيورجي<sup>(1)</sup>. يُقال إن تحليتهم مذهلة.

- موافق، اذهب بي لتعشّي هناك.

وبينما أومأ بأصابعه لعنصر الشرطة الفيدرالية، دخلت ممرضة  
حاملة عكازين، فاغتنم الشرطي فرصة دخولها ليلاج هو أيضاً إلى  
الحجرة. كان رجلاً فارعاً الطول، عريض المنكبين، بتسرية واقفة  
كالفرشاة شأن الكثير من زملائه. تقدم من السرير وأشهر بطاقته لكي  
يؤكّد أن دخوله قانوني.

- مساء الخير سيد غالواي. أنا الضابط هانتر. أعلم أنها لحظة  
عسيرة بالنسبة إليك، لكنني مضطر لأن أطرح عليك بعض الأسئلة.

---

(1) مطعم فرنسي مشهور يقع قرب سانترال بارك. (المؤلف)

فأجاب سام متظاهراً باستعداده للتعاون مع الضابط:  
- أنا في خدمتك.

تدخلت كلير بدورها وقد خمنت ما كان يهم سام بأن يطلب منها، فقالت بنبرة صارمة:

- إنه أمر غير ممكн الآن نظراً إلى خطورة إصابات المريض.  
 فهو بحاجة إلى الراحة التامة.  
 فردة هانتر:

- ستكون أسئلتي مقتضبة للغاية، كلّ ما أريده منه بعض التوضيحات لمقارنتها بتصریحات الضابط روتيلي.

فقالت وهي تدفعه إلى الخارج:  
- إنني أعترض على هذا تماماً.  
 لكن هانتر لم يبدِ استعداداً لمفادة الحجرة.  
 - امنحني ربع ساعة.

- كلّ ما يمكن أن أعطيك إياه هو الأمر بالمفادة.  
 فقال محتاجاً:

- إنك تهددين رجل شرطة فيدرالي.  
 فأجبت الطبيبة الشابة بلهجـة قاطعة:

- وهو كذلك. فالسيد غالواي تحت مسؤوليتي، وحالته لا تسمح باستجوابه الآن. أطلب منك إذن ألا تلح.

فردة هانتر حانقاً من رفض هذه المرأة الضئيلة طلبه:  
 - حسناً إذن . . .

- أخطرني بقدومك في المرة القادمة حتى أستقبلك بالورود!  
 خرج هانتر وهو يغمغم باللعـنـات، متأسفاً على العـهـدـ الذيـ كانت النساء فيه تعرفن قدرـهنـ، وهوـ غيرـ بعيدـ.

بمجرد ما خرج الشرطي، أزاح سام الملاعات، وجلس على حافة السرير ثم نزع أنبوب الحقن من ذراعه.

- ماذا تفعل؟

- سأعود إلى بيتي.

- عد إلى السرير فوراً، من تعذّني؟ جاك بوور<sup>(1)</sup>؟ لن أسمح لك بمعادرة المستشفى.

دفع سام العربة التي كانت عليها أدوات الجراحة، وتناول ملابسه.

- أنا مستعد لأن أوقع لك إبراء الذمة إن كان هذا يطمئنك.  
ردت كلير حانقة:

- المسألة ليست مسألة إبراء ذمة، بل مسألة حكمة: فقد كدت أن تفقد حياتك، وكفلك وكعبك في حالة بالغة السوء، وال الساعة الآن تشير إلى التاسعة مساء، ثم إن الحرارة بالخارج تنزل عن الصفر بعشرين درجات... ماذا بوسعك أن تفعل عدا أن تلزم الفراش؟  
أجاب سام وهو يتصبّب واقفاً:  
- لقاء امرأة.

قالت كلير بنبرة مستغربة:

- امرأة! أتظن أنها ستتجددك جذاباً بعказاتيك وضماداتك؟  
- ليس هذا هو المهم.  
- ومن تكون هذه المرأة؟  
- لا أظن أن الأمر يعنيك.

---

(1) Jack Bauer شخصية خيالية، وهو بطل السلسلة التلفزيونية الشهيرة 24 ساعة كرونو. (المترجم)

- ماذا لو قلت لك إنّ الأمر يعنيني !

- إنّها امرأة فرنسية . . .

فقالت كلير مازحة :

- لا ينقص غير هذا ! الليلة الوحيدة التي أردت أن أستفرد بك فيها ها أنت تخونني مع فرنسيّة . . .

ردّ سام على ابتسامتها بالابتسام ، وتوّجه ببطء إلى الباب .

- شكرًا على كلّ ما فعلته معي يا كلير .

قادته عبر الممرّ وانتظرت إلى أن دخل إلى المصعد قبل أن تسأله :

- اشرح لي أمراً أخيراً يا سام !

- ما هو ؟

وتلاقت نظراتهما في اللحظة التي شرع فيها الباب ينغلق .

- لماذا يحالف الحظّ دائمًا الناس نفسهم ؟

\*

انفتحت أبواب المصعد على باحة المستشفى . كان المكان محاطاً بкамله بالزجاج ومزيّن بالنباتات بحيث يبدو كحدائق شتوية . عبر سام الفنان وهو يعرج ليلتحق بالمصلحة التي تأوي جودي . كان يريد أن يطمئن على الفتاة قبل أن يلحق بجولييت .

وقف لهنيهة يتأمل الثلوج من خلال زجاج النافذة . كان مغرماً بالمستشفى ليلاً ، لاما تنتهي جلبة النهار . كان يعرف البناء عن ظهر قلب ، لأنّها كانت فضاءه ، المكان الوحيد في العالم الذي يشعر فيه بأنّه في موضعه ، بأنه ذو جدوى .

دفع بباب الغرفة الموجودة في أقصى أحد الممرات التي دلت على إحدى الممرضات.

كانت جودي تنام نوماً مضطرباً، وبجوار سريرها وقف روتيللي قرب كرسي وقد شبك يديه. كانت عيناه متقدتين وهو لا يزال متاهباً ومتوئلاً للارتماء من جديد على كلّ خطر يمكن أن يهدّد محنته.

استقبل روتيللي سام بعناق صامت، ذلك لأنّ الرجلين لم يتبدلا الحديث منذ مصڑ العقاب بالرصاص، لكنهما كانا يدركان معاً أنّ رابطاً خفيّاً نشأ بينهما منذئذٍ. وتساءل روتيللي عن جروحه بتقطيب حاجبيه، فأوّلما سام برأسه كمن سبق له أن تلقى إصابات أخطر.

ثم تقدم الطبيب من الفتاة التي كان جسدها مسجّى بملاءة بحيث لم يكن يظهر غير وجهها الشاحب.

وكان ضوء خافت مسكن ينبعث من مصباح موضوع على منضدة السرير. وبطريقة آلية تأكّد سام من أنّ المزرقة كانت مثبتة على النحو المطلوب، واطّلع على الكشف الصحي المعلق على السرير.

قال روتيللي هاماً بقلق:

- ينبغي أن نعثر على كيفية تساعدها على الإقلاع عن المخدرات نهائياً، وإنّ فانها ستفارق الحياة يوماً.  
كان سام قد فكر في الأمر.

- سأتكلّف بذلك، فأنا أعرف مركزاً لمعالجة الإدمان في كونيكتيكوت. إنّه فعال حقاً. رغم أنّ عدد من يستقبلهم محدود جداً، فإنني سأتصل بهم شخصياً.

غمغم روتيللي بشيء شاكراً، ثم خيم الصمت على الرجلين إلى أن أمرهما الشرطي قائلاً:

- اذهبا لتناما الآن، فالأبطال بحاجة إلى النوم، ثم إن الشحوب قد علا وجهيكم.

فأجابه سام وهو يغادر الحجرة:  
- ألم تنظر إلى وجهك أنت؟

\*

كانت جولييت تذرع الشقة مبللة الفكر، ذلك أنها لم تعرف شيئاً عن سام منذ خصامهما ظهراً. ثم إنها كلّما حاولت الاتصال بهاتفه النقال، لا تجد غير جهاز الرد الآلي مما دفعها إلى انتظاره بشقته. ألصقت جبينها بزجاج النافذة البارد وراحت تنظر إلى الأنوار المتلائمة في البعيد. رغم أنّ علاقتهما كان ينبغي أن تنتهي عندئذٍ، وجدت أنه من الضروري أن تتحدث إليه لآخر مرّة حتى تتوضّع الأمور. لم تكن تعرف ما الموقف الذي ستتّخذه من المرأة الأخرى، لكن كأن ثمة أمر مؤكّد: إنّها ناقمة على سام لأنّه كذب عليها.

أشعلت بعض الشموع، فاستنار الصالون بضوء خافت ذكرها على نحو حزين بأول ليلة قضيابها معاً، لكنّها ما لبثت أن طردت هذه الفكرة. لم يكن هذا هو الوقت المناسب لكي تقع في فخاخه! لامت نفسها بشدة على انخداعها بالحبّ رغم علمها بمصاديه وأوهامه. كان حرّياً بها، وهي صاحبة التكوين الأدبي، أن تنصت لنصائح كانط وستاندال: الحبّ مصدر عذاب ومعاناة، ما الحبّ غير شمس خادعة، مخدر يحجب عنا الواقع. نعتقد دائماً أننا نحبّ شخصاً لذاته، لكننا لا نحبّ من خلاله غير فكرة الحبّ. ولكي تخلّص من هذه الأفكار، أشعلت التلفاز، وكان مضبوطاً على قناة إخبارية. كان الشريط الأحمر يومض معلناً عن تحذير يتعلّق بنيويورك، تحت صدر المذيعة السمراء

المثيرة «مونيكا لوينسكي ستايل» التي كانت تعلق على الحدث الأبرز ذلك اليوم :

أحبّت الشرطة عملاً إرهابياً كان سيضرب واشنطن سكوار. كان الأمر يتعلّق بريبورتاج أشبه ما يكون بفيلم من أفلام الحركة، يتحدث عن الواقعة الغريبة التي تعرّضت لها تلك الفتاة التي تبلغ الخامسة عشرة من العمر، والتي حولها شخص سيكوباتي إلى قنبلة بشريّة مؤقتة.

وراحت المذيعة تضغط من جديد على تلك الكلمات المفزعة بغرض دعوة المتفرجين إلى توخي الحذر: القاعدة، غاز السارين، القنابل القذرة، الجمرة الخبيثة . . .

كانت جولييت قد تعودت على هذا النوع من تهويل الأخبار منذ أن حلّت بنيويورك، فضغطت باسم على زرّ جهاز التحكم عن بُعد لكي تنهي هذا التعليق الممل .

\*

كان يوجد بجانب الموزّعات الإلكترونيّة صفحات من الهواتف العمومية. بحث سام في جيوبه عن بعض القطع النقدية. كان عليه أن يعثر على جولييت، فركّب بممحض الصدفة رقم كولين، ونجح في الاتصال بها، لكنّها لم تكن تعرف المكان الذي توجد به صديقتها، فاعتذر على إزعاجها .

خرج إلى موقف السيارات الشاسع وقد تملّكته الخيبة، واستقلَّ إحدى سيارات التاكسي التي تترقب خروج المرضى. كان قد ترك معطفه بسيارته، وكان جرحه قد أجبره على عدم نزع الجزء العلوي من منامة المستشفى، وبذلك لم يكن يرتدي غير سترته التي لا تقي

من البرد، وهو ما جعل سائق السيارة يسأله بقلق وهو ينظر إليه في المرأة:

- أنت بخير يا سيدي؟

فأجابه سام وهو يتكون على المقعد الخلفي:

- بخير.

انطلق التاكسي على أنغام سizar إيفورا المنبعثة من الراديو. وضع سام يده على جبينه ولاحظ بأنه محموم. كان منهاكاً، ذلك أن هذا اليوم كان من أكثر أيام حياته رعباً. فقد تأثر بعمق لموت غريس ولم يستطع أن يستوعب ما وقع له. أغلق عينيه مستسلماً لصوت المغنية الهدائ، واستغرق في نوم مضطرب.

\*

نافذة غير محكمة الإغلاق، تيار هواء يعبر الشقة، وباب يصفق، فتملّكت جولييت القشعريرة.

لقد جاءت لكي تخبر سام بأنها حامل، وهي مضطرة لإخباره بالحقيقة، وبأنها قررت الاحتفاظ بالجنين مهما كان رده. فكرت في ذلك طوال فترة ما بعد الظهر، وما أثار استغرابها هو أن القرار فرض نفسه عليها كما لو كان أمراً بدبيها. وتنبهت الآن إلى أنها كانت مقتنعة منذ زمن بعيد بأنها ستتحمل الحياة بين أحشائها.

رغم المخاوف من المستقبل.

رغم آلام العالم وجنون الإنسان.

شعرت بالتجمد من البرد فحاولت عبثاً أن تزيد من درجة حرارة المدفأة. ولكي تواجه انخفاض الحرارة في الشقة، لبست إحدى

سترات سام التي كانت موضوعة على مسند أحد المقاعد ثم سارعت إلى الاستلقاء على الأريكة. شمت رائحة سام تنبئ من السترة، فأحسست بانقباض قلبه، واعتبرتها القشعريرة بسبب ذلك الشعور كما لو أن سائلاً متجمداً شلّ فجأة حركاتها.

ومسحت بالكلم دمعة ترققت على خدها.

تبّاً! كيف لرجل أن يوصلني إلى هذه الحال؟ ولاحظت عينيها المبتلتين ورقة مكمشة تبرز من أحد الجيوب. فتحتها بتلهف: إنها نسخة من مقال صحفي يحكي واقعة تعود لعشرين عاماً خلت.

عُثر على غريس كوستيللو، وهي مفتثثة شرطة من الدائرة السادسة والثلاثين، ميتة أمام مقود سيارتها الليلة الماضية، إذ تلقت طلقة نارية في رأسها. وتظل ملابسات مقتلها غامضة حتى الآن...

ألقت جولييت على الأسطر الأولى نظرة لاهية، ثم نظرت إلى الصورتين المصاحبتين للمقالة، وتعرّفت فيهما على المرأة التي لقيتها في بداية الظهيرة بصحبة سام. دعكت عينيها وهي لا تصدق، لكنها انتهت إلى الاقتناع بأنّ الأمر يتعلق بالمرأة نفسها.

لكن، لماذا لم تظهر عليها ولا تجعدها واحدة خلال كلّ هذه السنوات؟ ثمّ، ماذا تراها تصنع في أزقة مانهاتن إذا كانت قد ماتت منذ عشرة أعوام؟

كانت جولييت تقلب كلّ هذه الأسئلة في ذهنها لما سمعت بباب الشقة يُفتح. قامت جارية إلى الدرج، وعلتها الدهشة لما رأت سام يسير معتمداً على عكازتين وهو يحاول تعديل الضمادات الموضوعة على كتفه. وتحول في لحظة كلّ الغضب الذي كانت تشعر به إلى قلق:

- ماذا جرى لك؟

سحبها إليه ودفن رأسه في حضنها، فكانت رائحة شعرها هي لحظة العزاء الوحيدة خلال ذلك اليوم. تحرّرت منه وراحت تنظر بارتّاع إلى شفتيه المزرقتين المرتعشتين من البرد.

ثم قالت وهي تضع يدها على وجهه:

- أنت محموم.

فردة مطمئناً:

- لا بأس.

ساعدته ليصعد الدرج، وما كاد يصل إلى الشقة حتى أبصر نسخة المقالة موضوعة على المائدة.

سألته وهي تشعر بغصة في حلقلها:

- من هي هذه المرأة يا سام؟

قال وهو موزع بين الرغبة في عدم الكذب وتعذر البوج بالحقيقة:

- إنّها مفتّشة شرطة سابقة، صديقة، طلبت مني مساعدتها على العثور على ابنتها.

- لكنّها ماتت منذ عشرة أعوام!

- كلا، لم تُمْتِ إلّا اليوم.

وحاول أن يضمّها بين ذراعيه من جديد، لكنّها أبعدته. وقالت بصوت مخنوّق:

- لست أفهم شيئاً.

- اسمعي، لا أستطيع أن أقول لك أكثر مما قلت، لكنّي أتمس منك أن تثقّي بي، وأؤكّد لك أنّ هذه المرأة ليست عشيقتني إن كان هذا هو ما يقلق راحتك.

- إنه يقلقني حقاً!

كان سام يعي أن عليه أن يقدم لها تفسيراً واضحاً، لذلك استعرض لها الخطوط العريضة لقصة جودي وواقعة احتجازها من طرف العقاب، وحكي لها كيف لقيت غريس مصرعها وكيف أنه كان سيلقى مصرعه أيضاً لو لا تدخل مارك روتيلى. ولكي يشرح لها سبب إعلان المقال عن مقتل غريس، زعم بأنّها اتّخذت هوية جديدة قبل عشر سنوات في إطار برنامج لحماية الشهود. وكانت هذه هي النقطة الوحيدة التي جانب فيها الحقيقة.

وما إن أنهى سرده حتى بادرته:

- كدت تموت إذن!

- لما صوّب ذلك الغبي مسدسه عليّ، أيقنت من أنّي ميت لا محالة، وحينها فكرت ...

صمت، ثمّ خطا بعض خطوات باتجاه جولييت ولمس وجهها بيديه.

- فيم فكرت؟

- بأنّي عثرت أخيراً على إنسان أحبه وأنّي لم أجد الوقت لأبوح له بذلك.

رفعت رأسها نحوه وقبّلته بلطف وألقت بنفسها في حضنه.

قبلها قبلتين طوبيلتين وقال:

- أريد أن أطلب منك شيئاً ...

ردّت وهي تعضّ شفتها بلطف:

- تفضل.

فك أزرار قميصها العلية.

- ستعتبريني ولا شك غبياً، ولكن . . .
- إنني أنصت إليك.
- ماذا لو أنجبنا طفلاً؟

\*

## بعد ساعة

كان سام وجولييت مستلقين على الأريكة، وأرجلهما متشابكة وجسداهما متلاصقين.

كانت المدفأة مشتعلة في حَدَّها الأقصى، وفتحا زجاجة نبيذ بينما كانت تبعث من جهاز الأسطوانات موسيقى الرولينغ ستون عالياً. كانت أحنى سام رأسه، فلاحظ أن جولييت نامت على صدره. كانت خصلة شعر شقراء تنزل على طول خدها. داعب بأنامله صدرها الذي كان يرتفع وينخفض على إيقاع تنفسها المنتظم الهادئ. كان حضورها يشيع فيه شعوراً سحرياً بالسكينة. تجتب الحركة خشية إيقاظها، مكتفياً بوضع يده على بطنها. ستنجب طفلاً! لما أخبرته بذلك، غلبته الدموع من الفرح. لقد عاش قطعاً يوماً غير متوقع، لكنه أعظم يوم في حياته، ومع ذلك عليه ربما لا يبالغ في الفرح، لأنّه لا يثق في السعادة.

وبينما كان يقول في نفسه: لما تجري الأمور على خير ما يرام، نادراً ما يدوم ذلك طويلاً إذا بجرس الأنترفون يكسر الهدوء الذي يخيم على الشقة ويوقفه من غفوته. استيقظت جولييت فزعة من نومها، والتقت في ملاعة مستعيبة تيقظها وحيويتها في طرفة عين.

- أَجِيب؟

أجابها سام الذي كان يجد صعوبة في القيام بسبب الإصابة:  
- حسناً، أجيبي.

تناولت جهاز التحكم عن بعد وضغطت على الزر ليخرس صوت مايك جاغر المنبعث من جهاز الأسطوانات هي-في.

قالت جولييت وهي تعود إلى الغرفة:  
- إنه جارك الذي يزعم أن سيارتكم مركونة في المكان المخصص لسيارته في الموقف.

قطّب سام حاجبيه وهو يسأل:  
- أيّ جار؟ وكيف لسيارتي أن تكون هنا وقد تركتها في مرآب العقاب؟

وسرعان ما بلغ القلق الذي بدأ ينتابه قبيل لحظات ذروته، فقال وهو يرتدي لباس البيت ويضع فوقه المعطف:  
- دعني أرى.

نزل السلالم وخرج إلى الشارع. كان الليل بارداً.  
- من هناك؟  
لم يجب أحد.

كانت تغلّف البناءة التي تضم الشقة كتلة من ضباب، وتقدم سام ببعض خطى في الظلام وهو لا يكاد يتبيّن شيئاً.  
- غالواي...

التفت مشدوهاً من نبرة الصوت الذي ناداه: إنه صوت غريس كوستيللو. كانت متّكئة على عمود إنارة وهي تنظر إليه بحزن. كان وجهها الذي ينيره ضوء أبيض يلمع كقطعة خزف صيني.  
- غريـس؟!

تقدّم منها وهو لا يكاد يصدق.

مستحيل! لقد أبصر جثتها وقد اخترقها وابل من الرصاص وهي  
ممددة أرضاً! ثم إن العقاب لم يكن يطلق طلقات فارغة: فكتفه  
وزجاج سيارته شاهدان على ذلك.

- لست... أفهم شيئاً.

لقد شهد أحياناً، بوصفه طبيباً، شفاء حالات عُدّ شفاؤها معجزة، لكن لا أحد بإمكانه أن يقف بعد ساعات من إصابته بوابل من الرصاص من مسدس أوتوماتيكي.

- ألسنت . . . !

فتحت غريس معطفها وفكّت حزامي الفيلкро اللذين كانا يثبّtan سترة واقية من الرصاص حول صدرها. نزعـت الواقية الثقيلة ورمـتها عند قدمي الطيب.

- آسفة يا سام.

عندئذ تحطم شيء ما بداخله، ذلك لأن عقله لم يسبق له أن تعرض لرجة بمثل هذه القوة. تشظى كل شيء بداخله والتباين: الحزن والشعور بالذنب الذي لازمه منذ موت فيديريكا، صدمة المشارفة على الموت على يد العقاب، ذكريات ماضيه المؤلمة التي حاول الهروب منها، والتي كانت تفلح دائمًا في اللحاق به، الفرح العارم الذي تملّكه عند علمه بحمل جولييت، والآن ها هي غريس تظهر من جديد بعدما ظنّها ماتت.

ترك نفسه يسقط على الدرج المكسو بالثلج، ووضع رأسه بين يديه وراح يبكي من الخوف والغضب وعدم الفهم.  
كَرَّتْ غَرِيسْ:

- آسفه! لقد سبق لي أن أخطرتك بأنني سأبقى هنا حتى أنهى مهمّتي، وأنني لن أعود إلا وجوليت معى.

فقال سام متسللاً:

- ليس الآن! لا تأخذيها متى الآن!

- لن يتغير الموعد يا سام: بعد غد في عربة الكواكب المتحركة  
بروزفلت آيلند.

وقف بصعوبة، وشعر بالألم يعود إلى كتفه، لكن ذلك بدا له  
الآن هيناً.

قالت غريس وهي تبتعد:

- ما يحدث يتتجاوز إرادتي.

جري سام خلفها مذهولاً وهو يردد:

- لن أدعك تفعلين ذلك!

- سنعود لهذا الموضوع، لكن ليس الآن.

- متى؟

- غداً صباحاً. نلتقي في حديقة باتري.

رغم الخلاف الواقع بينهما، لمس سام في صوتها ما يشبه  
التعاطف، كما لو أنه هو المريض وهي الممرضة. أكان كلّ ما وقع  
مفاجئاً بالنسبة إليه؟ ألم يكن واثقاً في قراره نفسه بأنه لن يستمتع طويلاً  
بلحظات سعادته؟ كما لو أنّ لعنة لا يعرف كنهها حلّت بكلّ خطوة من  
خطواته.

و قبل أن تختفي في الظلام، نطق آخر جملة:

- وددت لو أتنى لن أعود يا سام، وددت لو أنّ الأمور تنتهي  
على نحو مخالف...  
وأدرك سام أنها صادقة.

لا شيء أيقن من الموت، ولا شيء أشد  
خفاء من ساعتها.

أمبرواز باري.

### الجمعة - الثامنة واثنتا عشرة دقيقة صباحاً

رفعت غريس طوق سترتها، ذلك لأن الريح كانت عاصفة على حديقة باتري. كانت الحديقة الصغيرة الواقعة في أقصى جنوب مانهاتن عبارة عن جزيرة خضراء صغيرة، محاصرة بين ناطحات سحاب وول ستريت والبحر. تجاوزت غريس الحديقة لتصل إلى المتنزه الممتد على طول النهر، والذي يحفل بمشاهد رائعة. ورغم البرد القارس والوقت الباكر، كان السواح وممارسو رياضة العدو يحتذون الخطى بأعداد كبيرة. أخذت مكانها بأحد المقاعد واستغرقت لحظة في تأمل الخليج الصغير الذي تحرك مياهه زوارق السحب والعبارات.

كان الهواء النقى البارد يخز عينيها بينما سرت في جسدها رعشة خفيفة. منذ أن عادت، صارت تولي تفاصيل الحياة انتباهاً فائقاً: لون السماء وصوت النوارس وعبث الريح بالشعر... كانت تعلم أن مُقامها هنا أوشك على نهايته، وأن عليها أن تتخلّى عن ملذات الحياة، لكنها منذ أن رأت ابنتها، استعادت طعم الحياة، وهو ما يجعلها أضعف وأوهى وأقرب إلى بني الإنسان.

كانت واقفة طبعاً من أنها لا يمكن أن تتخلى عن المهمة التي جاءت من أجلها، وأن عليها أن تنفذها حتى النهاية، غير أنها لم تعد تطيق هذه الفكرة، وظلت مجموعة من الأسئلة تؤرقها. لماذا لا تزال عاجزة عن تذكر على وجه الدقة الأيام التي سبقت موتها؟ لماذا أظهرت نتائج التشريح آثار المخدرات في جسدها؟ والأهم من كلّ هذا، لماذا اختيرت هي بالضبط للقيام بهذه المهمة الغريبة التي ما زالت لا تفهم كنهها.

\*

لما فتح سام عينيه، لم يجد جولييت. فقد سهرا حتى الفجر، لكنّ أشعة الصبح الأولى وما تناوله من دواء ضدّ الألم جعلاه يستغرق في النعاس.

قام مذعوراً في لمح البصر، لكنّ ورقة كانت موضوعة على الوسادة بشكل بارز أعادته إلى هدوئه:

حبيبي

أنا مضطرة للذهاب إلى القنصلية لتسوية وضعتي. أراك لاحقاً.  
انتبه لنفسك.

أحبّك.

جولييت.

ملحوظة: اشرع في التفكير في اسم للوليد. أنا أفضل أن نسميه ماتيو إن كان ولداً وأليس إن كانت بنتاً.  
ولم لا جيمي أو فيوليت...؟

وارتمى سام على الوسادة من جديد بألم باحثاً عما تبقى فيها من

رائحة المرأة التي يحبّ . ثمَّ توجّه إثُر ذلك إلى الحمام حيث وجد في  
انتظاره على المرأة مكتوباً بأحمر الشفاه :  
أو ربما أدريانو أو سيليسٍ؟  
أو ماتيس وأنجيل...؟

وفّكر فجأة وقد سرّته هذه اللعبة : ماذا لو كانوا توأمِين؟  
ولمَا ذهب إلى المطبخ لاحظ أنَّ الحروف الممعنطة التي تتخذ  
شكل حيوانات متواحشة ، والملتصقة بالثلاجة قد أزيحت من مكانها  
لتشكّل كلمات جديدة : غيليرمو ثمَّ تحته كلير ليز ، وتساءل عن كيفية  
نطقها بالفرنسية . بعد ذلك بذل ما بوسعه ليرتدي ملابسه على الوجه  
الأنسب رغم إصابة كتفه ، ثمَّ غادر البيت . وبما أنَّ الوقت كان لا يزال  
مبكراً ، لم يتأخّر في العثور على سيارة أجرة . أمر السائق قائلاً :  
- حدائق باتري .

ترجّل من سيارة الأجرة أمام أبراج لاور مانهاتن ، وشعر بفراغ  
معدته فتنبه إلى أنه لم يأكل شيئاً منذ أربع وعشرين ساعة . توقف عند  
أول مقهى ستاربكس ليطلب فطوراً نيويوركيًّا : كعكة وكوب قهوة كبير  
شربه وهو يسير في الشارع .

وبينما كان يمشي ، رنَّ هاتفه ؛ ذلك أنَّ أحدهم ترك له رسالة  
صوتية . إنَّه صوت جولييت تقترح عليه : «ربما مانو أو إيمَا أو لوسى ،  
هوغو أو كليمان أو فالانتان أو غارانس أو طوني أو سوزان أو  
كونستانس أو أديل...»

ارتسمت على وجهه ابتسامة لا تكاد تلحظ ، وشعر بالخيبة من  
عدم تمكنه من الاستمتاع بلحظة الفرح هذه مع حبيبته .

التفَ على كاستيل كلينتون ، الحصن الصغير الواقع وسط

الحديقة، والذي كان يستعمل في الماضي للدفاع عن المرفأ ثم حُوِّل إلى مكتب لبيع تذاكر العبارات. كان قد فضل عدم استعمال العكازين، لكنه يشعر الآن بالندم الشديد على ذلك.

وبينما كان يجتاز المنحى الواطئ الذي يفضي إلى رصيف الميناء، أبصر غريس آتية للقاءه.

لم يستطع من جديد مقاومة دهشته من رؤيتها حية. فقد كاد يتمتّ في الصباح عند استيقاظه لو أنّ لقاءه بها بالأمس لم يكن إلا في خياله، لا سيّما وأنّه كان محموماً وهذى خلال نومه.

لكن لا مجال للحلم.

وضعت غريس يدها على مرفقه وسألته على نحو آخر:

- أتمنى ألا تكون إصاباتك لا تزال تؤلمك.

فأجابها بلهجة تكاد تكون فظة وعدوانية:

- إنني على خير ما يرام كما ترين، ما رأيك في مباراة اسكتواش؟

- أكرر لك مرة أخرى إنني آسفة يا سام!  
فأجابها محتداً:

- كفي عن ترديد إنك آسفة! تفتحمين حياتي وتخبريني بأنّ المرأة التي أحب ستلقى حتفها وتربييني أن أرقص السامبا لكي أعبر لك عن فرحي!  
- أنت محق.

كانا يرتعدان من البرد، ولكي يستدفنا، انساقاً مع الحشود المتوجهة إلى رصيف عبارات جزيرة ستاتن. وحاول سام أن يخفى عدم قدرته على المشي، وهو ما تنبّهت له غريس مع ذلك فأرادت أن تساعديه، لكنه صرفها.

كان ثمة على الرصيف مركب راسٍ متأهّب للانطلاق، وقرر أن

يستقله دون أن يتبادلا كلمة واحدة: ذلك أنَّ العبور كان قصيراً ومجانياً، والمركب دافئاً.

كانت العبارة ممتلئة تقريباً. ورغم البرد، أخذ سام مكانه على ظهر السفينة، وما لبثت غريس أن لحقت به. وعلى غرار لقائهما الأول، مدت له كوب قهوة:

- يبدو أن هذا هو أسوأ ما في نيويورك: إنها تغلي طيلة اليوم في صهاريج معدنية ضخمة . . .

أمسك سام الكوب، ورشف منه جرعة وقال:  
- إنه أمر غريب حقاً.

كانت القهوة من النوع الرديء، لكنها قد تصلح على الأقل لتدفئة اليدين.

بقيا جنباً إلى جنب صامتين وهما يرتشفان المشروب الساخن ونظراً لهم تائهة في أفق الأزرق الصافي. وراحت غريس تحدق في جزيرة إليس وأرصفة بروكلين كما لو أنها تراهما لأول مرة، في حين أشعل سام سيجارة ونفت دخانها طويلاً، وعلى بعد منهما كان تمثال الحرية يرفع مشعله عالياً في وجه الرياح.

وبعد دقائق من الصمت، حاولت غريس أن تستأنف الكلام:  
- اسمع يا سام، حتى لو رفضت إنجاز المهمة سيعثون غيري لتنفيذها.

- غيرك؟

- مبعوث آخر لكي يصلح الخطأ . . .

- يصلح الخطأ! ألفت انتباحك إلى أنك تتحدى عن حياتي  
وحياة جولييت!

- أنا واعية بذلك، لكنني شرحت لك الأمر سابقاً: ينبغي أن

تموت جولييت، ولهذا بعثوني. لم أطلب قطّ القيام بهذه المهمة.  
صدقني إن قلت لك بأنّي لا أنفّذها مبتهجة.  
وانبرى سام من جديد للدفاع عنّي يحب:

- أكره فكرة القضاء والقدر هذه، وقد ناضلت كلّ حياتي لكي لا أكون محكوماً بحتمية القدر. ولدت في أحد أسوأ أحياء هذه المدينة، وكلّ شيء كان يهينني لأكون منحرفاً، لكنني صارت لأصير غير ذلك، ونجحت في تجاوز ذلك الوضع!

- لقد سبق أن تحدّثنا في كلّ هذا يا سام. لم أقل لك قطّ أنّ أفعال الإنسان محدّدة مسبقاً بكل تفاصيلها، وأنّ الحياة ليست سوى تمثيل لسيناريو مكتوب سلفاً.

ثم حدقـت في عينيه وأضافـت:

- ما أريد أن أقوله لك بالمقابل هو أنّ هناك أشياء لا يمكن الإفلات منها.

نفـذت حجـج سـام، وأدرـك مـساء أمسـ، لما التـقـى بـغـرـيسـ، بـعـد حادـث إـطـلاق النـارـ، بـأنـه خـسـرـ المـعرـكة مـسبـقاـ، لكنـه أـضـافـ معـ ذلك بنـرـة أـقـرـبـ إلى الـاحـتجـاجـ:

- ولكنـي أـحـبـهاـ!

نظرـتـ إـلـيـهـ غـرـيسـ بـسـمـاـحةـ.

- أـنتـ تـعـلمـ جـيـداـ أنـ الحـبـ غـيرـ كـافـ لـلـوـقـاـةـ مـنـ الـمـوـتـ. كـنـتـ أـحـبـ اـبـنـتـيـ وـأـحـبـ مـارـكـ روـتـيلـليـ، لـكـنـ ذـلـكـ لـمـ يـمـنـعـ مـنـ أـنـ تـلـقـيـ رـصـاصـةـ فـيـ الرـأـسـ . . .

ظـلـلتـ مـسـتـغـرـقةـ لـحـظـةـ ثـمـ أـضـافـتـ وـهـيـ تـخـاطـبـ نـفـسـهـاـ:

- . . . وـأـكـثـرـ مـاـ نـدـمـتـ عـلـيـهـ هـوـ أـنـيـ مـتـ قـبـلـ عـشـرـ سـنـوـاتـ دـونـ أـنـ أـبـوـحـ لـهـ بـحـبـيـ . . .

أشعل سام سيجارة ثانية، لكتها احترق دون أن يدخلنها بسبب استغراقه في الإنصات لكلام غريس. ورست العبارة على مهل بمरفأ جزيرة ستاتن، لكن معظم الركاب بقوا في أمكنتهم على متنها لكي يعودوا إلى مانهاتن.

وجد سام نفسه الآن مضطراً لقبول حكاية غريس، ولم يتوقف عن التساؤل عن طبيعة الحياة والموت. قضى جزءاً كبيراً من الليل وهو يفكّر في هذا الأمر، لكنّ هذه الأسئلة كانت تعود باستمرار بكيفية مقلقة ومثيرة في الوقت نفسه. هل لحياة الإنسان غاية؟ أم أنها مجرد ميكانيزم بيولوجي؟ والموت... أهي مجردة من المعنى؟ أم أنها نفتح سبيلاً نحو حياة أخرى، إلى مكان آخر سذهب إليه جميعاً؟ منذ أن أطلق النار على أحد الأشخاص في شبابه، لم يقبل قطّ موت الآخرين، ورغم مهنته، كان يشعر بنفسه في كلّ مرّة أكثر عجزاً. حاول أن ينكر الموت، لكنّها كانت تلحق به دائماً. كان يرى في مخيلته وجه فيديريكا التي عجز عن إنقاذهما، ثمّ وجه الطفلة أنجيلا، المريضة الصغيرة التي فقدتها مؤخراً، بل إنه تذكر حتى العقاب الذي لازمه صور موته العنيفة. أين هم الآن؟

كثيراً ما تحدث مع المرضى الآسيويين الذين يعتقدون أنّ شيئاً ما في أنفسنا لا يموت أبداً، ويواصل دورته في هيئة أخرى. وفي أحيان أخرى كانت تُربّكه حكايات أولئك الذين عاشوا تجربة الإشراف على الموت: الفق المضيء والشعور بالسعادة، لقاء المفقودين... لكنّه لم يقتنع قطّ بكلّ ذلك ولا حتى بكلام الأب هاثاوي الجميل الذي كان يدعوه في صغره إلى البحث عن الربّ والمراهنة على وجوده.

لكن لقاءه مع غريس اليوم فتح له أفقاً جديداً، لأنّها كانت قد عبرت إلى الجانب الآخر، وسيكون بوسعها أن تكشف له السرّ

الكبير. لذلك سألهما بمزاج من الفضول والتوجس:

- ما الذي يقع من بعد يا غريس؟

- بعد ماذا؟

- إنك تدركين جيداً قصدي.

لم تُجب غريس فوراً. أجل، كانت تعلم ما يقصده سام، وكانت تتوقع أن يفاتها في هذه المسألة طال الأمد أم قصر.

- بعد الموت؟ أنا آسفة على تخيب ظنك لأنني لا أذكر شيئاً.

- أجد صعوبة في تصديقك ...

- لكنّها الحقيقة مع ذلك.

- ألا تذكرين شيئاً من السنوات العشر الأخيرة؟

- في ذهني، كأنّ هذه السنوات العشر لم توجد قطّ.

- هكذا هي الموت إذن: ثقب أسود عظيم ...

- ليس الأمر كذلك، كوني لا أذكر شيئاً لا يعني أنّ ليس ثمة شيء، وإنّما كنت لأوّجده هنا. أظنّ بالأحرى أنّ الميعوثين لما يرسلون إلى الأرض، ينبغي أن يظلّ لغز الموت قائماً، حتى بالنسبة إليهم. لأنّ البشر لا يمكنهم أبداً خلال حياتهم أن يطلعوا على ما يوجد بعد الموت. كلّ ما أعرفه هو أنّنا لا نوجد على الأرض بالصدفة.

ولما لاحظت اضطرابه أضافت بصوت هادئ:

- لا تظنّ أنّ هذا لا يشوشني أنا أيضاً! أشعر بنفسي عزلاء وعاجزة، لن أخفيك، فأنا خائفة من العودة إلى هناك، لكنّي أعرف بالمقابل أمراً هو أنّ لدى مهمة ينبغي أن أنفذها، وباستثناء هذا، لا يمكن أن أتدخل في حياة الناس.

- لمّا تعلق الأمر بإنقاذ ابنتك، لم تتردد!

ردّت غريس موافقة:

- هذا صحيح. بمحاولة إنقاذ جودي حدثت نسيئاً عن مهمتي...  
هزّ سام كتفيه. وبينما كانت العبارة تناور لكي تدخل إلى المرفأ  
رنّ هاتفه المحمول.

- من؟

كانت جولييت هي من تكلّمه، لكن الاستقبال كان رديئاً، وبدا صوتها بعيداً. كان الريح يهبط بقوة على ظهر السفينة، غير أنّ سام التقط بعض الكلمات: «أنا متشوقة لـ...»، «أحبك...»، «انتبه لنفسك من البرد...» هذا فضلاً على سيل من الأسماء الجديدة: «جورج، مارغو، أبولين...»، ثم زاد تشوش الاتصال كما لو أنّ جولييت شرعت تفلت منه.

وبينما بدأ الركاب في النزول، قرر سام أن يلعب آخر أوراقه. ذلك أنه كثيراً ما فكر خلال الأيام الأخيرة في هذه الإمكانية دون أن يقرّ بها. فمنذ المساء الذي شاهد فيه صور أنجيلا والرسالة التي تحملها، أدرك جيداً بأنّ عواقب لقائه بغريس لن تكون حميدة. ورغم إنكاره لنبوءتها، واستعراض كلّ الإمكانيات التي قد تنفذ جولييت، والمُنفذ الوحيد الذي بدا له ممكناً يرتبط بالسؤال الذي طرحته على غريس:  
إذا لم يكن بدّ من أن تعودي بأحدهم، فيلزم أن تتحترمي  
ترتيب الأمور هذا...  
- ماذا تقصد؟

- في هذه الحالة خذيني أنا! خذيني معك على متن عربة الكوابيل عوض جولييت.  
تفرّست غريس عينيه. كانت نظرتها في متنه اللطف، كما لو أنّ اقتراح سام لم يفاجئها.

ظلّت صامتة لبضع ثوان، وهم سام أن يقول شيئاً، لكنه أحجم.  
وأجابت أخيراً:

- إنّ الأمر يتعلّق بحياتك، وهو قرار لا ينبغي أن تستخفّ به،  
فقد تندم في آخر لحظة.

- لقد فكرت فيه مليّاً. فلإنقاذ فيديريكا سابقاً، ارتكبت جريمة  
قتل، لكنني لم أنقذها في آخر المطاف، وأضعت نفسي. أما اليوم فأنا  
أدرك أنّي لا أملك خياراً آخر لإنقاذ جوليت غير التضحية بحياتي في  
سبيلها. أتوسل إليك ألا تأخذيها.

- طيب ما دمت أنت من ت يريد ذلك، لا أمانع.  
ونفخت هبة قوية، وحاول سام ألا يُظهر انفعاله، لكنه شعر  
بركبته ترتعشان.

- نلتقي بعربة كوابيل روزفلت آيلند، أليس كذلك؟  
نعم، غداً على الساعة الواحدة زوالاً.

- وإذا رغبت في الاتصال بك قبل هذا الموعد؟  
أنا من سأتصل بك.

قال وهو يخرج هاتفه المحمول:

- كلا يا غريس، انطلاقاً من هذه اللحظة لم تعودي أنت وحدك  
من يحدد قواعد اللعبة.

وقبل أن تجد الوقت لكي ترفض، وضع سام الهاتف في جيبها  
قسراً وغادر العبارة.

بقيت على ظهر العبارة لدقائق، وراحت تتبع بيصرها الطيب من  
أعلى وهو يتبع.

لقد سارت الخطة إلى حدّ الآن حسبما توّقعت تماماً.

نtopic للعودة إلى صفحة الحبّ، لكن صفحة الموت تكون قد حلّت بين أصابعنا.

لامارتين

**بداية الظهيرة - مستشفى سان ماتيوس**

كانت غرفة جودي كوستيللو الصغيرة غارقة في العتمة. انفتح الباب بلا حسّ، وأطلّ رأس غريس. ويعدما تأكّدت من أنّ الطفلة تغطّ في النوم، اقتربت من السرير بلا ضجّة.

وضعت برفق يدها المرتعشة على جبين ابنتها، وملكت بجوارها مشوشة الذهن بينما انهملت الدموع في صمت على خديها. كان شعوراً لم يسبق أن أحست به من قبل: الفرح العارم للقاء جودي من جديد، ولكن أيضاً الألم العميق من عدم قدرتها على التحدث إليها. وفي لحظة كادت توقظها لكي تعيّر لها عن مقدار حبّها لها، ومدى أسفها على ما وقع، لكتها تنبهت إلى أنّ ذلك ليس من حقّها وغير مستحب: فجودي بحاجة إلى السكينة لا إلى صدمة عاطفية أخرى، فاكتفت إذن بأن همسَت لها:

- سامحيني إن كنت تخليت عنك لكلّ هذه السنوات . . .  
ثم أمسكت بيدها:

- أتمنى أن تتحسن أمورك من الآن فصاعداً.  
كانت جودي تنام نوماً خفيفاً، فتحرّكت في سريرها وغمغمت  
بعض عبارات غير مفهومة. وتعرّفت غريس فوق منضدة السرير على  
الصورة التي تحملها هي نفسها في حافظة نقودها.  
وهي تذكر جيداً اليوم الذي التقطت فيه، في بداية التسعينيات . . .

كان يوم أحد من أيام الخريف الجميلة، إذ قررت هي ومارك  
روتيللي الاستمتاع بشمس جزيرة نانتوكيت جنوب بوسطن. تركا  
حقيتيهما بماداكيت، وهو الشاطئ المفضل لهواة التزلج على الماء.  
كانت جودي التي احتفلت بعيد ميلادها الأول تلهو في الرمل بجانبها  
وهي تقضم قطعة بسكويت أوريو.

وكانت تبعث من جهاز مذيع قديم أغنية لسيمون وغارفانكل  
تحدّث كلماتها عن متانة الروابط الصادقة. أغلقت غريس عينيها  
وشعرت بنفسها على خير ما يرام: رائقة، يهددها صوت الأمواج،  
ويداعبها نسيم صيفي عليل.

ثم تغذّيا في الهواء الطلق: ساندوتشات شرائح سمك أبي سيف  
وفطائر الدجاج، وإرضاء لجودي جلباً فطائر توت مسقية بشراب  
القيقب.

في هذا اليوم أيضاً تحدّثا عن مستقبلهما في الشرطة. ذلك لأنّ  
أحد زملائهما القدامى أنشأ شركة أمن خاصة، واقتراح عليهما عملاً  
أكثر دخلاً وأقلّ خطراً من ذاك الذي كانوا يشغلانه آنذاك. وإذا كان هذا  
العرض قد أغري روتيللي - الذي أرهقه العمل بالشرطة - فإنّ غريس  
رفضته رفضاً قاطعاً.

- أحب مهنتي يا ماركو... أحب الاشتغال في الميدان...
- أتحبب الاكتفاء بذاك الراتب البئيس، والتجول في السيارات المهرئة والعيش في شقة قدرة؟
- لا داعي لهذا التصوير الكاريكاتوري. ثم إن شقتي ليست قدرة!
- على كل حال، فهذه المهنة باللغة الخطورة، لا سيما بالنسبة إلى امرأة!
- ها نحن نصل إلى هذه الحجج الذكورية!
- لست من دعاة التفوق الذكري!
- أنا أحب هذه المهنة، ولا أرغب في عمل هادئ ساكن. أحب فكرة المخاطرة بحياتي لإنقاذ أرواح الآخرين...
- إنك تخاطرين بحياتك كثيراً يا غريس. أنت أم لطفلة الآن، وعليك أن تفكّري فيها قليلاً!
- أثق بحسن طالعي.
- سيخلّى عنك الحظ يوماً.
- سيخلّى عني لما يحين الوقت. قد تسحقني سيارة وأنا أتسوق في الشارع.
- تناول روبيلا آلة التصوير ودعا غريس ليأخذ لها صورة مع جودي على الشاطئ.
- قالت غريس وهي تتناول ابتها بين ذراعيها:
- لن أترك هذا العمل أبداً.
- هذا لا يمنع من أن تتوكّي مزيداً من الحذر. فالإنسان لا يحيا إلا مرة واحدة.

هزّت كتفيها وهي تبتسم له بتلك الابتسامة الرقيقة التي تزيدها سحرًا.

- من يستطيع أن يتبنّى بذلك يا ماركو؟ من يستطيع؟

أعاد صرير الباب الذي انفتح غريس إلى الحاضر. واكتفت الممرضة بالتأكد من أن كل شيء على ما يرام بالنسبة إلى جودي، ثم غادرت الغرفة دون أن تبدي انزعاجها من وجود غريس. تنفست الصعداء، لكنّها كانت واعية بأنّها تجاوزت كثيراً، إذ لا ينبغي أن تظلّ هنا لفترة طويلة.

وتحركت جودي من جديد في سريرها كدأبها في الماضي، وغنت لها غريس أغنية جيرشوبين التي تشبه التهويّدة، والتي كانت تحمل عنواناً موحياً: <sup>(1)</sup> Someone to watch over me.

ولتوذيعها، أخذت عليها ووعدتها بصوت مهموس: - لست أعلم إلى أين سأذهب، ولا ما سيحدث لي، لكنّي أتمنّى أن يبقى شيء متّي معك، بالرغم من أنّك لا تستطعين رؤيتي ولا سماعي . . .

عندئذ استيقظت جودي فزعة.

هناك شخص في غرفتها!

فتحت عينيها وأشعّلت النور، لكن غريس كانت قد اختفت.

\*

---

(1) شخص يحميني.

## ثلسي - 151 غرباً، الشارع الرابع والثلاثون

كان ماسي يشغل بمساحته البالغة مائة ألف متر مربع، وطوابقه العشرة، صفاً من المنازل في الشارع السابع. فقد جاء سام وجولييت إلى هيكل التسوق هذا، الذي يعدّ من أكبر متاجر العالم، لقضاء ما تبقى من فترة ما بعد الظهر. وقد قضيا الساعات السابقة بين التجوال في سفو والاستمتاع بأكل القشدة المثلجة بسيرانديبيتي وهما يرسمان مشاريع المستقبل للخمسين سنة القادمة. اتفقا حول أسماء أبنائهم الثلاثة، ولو نوافذ منزلهما، ونوع سياراتهما المقبلة والأماكن التي سيقضيان فيها عطلهما.

كانت جولييت متألقة من السعادة، تجوب ممرات المتاجر الكبرى بخفة، مفتونة بأسرة الأطفال ولعبهم وألبستهم. ورغم اغتمامه، كان سام يحاول التظاهر بعكس ذلك. كان عليه أن يقضي فترة ما بعد الظهر بكاملها في الحديث عن سعادة لن يعرفها أبداً وهو يعلم أنه يعيش آخر لحظاته. سيغادر هذا العالم غداً في مثل تلك الساعة، وهو ما كان يُرعبه، لكنه لم يندم مع ذلك ولو للحظة عن العرض الذي اقترحوه على غريس. فقد قام بذلك لإنقاذ جولييت، وهذه الفكرة وحدها كانت كافية لكي تخفف عنه.

كان عليه ألا يخادع نفسه، فهو مسؤول عن موت رجلين، وحتى لو كان الأمر يتعلق بمروجي مخدرات، فإن الشعور بالذنب الذي لازمه منذئلاً أفسد عليه حياته. يوسعه أن يكذب على نفسه، لكنه كان يدرك في قراره نفسه أن عليه أن يؤدي الثمن يوماً، وموت فيديريكا لم يكن كافياً لأداء الدين الذي عليه. لهذا السبب كذب على جولييت مساء لقاءهما الأول، لأن وزر غلطته كان من الثقل بحيث كان يحول بينه وبين السعادة.

- سام!

كانت جولييت تومئ إليه وهي في الطرف الآخر من الممر متعجبة من دمية على هيئة ديناصور يتجاوز علوها خمسة أمتار، رد على ابتسامتها، لكن ذهنه كان شارداً. كما لو أنه كان قد مات منذ فترة.

اللعنـة! إنـه يموت خوفـاً! معـ أنه كثيـراً ما رافق المرضـى خـلال آخر لحظـات حـياتـهم قـبيل رحـيلـهم، وكثيـراً ما شـدـ على أيـدي أـنـاس بلا أـسـرـ مـحاـواـلاـ طـمـأنـتـهم وـدـفـعـ الخـوـفـ عنـهـمـ، لكنـ حينـ تـعـلـقـ الأـمـرـ بـحـيـاتـهـ هوـ، فـالـأـمـرـ مـخـلـفـ تـاماـ!

كانـ سـامـ مـغـمـومـاـ. فـضـلـاـ عنـ خـوـفـهـ كانـ يـشـعـرـ بـمـرـارـةـ حـرـمانـهـ منـ روـيـةـ مـولـودـهـ، بلـ حتـىـ منـ مـعـرـفـةـ ماـ إـذـاـ كانـ سـيـكـونـ ذـكـراـ أمـ أـنـثـىـ، لنـ يـعـرـفـهـ.

لقد قضـىـ سنـوـاتـ وهوـ يـحـلمـ بـإـنـشـاءـ أـسـرـةـ، تلكـ الأـسـرـةـ التـيـ حـرـمـهاـ وـتـأـذـىـ منـ حـرـمانـهـ منـهاـ. كانـ يـتـوقـ لـأـنـ يـكـونـ لهـ أـوـلـادـ حتـىـ يـرـسـخـ وـجـودـهـ فيـ هـذـاـ العـالـمـ. كانـ يـطـمـعـ، فيـ هـذـاـ العـالـمـ العـدـوـانـيـ اللـإـنـسـانـيـ، إـلـىـ أـنـ يـنسـجـ عـلـاقـاتـ مـتـيـنةـ، وـبـيـنـيـ فـضـاءـ عـاطـفـياـ آـمـنـاـ. لكنـ الـأـمـورـ لـنـ تـسـيرـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ. فـهـوـ سـيـخـتـفـيـ يـوـمـ غـدـ، وـسـتـعـودـ جـوـليـيـتـ عـلـىـ الـأـرـجـعـ إـلـىـ بـلـدـهـ، وـسـتـعـيدـ بـنـاءـ حـيـاتـهـ. وـرـبـماـ لـنـ يـسـمعـ عـنـهـ أـبـنـهـ قـطـ. بـعـدـ كـلـ شـيـءـ، مـاـ الإـرـثـ الذـيـ سـيـتـرـكـ لـهـ؟ لـمـ يـكـنـ يـمـلـكـ شـيـئـاـ: لـاـ ثـرـوـةـ وـلـاـ شـيـئـاـ يـذـكـرـ بـمـرـورـهـ عـلـىـ الـأـرـضـ. مـنـ الـمـؤـكـدـ أـنـهـ عـالـجـ مـئـاتـ الـأـشـخـاصـ وـأـشـفـاهـمـ، لـكـنـ مـنـ نـهـمـ سـيـذـكـرـ ذـلـكـ؟

ورـاـودـتـهـ فـكـرـةـ مـفـاجـئـةـ: لـمـاـذـاـ لـاـ يـتـزـوـجـ جـوـليـيـتـ قـبـلـ موـتهـ؟ هـذـاـ هوـ الـحـلـ؟ هـذـاـ معـناـهـ أـنـهـ سـيـعـتـرـفـ رـسـميـاـ بـابـنـهـ. فـكـرـ لـحـظـةـ، ثـمـ أـخـرـ

الهاتف النقال الذي استعاره من جولييت واتصل بسيتي هال لكي يستخبر عن الخطوات التي عليه اتباعها. هل بإمكانه أن يتزوج في ذلك المساء أم في صباح الغد؟ أجابوه بأنه لا يوجد في لاس فيغاس حيث بإمكان المرأة أن يتزوج بهذه السهولة، وأن عليه في ولاية نيويورك أن يحصل على <sup>(1)</sup>wedding license التي يجب تقديم طلبها أربعاً وعشرين ساعة قبل حفل الزواج. الأمر معقول: كانوا يريدون أن يتلافوا الزيجات الناشئة عن نزوات عابرة. أنهى سام المكالمة والخيبة تعصر قلبه. لم تكن الأربع والعشرون ساعة المطلوبة في متناوله.

- هل ستثبت على حبي إلى الأبد؟

كان سام مستغرقاً في أفكاره، ولما رفع رأسه تنبه إلى جولييت التي كانت تقف أمامه على أصابع رجلها تنتظر قبلة، فأجاب وهو يقبلها:

- إلى الأبد.

كان يتمتنى لو يكون ذلك حقاً، لكن هناك أشياء في الحياة لا يمكن الإفلات منها كما تقول غريس كوستيللو.

وبينما كانت جولييت تصعد إلى سيارة الأجرة، كانت فكرة تختمر في ذهن سام.

- ألا يزعجك أن تعودي إلى البيت من دوني؟ أريد أن أمر على المستشفى.

- لكني كنت أتمنى قضاء السهرة معك!

- أرجو أن تقبلني، لن أتعجب لأكثر من ساعتين. لدى أمر في غاية الأهمية.

---

(1) رخصة الزواج. (المترجم)

مطّت شفتيها دلالة على التذمر، ثم قالت وهي تغلق باب السيارة  
وبتعث له بقبيله:

- عدنى بـألا يستغرق غيابك عنّي أكثر من ساعتين!  
لما وجد نفسه بمفرده، نظر إلى الساعة: لم يكن الوقت متاخراً،  
لو أسرع لربما فضل له الوقت. ودون أن ينتظر سيارة أجرة أخرى،  
ولج أقرب محطة مترو، لكن بخلاف ما قاله لحوليت، لم يتوجه إلى  
المستشفى بل إلى البنك. ولما وصل، شرحت له موظفة الاستقبال:  
- مستشارونا الماليون لا يستقبلون الزبائن إلا بناءً على موعد  
محدد مسبقاً، ولكن من المحتمل أن يكون أحدهم متقدماً في العمل  
بالنظر إلى مواعيده، انتظر قليلاً، سأستخبر.

انتظر سام في فضاء أشيه بقاعة انتظار حيث كان بوسعي أن يطلع على المطبوعات الموضوعة رهن إشارة الزوار. وبهذا فعند دخوله إلى مكتب «إد زيك»، المستشار في الاستثمار، سيكون بإمكانه أن يحدد تفاصيل مشروعه.

- فيم يمكن أن أساعدك يا سيدى؟

- أودّ توقيع عقد تأمين.

- لدينا صيغة ممتازة، بسيطة ورخيصة لضمان مستقبل أقربائك.  
هـز سام رأسه داعياً إيهام لمواصلة كلامه.

- لعلك تعرف المبدأ الذي تقوم عليه عقود تأمين الوفاة؟ عليك أن تدفع مساهمة كل شهر. فإذا لم يحدث لك شيء، وندعو رب لا يقع لك شيء، لن تسترد المبالغ التي اشتريت بها، لكن في حال وفاتك، ستدفع مبلغاً مالياً لأبنائك... أو لشخص آخر، كل هذا دون حاجة إلى أداء رسوم التركة.

- هذا بالضبط ما أبحث عنه.

هكذا، لم تكن تمضي نصف ساعة حتى كان الرجالان قد اتفقا على مبلغ قسط تأمين بمبلغ (750000 دولار) وعلى أن المستفيد من العقد هي (جولييت بومان).

أتّم سام ملء استماراة، والتزم باجتياز فحص طبّي منذ الصباح مشفوعاً بتحليل للدم. وقد كانت الشكليات الطبية مخففة بالنظر إلى سنته. ثم قدم له «إد زيك» قائمة بعناوين المؤسسات المقبولة، والتي من ضمنها، لحسن حظه، المستشفى الذي يشتغل فيه. هكذا فبوسعه أن يجتاز هذا الفحص الطبي صباح الغد. ومن ضربات الحظ أيضاً أن زيك يعمل يوم السبت، واقتصر عليه أن يصادق على الملف بمجرد ما يحصل على الفاكس المطلوب.

وبينما كان سام يهم بوضع توقيعه، اقترح عليه موظف البنك، بلهجة من يلوح بسرّ، ضماناً إضافياً: مضاعفة القسط في حالة ما إذا كان الموت ناجماً عن حادثة.

قطّب سام حاجبه وتظاهر بالتفكير. فقد سبق أن استفاد من دروس في الاقتصاد الطبي، وهو يعرف جيل التسويق هذه. ذلك لأنّ حالة موت واحدة فقط من أصل اثنين عشرة أو ثلاثة عشرة تنتج من حادث. وبذلك فإن المؤمنين لا يتحملون إلا قليلاً من المخاطر الإضافية في هذه الحالة، بينما ترفع الزيادة في المساهمة كثيراً هامش أرباحهم.

أجاب سام وهو يفكّر في حادثة عربة الكواكب التي ستؤدي بحياته:

- حسناً.

مدّ له «إد زيك» يده مصافحاً وهو يبتسم ابتسامة عريضة، مقتنعاً بأنّه قد نجح في الاحتيال على هذا الزبون المثالي.

قال سام في نفسه وهو يودّعه: لن تضحك هكذا غداً، لكن ذلك  
كان أبعد من أن يؤاسيه.

لما خرج إلى الشارع كان الظلام قد بدأ يخيم، والبرد قارس،  
ولاحت له النجوم الأولى في السماء.  
تنفس الصعداء. فهو قد ضمن لجوليت وابنه مستقبلهما المادي.  
لكنه كان يعلم أنّ المال يشكل أحياناً حلاً خادعاً.

\*

### جنوب بروكلين - حي بنسونهورست - بداية المساء

ارتقى مارك روتييلي طابقي عمارة صغيرة من الطوب البني. فتح باب شقتة لكته لم يشعل النور فوراً. كانت ستائر النوافذ قد بقيت مرفوعة فسلط البدر على الغرفة نوراً خافتًا لطيفاً. وبخلاف ما قد يتوقع المرء، فقد كان المسكن البسيط العادي نظيفاً وأنيقاً.

لم يكن روتييلي قد عاد إلى بيته منذ يومين، ذلك أنه قضى الليلة السابقة بالمستشفى بعدما قضى كل يومه في الخدمة. كان يشعر بنفسه على أحسن ما يرام طالما أن العمل يشغله، لكنه الآن يخشى أن يجد نفسه وحيداً. وضع قرصاً في جهاز قراءة الأقراص: سمفونية لبروكوفيف. كان مولعاً بالموسيقى الكلاسيكية وعارفاً بها. ولم يعد الناس يتعاملون معه إلا منذ فترة قصيرة، إذ كانوا يعتبرونه سكيراً أجلف، ولم يكن هو يبذل أي جهد لجعلهم يغيرون نظرتهم إليه، لكن من سبق أن تعاملوا معه يعلمون أنه مثقف ورهيف الإحساس.

استحم ثم حلق ذقنه وارتدى ملابس نظيفة: سروال جينز أسود وقميصاً أزرق فاتحاً كانت غريس قد أهداه إياه منذ زمن بعيد، ولم يلبسه منذ سنوات. ثم نظر إلى نفسه في المرأة، وهو ما لم يجرؤ على

فعله منذ شهور. لم يكن يحب في العادة أن يرى نفسه، لكن منذ أن أنقذ جودي، صار يشعر بأن شيئاً ما تغير فيه، وبدأ راضياً على الصورة التي عكستها له المرأة.

توجه إثر ذلك إلى المطبخ وفتح الثلاجة ليتناول منها حزمة من سلطة علب بيدوايزر، وهي حصته أو بالأحرى جرعته الالزمة لكي يجد النوم طريقة إلى جفنيه. كان يعرف جيداً ما سيحدث: سيشرب حتى يشمل فيداهمه نوم مضطرب سيمتد حتى الثالثة صباحاً. عندها سيستيقظ متزعجاً ومرتعشاً، ولكي يعود إلى النوم حتى الصباح، سيكون بحاجة إلى قدر فودكا مليء.

وضع علب الجعة السلة على المائدة، لكنه لم يلمسها.  
لماذا هذا اللعب؟ أنت تعلم بأنك ستشربها في آخر المطاف.  
فتح العلبة الأولى من دون أن يشرب منها.

لعلك تتسلل بإقناع نفسك بأن المسألة ليست سوى مسألة إرادة!  
سكب محتوى هذه العلبة في حوض المطبخ، ثم محتوى العلبة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة.

لم تبق غير واحدة الآن، هيأها، واصل إراقتها لترى.  
كانت شهوته في الشرب لا تقاوم، لكنه سكب العلبة الأخيرة بكاملها، وفتح الصنبور ليطرد الرائحة.

أشعل سيجارة وخرج إلى الشرفة. سيدهب غداً إلى سام غالواي ليطلب مساعدته، وسيوازن على العلاج إنْ لزم الأمر. ولأول مرة بدا له أن هذا الأمر يستحق العناء. سيُقلع عن الشرب من أجله هو ومن أجل جودي.

نفح في يديه لكي يدفعهما، لأن البرد كان قارساً ولاسعًا. وبينما كان يهم بالدخول إلى الغرفة، سمع وقع خطوات وراءه.

- مرحباً ماركو.

استدار فجأة وقد اعتراه الذهول من نبرة الصوت الذي كلامه.  
كانت غريس واقفة على بعد ثلاثة أمتار منه، وكانت متألقة  
وهادئة تماماً كما يحتفظ بها في ذكرياته.

بدا روتيللي مبللاً من أثر الانفعال.

اللعنة، لم أشرب قطرة كحول منذ يومين...

لعله فقد صوابه. تقدم نحوها وهو يحاول أن يكلّمها، لكن  
صوته تهدّج:

- لـ... . . أـفـهـ . . . مـ . . .

قالت له وهي تضع أصبعها على فمه:

- ليس ثمة شيء ذو بال تفهمه.

طوقته بذراعيها، فطاوّعها.

ظلا متعانقين لفترة طويلة، ووجد روتيللي رائحة بشرة زميله كما  
كانت في السابق، مزيجاً من الحليب والفانيلا، وهي رائحة لم تر  
ذاكرته قط.

قال معترفاً:

- لقد اشتقت إليك كثيراً.

- وأنا أيضاً اشتقت إليك يا ماركو.

وسمع روتيللي قلبه يدق بشدة من الانفعال والقلق. كان يمسك  
بيد غريس، شاذآً عليها بقوّة كما لو أنه خائف من أن يفقدها ثانية.

قال بعد جهد:

- لقد عدت أخيراً.

حدّقت في عينيه ووضعت يدها على خدّه.

- نعم يا ماركو . . .

توقفت وقد أخذ منها الانفعال مأخذها هي أيضاً، وقالت:

- ... لكثني لن أمكث.

انطفأ الألق البدائي في عيني روتيللي فوراً. ووضع غريس رأسها على كتفه.

- سأشرح لك كلّ شيء.

\*

بعد ساعة كانت غريس قد حكت لروتيللي قصتها العجيبة.

لمرات عديدة قطّب حاجبيه استغراباً، لكن لم يكن بوعيه إلا الرضا بما حكته له زميلته. ورغم أنّ هذه القصة تقوّض كلّ المعاالم التي كان يرتكز عليها، فإنه أدرك أنّ غريس صادقة. ومن شدّة سعادته بعودتها، لم يشلّ عليها بأسئلة كان يعلم بأنّها ستظلّ من دون جواب إلى الأبد. والغريب هو أنّ غريس هي من كانت تسعى للاستخبار. قالت وهي تمدّ له حزمة من الأوراق:

- لعلك تستطيع مساعدتي.

فتح روتيللي الحزمة وانتبه إلى أنّ الأمر يتعلق بتقرير تشريح جثتها. كان قد قرأه لمرات عديدة، لكنه راح يتفحّصه من جديد بعناية.

- ألا تجده غريباً؟

- ماذا تقصدين؟

- أقصد آثار الهرولين يا مارك! من أين أنت؟ فأنا لم أكن أتناول

المخدّرات!

تنهد روتيللي وأثر الانزعاج ظاهر عليه.

- ألا تذكرين؟

- كلا.

شعرت غريس في هذه اللحظة بالخوف مما سيقول. لم تُعد  
وافية من أي شيء. أي شخص كانت؟ أكانت لديها أمور تخفيها؟  
- لقد اقترحت عليك شعبة محاربة المخدرات منصب عميل  
مندسي . . .

- أكنت أتظاهر بالاشغال في المخدرات؟

هزّ روبيلي رأسه موافقاً:

- لما قتلوك، كنت تحاولين اختراق عصابة تجّار مخدرات.

- هذا هو ما يفسّر وجود آثار المخدرات . . .

- أنت تعرفي النفاق الذي يسود في مثل هذا النوع من  
الأعمال . . .

حرّكت غريس رأسها مؤيّدة، فقد شرعت تتذكّر. فقد كان على  
عملاء الشرطة المندسين أن يحقّنوا أنفسهم بالمخدرات في كثير من  
الأحيان أمام أفراد العصابات وذلك من أجل التمويه والتظاهر بأنّهم  
معهم. وغريس تعلم أنّ العديد منهم كانوا يصيرون مدمنين بدورهم،  
فيغيّرون المعسّكر.

قال روبيلي مؤكّداً:

- ثقي بأنّني حاولت إقناعك برفض هذا المنصب، لكنك كنت  
لا تزالين شابة، جسورة ومندفعـة، باللغة الوثيق فيما تعملين.  
- كنت أرغب في أن أكون نافعة للمجتمع، وأمنع ابنتي عالماً  
آمناً.

- أجل، لقد كنت عنيدة، واضح إلى أين قادك عنادك!

فقالت معلقة وهي تفكّر فيما آلت إليه جودي:

- الحياة قاسية في كثير من الأحيان.

فقال روتيللي موافقاً:

- أجل قاسية وقصيرة.

وخيّم على الشرطين فجأة حزن عميق، تنبّهت له غريس ولامت نفسها على بثّ الفتور في حرارة لقائهما، فاقترحت قائلة لكي تعيد المرح لجلستهما:

- لا داعي لإفساد هذه السهرة يا ماركو. خذني لتعشّى في مكان ما.

- حيث تريدين.

فقالت بمكر:

- إلى مطاعمنا المألوفة.

استقلّا السيارة لبعض دقائق باتجاه الشمال، وركناها عند بروكلين هايتز، على بعد خطوات من ريفر كافيه. كان المطعم الشهير ذي الصيت العالمي يقدم منظراً فريداً لمانهاتن وبروكلين بريديج. لما كانا يقونان بجولات في الحيّ في الماضي، كانا يقولان دائمًا بأنّهما سيُهديان نفسيهما يوماً وجبة فاخرة في هذا المطعم الرّاقي إن توفر لهما المال. وفي انتظار أن تواتيهم الفرصة لتحقيق هذا الحلم، كانوا يشتريان بيتزا لدى غريمالديس، ويعودان إلى سيارتّهما لكي يأكلاها. فما كانا يسميانه مطعمهما المألوف هو التّهام البيتزا داخل السيارة، وهو بديل أقلّ كلفة من ريفر كافيه. قد يكون أقلّ أناقة، لكن المنظر لم يكن يقلّ جمالاً على الأقل.

بقيت غريس لوحدها بينما ذهب روتيللي لشراء الطعام. نقر على النافذة واندفع إلى داخل السيارة حاملاً علبة من الكرتون.

- إنّها بيتزا ديل ماري، ما زلت أذكرها!

- لديك ذاكرة قوية!

وكما كان الأمر في الماضي، أكلا وهما ينصنان للمذيع، ونظراً لهم ساهمة في الجانب الآخر من جسر بروكلين. وعلى المذيع كان نيل يونغ يعزف على غيتارته أبدع الحان هارفيست مون. وكانت ناطحات سحاب لا وور مانهاتن تمتد أمامهما، وانتابهما من جديد شعور بأنهما يملكان المدينة. لقد قضيا هنا ساعات وساعات في النقاش والشجار والمزاح وإعادة تشكيل العالم.

بعد صمت ثقيل، طرح روتيللي السؤال الذي تلافقه منذ مدة:

- ألا تستطيعين البقاء لفترة أطول؟

هزت غريس رأسها ببطء.

- كلا يا ماركتو، يكفي أن ما أقوم به الآن فيه كثير من اللامسؤولية...

- لكن، متى سترحلين، وكيف؟

حكت له ما كان سيقع في اليوم الموالي بعبارة كوابيل روزفلت آيلند، فتملّكته كآبة عميقّة جعلت غريس تحاول إقناعه:

- ينبغي أن تكف عن النظر إلى نظرة مثالية. عليك أن تتعلم العيش من دوني.

- لا أستطيع.

- لكنك تستطيع، فأنت لا تزال شابة، ولديك العديد من المزايا. تستطيع أن تعيد بناء حياتك، وتوسّس أسرة وتحيا سعيداً.

وما أطلب منه من فضلك، هو أن تعتني بجودي.

التفت روتيللي بعنة نحوها وهو يقطّب حاجبيه:

- ... أنت؟

ردت غريس بلطف:

- أنا ميّة.

لكن مارك روتيلى لم يستطع قبول هذه الحقيقة .  
- كان على أن أرافقك في ذلك المساء الذي اغتالوك فيه . كان  
عليّ أن أكون هناك لحمايتك ، وألا أتركك أبداً !  
- كلا يا ماركو ! كلا ! لا تلُم نفسك ، هكذا جرت الأمور ، وهذه  
هي سنة الحياة !

لكن روتيلى لم يتزحزح عن رأيه :  
- كان كلّ شيء سبب في اتجاه مخالف .  
Sad صمت ثقيل ، وانطوى كلّ منهما على نفسه إلى أن مسحت  
غريس على شعره وقالت هامسة :  
- عليك أن تسلم بالواقع ، وتقبل به نهائياً .  
واكتفى روتيلى بأن هزّ رأسه .  
- افعل هذا من أجلي . حطم جدار الوحدة والإدمان الذي ضربته  
على نفسك .  
- آه لو علمت مدى حاجتي إليك يا غريس .  
انقطع صوته فأدار وجهه حتى لا ترى دموعه . ردّت وهي تنحني  
عليه :

- أنا أيضاً أشعر بالحاجة إليك .  
نسيا عندئذ كلّ شيء وانخرطا للمرة الأولى أخيراً في قبلة طويلة .  
عادا إلى بنسنورست بعد منتصف الليل بقليل . وبالوصول إلى  
أسفل العمارة ، ظنّ روتيلى بأنّ لحظة الفراق قد أزفت ، فانقبض  
قلبه .

- اسمعي ، عليك أن تعلمي حقاً . . .  
لكن غريس قاطعته بلطف :

- أعلم يا ماركو، أعلم.

كانت تبذل قصارى جهدها حتى لا تترك العواطف تستبدّ بها.

لهذا قالت بنبرة هازئة:

- ألا تدعوني لشرب آخر كأس؟ كنت أظنّك تعرف كيف تتودّد

للنساء . . .

صعدا الدرج مرتبكين، لكن ما إن أغلقا الباب، حتى زال ارتباكهما، وتعانقا بلهفة أصابعهما بالدوران. كانوا يعلمان معاً بأنّ هذه الليلة ستكون ليتهمَا، وأنّها ستكون الأخيرة.

استمتعا إذن بكل ثانية من هذا اللقاء، ولم يعد للزمن وجود بالنسبة إليهمَا. كلّ ما كان ثمة كائنان ولهانان، يتحابان كما لو أنّ الفراق لن يعرف إليهمَا سبيلاً.

استيقظ روتيللي عند الفجر على هديل الحمام وتغريد الزرزور. كانت الشقة مضاءة بنور أزرق خافت. وكانت أول حركة قام بها هي الالتفات إلى الوسادة: حدث ما كان يتوقعه. لقد اختفت غريس، وهو يعلم بأنّها لن تعود أبداً. قام واقفاً يتنفس ونظر عبر النافذة إلى الفجر.

فكّر طويلاً في كلّ ما قالته له إلى أن ألحت عليه فكرة كما لو كانت أمراً بدبيها. قلبها من كل جوانبها، ثمّ أخذ قراره. ولما أغلق النافذة، كان قلبه مفعماً بالسکينة.

لما أفكر في كل ما وقع لي، لا أستطيع أن أنزع من ذهني فكرة أن ثمة قدرًا عجيباً ينسج خيوط حيواتنا برؤيه للمستقبل بالغة الواضح، دون أن يأخذ في اعتباره رغباتنا ومسارينا.

عن ماتيلد أسانسي، بتصرف

- سأصرف يا حبيبي .  
استيقظ سام فزعاً، فقبلته جولييت النضرة الأنique في عنقه وهي تضع صينية الفطور وسط السرير .
- انتصب جالساً باندفاع ، وسألها وقد راعه تأبهها للخروج :  
إلى أين أنت ذاهبة؟
- الفتاة التي كانت تقسم معي الشقة ، كولين ، تنتقل إلى مسكنها الجديد اليوم . سأذهب لمساعدتها هذا الصباح .
- نهض واقفاً في لمع البصر وقد ساءه تأخّره في النوم . كيف استغرق في النوم العميق مع ما يشعر به من كرب؟ ثم غمم :
- ولكتني ... كنت أظنّ أننا سنقضي الصباح معاً ...
- لنأتغيّب إلا لبعض ساعات . يمكن أن نتغذّى معاً في بداية الظهيرة .

في بداية الظهيرة سأكون قد مت! مدت له فطيرة مدهونة بالمربي، ولم يُعد يستطيع تحويل بصره عنها. نظرت إليه وهي تبتسم مسروقة بكلّ هذا الاهتمام الذي يوليه لها. كان كلّ شيء فيها متألّقاً. فالياغورت (اللبن) الذي نسيت أن تمسحه عن فمها يرسم فوق شفتيها شارباً دقيقاً أبيض، وأشعة الشمس المسلطة على شعرها جعلته يبدو بلون الذهب.

وتعالى تحت النافذة صوت بوق سيارة، فقالت جولييت وهي تنظر من خلال زجاج النافذة:

- إنّها كولين. فقد طلبت منها أن تلحق بي هنا.

زرّرت معطفها، وتناولت وساحها الملؤن. وبينما كانت تهم بالخروج، بادرها سام قائلاً:

- انتظري لحظة!

لحق بها قرب الباب وأمسك يدها. قبلته فحشر رأسه في حضنها ليشمّ عطرها الذي يعيق برائحة الزهر والممشمش.

وقالت ساخرة بلهفة من تلهفه:

- لن أتغيب إلا لبضع ساعات يا حبيبي.

أما أنا فسأتغيب إلى الأبد.

ها هي تفلت منه، ولن يراها ثانية. لم يخطر على باله أنّ الأمر سيجري على هذا النحو، وبهذه السرعة. أيّ ذكرى ستحتفظ بها عنه؟ لم يمضيا معاً إلا فترة قصيرة للغاية. وَدَ لو يقول لها أشياء كثيرة، لو تعرّف عليه أكثر، وَدَ...

لكن، لعلّ الأمر سيكون أخفّ عليها هكذا. ثمّ انتهى به الأمر إلى أن استسلم وترك يدها. فتحت الشابة الباب ونزلت الدرج، وتعقبها سام إلى أن بلغت الشارع حيث اندفعت داخل سيارة كولين

القديمة، وانطلقت السيارة وانعطفت عند ركن الشارع. لوحظ جوليت عبر الزجاج بعاتها المحمول، وتمكن سام من فهم جملتين من خلال حركات شفتيها:  
الأولى هي: سأهاتفك.  
والثانية: أحبك.

\*

بعد أن اغتسل ولبس، هرع سام إلى المستشفى لإجراء الفحوصات المطلوبة للتصديق على عقد التأمين. فقد أخطر في اليوم السابق جانيس فريمان بزيارته، فرتب له كل شيء بحيث لم يستغرق منه ذلك أكثر من ساعة. وبينما كان يبعث بنتائج الفحوصات عبر الفاكس، تبَّأَ بمرارة إلى أنه سيموت وهو في تمام الصحة والعافية. لو كان الأمر بيده، لظل هناك يعمل بحيث يشغل الساعات القليلة المتبقية من حياته بشيء نافع. فمنذ أن استيقظ وهو يشعر بغم عميق يلازمه، وصار يخشى أن يبقى بمفرده، لكنّ جانيس فريمان التي كانت تجهل عذابه أمرته بالانصراف ناصحة إياه بالاستمتاع بعطالته القسرية.

كانت المدينة في الخارج تبدو متوجهة من أثر انعكاس أشعة الشمس على الثلج. ولما سار على الرصيف، كان يتعمّد ملامسة المارة، وشعر بنفسه كنقطة ماء تسبح في موجة، أي إنسان بين البشر. هذا التوحد الحسي وسط الحشود هدأ من روعه، وبدد مخاوفه. كان يسرع في المشي حتى يستدفء، مستمتعاً بصوت طقطقة الثلج تحت قدميه. توقف عند مقهى بورتبيلو، وجلس إلى إحدى الموائد وطلب كابوتشينو.

وقبل أن ينصرف، بقي أمامه أمر مهمٌ عليه أن يقوم به: الوفاء

بوعد. رَكِبَ عَلَى هَاتِفَهُ الْمَحْمُولِ رَقْمَ بَايْرَفَالِي سَنْتَرْ هَارْتْفُورْدْ، وَهُوَ مَرْكَزُ لِعَلاَجِ الإِدْمَانِ، مُتَخَصِّصٌ فِي التَّكْفُلِ بِالْمَرَاهِقِينَ. وَكَمَا كَانَ يَتَوَقَّعُ، كَانَتْ لِائِحةُ الانتِظَارِ طَوِيلَةً، تَغْطِي أَشْهُرَ السَّنَةِ الْمُقْبَلَةِ، وَكَانَ وَلُوجُ هَذَا الْمَرْكَزِ يَكْلُفُ أَكْثَرَ مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ دُولَارٍ، لَكِنَّ سَامَ لَمْ يَدْخُرْ جَهَادًا فِي الدِّفاعِ عَنْ جُودِيِّهِ، مُلْحَّاً عَلَى الْمَحْنَةِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا، وَضَرُورَةُ قَبْولِهَا عَلَى وَجْهِ الْاسْتِعْجَالِ فِي الْبَرَنَامِجِ. وَمَا هِيَ إِلَّا عَشْرُونَ دَقِيقَةً حَتَّى كَانَتْ مَرِيضَتِهِ قَدْ قُبِّلَتْ، لَكِنَّ بِشَرْطِ أَدَاءِ مَصَارِيفِ الْعَلاَجِ كَامِلَةً فِي الْيَوْمِ نَفْسِهِ. هَكَذَا هَاتِفُ سَامَ مَصْرُوفُهُ فُورًا وَطَلَبَ مِنْهُمْ موافَاتَهُ بِالْمَبْلَغِ الْمُوْجُودِ فِي حِسَابِهِ. كَانَ دُخُلَهُ مِنْ مَنْصِبِهِ كَطَبِيبٍ فِي الْمُسْتَشْفَى زَهِيدًا بِالنَّظَرِ لِمَا كَانَ يَمْكُنُ أَنْ يَكْسِبَهُ مِنْ الْعَمَلِ فِي الْقَطَاعِ الْخَاصِّ، وَهُوَ قَدْ اَنْتَهَى بِالْكَادِ مِنْ تَسْدِيدِ الْقَرْضِ الَّذِي حَصَلَ عَلَيْهِ لِمَتَابِعَةِ دراستِهِ.

أَخْبَرَهُ مَوْظِفُ الْبَنْكِ قَائِلًا:

- بَقِيَ فِي حِسَابِكَ أَحَدُ عَشَرَ أَلْفًا وَثَلَاثَمَائَةً وَعِشْرِينَ دُولَارًا. تَرَدَّدَ سَامُ، ثُمَّ أَمْرَ بِتَحْوِيلِ هَذَا الْمَبْلَغِ إِلَى حِسَابِ بَايْرَفَالِي سَنْتَرْ، وَتَرَكَ رِسَالَةً لِمَصَالِحِ الْمُسْتَشْفَى الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِيُخْبِرُهُمْ بِمَا قَامَ بِهِ مِنْ إِجْرَاءَتِهِ.

وَقَالَ فِي نَفْسِهِ وَقَدْ اعْتَرَاهُ شَعُورٌ بِالضَّيقِ: إِنَّهُ آخِرُ عَمَلٍ أَقْوَمُ بِهِ كَطَبِيبٍ.

وَأَجْهَدَ نَفْسَهُ مَعَ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَفْكَرَ فِي هَذَا الْأَمْرِ كَثِيرًا، ثُمَّ جَالَ بِبَصَرِهِ فِي الْقَاعَةِ.

لَمْ يَضْجُرْ هَذَا الصَّبَاحِ مِنَ النَّظَرِ إِلَى النَّاسِ الَّذِينَ يَحِيطُونَ بِهِ. كَانَ بُوَدَّهُ لَوْ يَقْفَ وَيَقُولُ كَلْمَةً لِكُلِّ مَنْهُمْ. وَبِدَتْ لَهُ كُلُّ التَّفَاصِيلِ، حَتَّى أَصْغَرُهَا، مَحْمَلَةً بِالْدَّلَالَةِ وَالْجَمَالِ: أَشْعَةُ الشَّمْسِ الَّتِي تَخْتَرِقُ

زجاج النافذة، الضحكات المتعالية حول الموائد، رواحة القهوة والحلويات... لماذا كان يلزم أن يقف على عتبة الموت لكي ينتبه لتلك الأشياء الصغيرة التي تمنح الوجود طعمه ويقدّرها حقّ قدرها؟  
رفع عينيه نحو الساعة الجدارية فلماً أمام هذه الدقائق التي تنقضى بسرعة الواحدة تلو الأخرى. أهي النهاية قد حلت إذن؟ ماذا رأى من الحياة؟ لا شيء ذا بال. فكر في البلدان التي لم يزور، وفي الصفحات التي لم يقلّبها بعد، وفي كل المشاريع التي أجلها...  
غادر المقهى والكافية تعصر قلبه. كانت تمرّ في مخيّلته صور الأيام الأخيرة بسرعة فائقة، وحاول أن يجد معنى لما وقع فيها من أحداث. لماذا يشعر بأنه أغفل شيئاً مهماً؟  
وبينما هو يفكّر في ذلك، تذكّر حادثاً بسيطاً شوّشه، ولم يُعرّه ما يكفي من الانتباه. وبلغ إلى ملتقى الشارع الثاني والشارع الرابع والثلاثين حيث كانت مجموعة من سائقي سيارات الأجرة في انتظار الزبائن، فأوّلماً بيده ليوقف أحدهم.  
كان يرغّب في، أن يزور شريك باويا، لأنّه مرة.

\*

لم يتَفاجأ شايك لِمَا رأى سام يترجّل من سيارة الأجرة. وبقدر ما كان ينتظر زيارته من يومين كان يهابها. كان يشحّن صناديق مؤنّ في شاحنة صغيرة بمساعدة أحد المتطوّعين.

- هل أنتما بحاجة إلى مساعدة؟

- هذا عمل لا يقدر عليه ضعاف البنية مثلك.

فأجابه سام وهو يمسك بأثقل صندوق:

- أنت تعرّف ما يقدر عليه ضعيف البنية!

وراح الرجال ينقلون الصناديق في صمت، وما هي إلا لحظة حتى كانت صناديق المؤونة قد أخذت مكانها على الشاحنة، ثم أضاف شايك بعض الأغطية وحقيقة أدوات تنظيف وصاج وهو يرى الشاحنة القديمة تبتعد:

- انطلق يا مولو!

فأجابه المتطوع بتزميرتين من بوق السيارة. إثر ذلك التفت شايك نحو سام وقال له:

- ماذا بك يا رجل؟ تبدو سيئ الحال.

- هنئ لي كوب قهوة.

صعدا إلى الشقة، وبينما كان شايك يهنيء القهوة أمام آلة الإكسبريسو القديمة، مضى سام ينظر مستغرقاً إلى الصليب الموشوم على ساعد صديقه، وقال بصوت يشيب بالغضب:

- لم يسبق لي أن رأيته.

فرد شايك وهو يقدم له القهوة:

- من تقصد؟

- أقصد إلهك. لم يسبق لي أن رأيته لا في الحي لما كنت طفلاً ولا في المستشفى، ولا حتى في أيٍ من البلدان التي زرتها، والتي تعاني من ويلات الحرب...

فأجابه القسّ وهو يفتح النافذة:

- وهو مع ذلك حاضر معنا، عليك أن تتعلم كيف تراه يا رجل.  
وألقى سام نظرة عبر النافذة.

كان ثمة طفلان، بنت وولد، يلعبان في ملعب كرة السلة. هو أسود وهي آسيوية، وهما دون العاشرة. رسمت مربعات بالطباشير

لتلعب الحجلة بينما كان هو يتمرن على رمي الكرة في السلة. وما هي إلا دقائق حتى حلّ أطفال أكبر منها وأقوى، فاستولوا على الملعب وطربوهما، لكتهما ظلا يشغلان الملعب لبعض الوقت. كان الولد بديناً وقصير القامة بحيث تبدو الكرة ضخمة بين يديه لما يمسكها. ورغم ما بذله من جهد فإن رمياته لم تنجح حتى في إصابة الإطار، وهو ما يمنع صديقته الصغيرة من تشجيعه بود. قضى دقائق على هذه الحال إلى أن أثمرت جهوده، فجلس رغم البرد على الجدار القصير الذي يحيط بالملعب، وأخرج من محفظته فطيرة بالشوكولاتة اقتسمها مع رفيقه التي راحت تضحك بصوت عالٍ.

التفت سام إلى صديقه وقال:  
- إنّه أمر جميل ، لكنه غير كافٍ .  
- غير كافٍ؟  
- كلا .

كان الجواب جلياً وحادةً، فتنهد شايك:

- ماذا ت يريد أكثر من هذا؟
- أن أفهم.
- تفهم لماذا؟

معنى كلّ هذا: الحروب السخيفه والأمراض المعضله  
والاعتداءات التي تضرب بشكل عشوائي . . .  
- إنّ كلامك يصيبني بالقرف يا سام. الإنسان حرّ في السراء  
والضراء، فلا تحمل الرب ثمن هذه الحرية.  
قام شايك وأشعل سيجاراً أدرك سام من رائحته أنه لم يكن  
يحتوى على التبغ فقط.

- ماذا أصابك.

- إنني خائف يا شايك.

- لماذا؟

- لأنني سأموت.

- كف عن هذه الترهات.

صفق الريح النافذة، فنهض سام ليغلقها. كانت الشمس قد اختفت، وشرعت غيوم سوداء تصعد مسرعة نحو الشمال، فأغرت الغرفة في الظلام، مما جعل شايك يهم بإشعال مصباح، لكن الزجاجة انفجرت.

- عليّ أن أنصرف.

بينما كان سام يهم بتنزول السلالم، أمسك شايك به.

- انتظر!

- ماذا؟

- لم أقل لك كل شيء في المرة السالفة . . .

جلس سام في أعلى الدرج. ورغم أنه خاف مما سي Bowman له به صديقه، بادر بالقيام بالخطوة الأولى.

- لعلك تعرفها، أليس كذلك؟ لهذا هتفت لي بالمستشفى.

- غريس كوستيللو؟ نعم، لقد سبق لي أن لقيتها.

- متى؟

- منذ عشرة أعوام.

- سنة وفاتها؟

حرك شايك رأسه مؤيداً.

- اعتقدت خلال تبادل إطلاق النار مع داستفاس بأنك قتلت أحد

زبنائه. أليس كذلك؟

فرد سام موافقاً:

- نعم. كان المكان معتماً، ولم يمحه إلا من الخلف، لكنني أذكر أنه كان يعتم بقبعة.
- لم يكن رجلاً يا سام.
- لم يفهم الطبيب شيئاً.
- ماذا تقصد؟
- بعد مرور ثوانٍ على إطلاق النار، فـ داستفاس عند سماع هدير السيارة. ظن الشرطة وصلت، غير أنني أنا من وصل. ذلك أن فيديريكا قلقت عليك، فأخبرتني عبر الهاتف.
- أعلم كل هذا.

كانت ذكريات الرجلين تومض في ذهنها بدقة مدهشة. وباسترجاع هذه الأمسية المؤلمة، شعرا من جديد بأجوائهما وبالخوف الذي انتابهما حينئذ.

تابع شايك:

- بدخولي إلى الغرفة فهمت فوراً بأن الأمور اتخذت منحي شيئاً، وأردت أن أحميك يا سام.
- فقال سام بألم والشعور بالذنب يفتّ قلبه:
- طلبت مني أن أهرب بسيارتك، فلم أثأ، عندها استشطت غصباً، مما كان متى إلا أن انصعت لطلبك.
- ذلك ما كان ينبغي أن تفعل. فسجن شخص مثلك عشرين عاماً أمر يدعو إلى اليأس من هذه الحياة. كان من اللازم أن تنهي دراستك، وهي أولوية آنذاك، ليس لك أنت فقط، بل لفيديريكا ولنا جميعاً.

- ربما...

واسترسل شايك يقول:

- ظللت بمفردي في تلك الحجرة. شعرت أنا أيضاً بالخوف، لكنني كنت أعلم بأنني قادر على تدبر الأمر. كان علي التخلص من الجثة. جثوت على ركبتي قربها، وكانت ممددة ووجهها إلى الأرض، فقلبتها. كانت جثة امرأة...  
أصيب سام بالذهول.

- فتشت جيوبها: لم تكن معها أوراق، لكنني عثرت على مفتاح سيارتها. خرجت من الشقة، وتعرّفت بسرعة على السيارة. كان عليّ ألا تركها في الشارع نفسه، وإنما الشرطة ستتحقق في بيدفورد. حملت جثة المرأة إذن إلى سيارتها، وانتقلت بها بعيداً من هنا حتى أضمن ألا يصلوا إليك أبداً.

ظلّ سام معقود اللسان، غير قادر على النبس بكلمة، فواصل شايك:

- ولم أتعرف على هوية تلك المرأة إلا بعد يومين بينما كنت أقرأ الجريدة: كانت تدعى غريس كوستيللو، وهي من الشرطة. واستنتجت من ذلك أنها ربما كانت تشغّل عميلة، وكانت تود اختراف شبكات المخدرات لتسقط أفرادها في يد الشرطة.

بدت ملامح شايك منهكة كما لو أنّ نبش هذه الذكريات جعله يبدو أكبر من عمره بسنوات. أمّا سام فكان لا يزال تحت وقع الصدمة، وكانت فرائصه ترتعد وقلبه يخفق بسرعة. وضع شايك يده على كتفه وقال:

- أتعلم لماذا قصصت لك هذا المقال من جريدة **النيويورك تايمز**? حتى أعرضه على أطفال الحي وأنا أقول لهم: «أتعلّمون ذلك

الشخص الذي صار طبيباً، هو أيضاً ولد في هذا الحي مثلكم، نشأ في هذا المكان المقرف. كان يتيم الأب، وأمه اختفت منذ ميلاده، ومع كل ذلك نجح. نجح لأنّه وفر لنفسه سُبل النجاح، ولأنّه لم ينصلّ لأولئك الأندال الذين حاولوا صرفه عن الطريق الذي رسم نفسه. هذا الشخص يدعى سام غالواي، وهو صديقي».

ردّ سام:

- شكرأً.

فقال شايك بهمة:

- لقد فعلنا معاً ما اعتقدنا أنّ علينا فعله. لست أعرف أحداً نحن مدینان له بشيء.

- مدینان لها يا شايك، لغريس كوستيللو...

ورتّب هذه العبارة في رأس سام كمنبه ذكره بالموعد. نظر إلى ساعته: لقد ضربت له غريس موعداً على الساعة الواحدة زوالاً، وال الساعة تشير إلى الثانية عشرة تقريباً. فقال باستعجال:

- ينبغي أن أصرف.

خرج إلى الشارع جارياً، وحاول شايك أن يستبقيه قليلاً:

- إلى أين؟ أنت ذاهب للقائهما، أليس كذلك؟

من حسن حظ سام أنه كان قد طلب من سائق التاكسي أن ينتظره. صعد إلى المقعد الخلفي للسيارة، فقال له القسّ بلهجة حازمة:

- سأراففك.

- كلا يا شايك، هذه المرة سأذهب بمفردي!

صفق سام الباب وفتح النافذة وقال بنبرة مطمئنة:

- لا تقلق عليّ، سأتصل بك.

انطلقت السيارة كالسهم نحو مانهاتن تاركة شايك باويل واقفاً

أمام باب الكنيسة وهو يتساءل عن معنى تلك العبارة الأخيرة.

31

الكون يحيرني، ولا أستطيع أن أتصور  
هذه الساعة بدون ساعاتي.

فولتیر

الساعة الثانية عشرة ودقيقة

كانت سيارة الأجرة تقطع جسر بروكلين ببطء، فقال سام  
للساائق: - أسرع !

هــ السائق كتفيه وهو يومئ لطابور السيارات التي بالكاد تتحرـك  
بسبب سوء الأحوال الجوية.

ذلك أن نيويورك كانت تتأهّب للمرة الثانية لمواجهة عاصفة ثلجية هوجاء. كان الريح عاصفاً، ومن يرى الغيوم الداكنة المتراكمة فوق ناطحات السحاب لن يصدق بأنّ الشمس كانت مشرقة في الصباح.

فتَّش سام في جيوبه بحثاً عن علبة السجائر، ولم يجد فيها غير سيجارة واحدة. فقال في نفسه وهو يشعلها: إنها السيجارة الأخيرة التي يدخنها المحكوم بالإعدام. نبهه السائق إلى لوحة تشير إلى منع التدخين.

- من فضلک پا سپدی!

فتح سام النافذة دون أن يطفئ السيجارة.

كانت اعترافات شايك قد زلزلته، لكنها وضحت له أيضاً بعض الأمور: فهو من قتل غريس، وعليه أن يموت بدوره. وإذا كانت هذه الحقيقة قد آذته كثيراً، فإنه قد فهم أخيراً بأن ما عليه أن يؤدي من ثمن هو جزاء الجريمة التي ارتكب. ذلك أن غريس قد عادت لتنقم منه، وهو أمر يبدو منطقياً، لكن عليه أن يتثبت من ذلك.

سؤال السائق:

- أليدك هاتف نقال؟

كرر السائق الباكستاني متظاهراً بأنه لم يفهم.

- هاتف نقال؟

- نعم، هاتف خلوي.

- كلا يا سيدى.

تنهد سام وهو يُخرج من حافظة نقوده ورقة من فئة عشرين دولاراً أقصها على الزجاج الذي يفصل بينهما.

- لا أريد غير مكالمة واحدة.

التقط السائق الورقة المالية ومدّ له هاتفاً صغيراً فضي اللون آخر جهه من علبة القفازات.

قال سام وهو يُمسك بالهاتف: المال يفتح كل الأبواب.

ركب رقم هاتفه، فأجابته غريس كما توقع:

- لعلك لم تنس موعدنا يا سام . . .

- لا تقلقي بهذا الشأن . . .

كان غاضباً عليها، وهو أمر لم يُخفه عنها:

- كنت تعلمين بأن الأمور ستنتهي على هذا النحو، أليس كذلك؟

- عمّ تتحدث؟

- كل تلك الحكاية التي نسجتها حول جولييت لم تكن سوى ذريعة، وسيلة لكي تجذبني إليك. منذ البداية كنت تعلمين بأنك جئت إلى هنا من أجلني ، لكي تتقمي . . .

- أنتقم مماذا يا سام؟

ألقي الطبيب من خلال زجاج النافذة نظرة مشوّشة. اصطبغت السماء بلون الرماد، وشرعت ندف الثلج الضخمة تساقط. أكانت غريس تتظاهر بالاستغراب، أم أنها تجهل حقاً هوية قاتلها؟ فقال ملحاً:

- كفي عن التمثيل، أنت تعلمين علم اليقين لماذا اختاروك لهذه المهمة.

فقالت مؤكدة:

- كلا!

فهم سام بارتاعب من نبرة إنكارها أنها لم تكن تكذب، وأنه هو من سيضطر لإخبارها بذلك.

لكنه لم يكن يعرف كيف يفاتحها بالأمر. لن يفعل ذلك بالهاتف! كان يتمتى أن تكون قبالته لكي ينظر في عينيها، لكنه لم يكن يستطيع الانتظار، لذلك بادرها بصوت متهدج:

- الشخص الذي أطلق عليك النار قبل عشر سنوات . . .  
الشخص المسؤول عن مقتلك وعن كل المصائب التي لحقت أقربائك . . .

ثم توقف هنيئة كما لو أنه يريد التقاط أنفاسه، قبل أن يقول أخيراً:

- هذا الشخص . . . هو أنا.

وبما أنها ظلت صامتة، أضاف قائلاً:

- كنت أرغب في إصابة داستفاس لكي أنقذك، لكنني أخطأته.  
وسمع سام تنهيدة على الطرف الآخر من الخط.  
- أنا آسف يا غريس! أنا آسف على كلّ ما لحقك!  
تسارعت أنفاسها، ثم امتزجت بالتحبيب. لم تقل شيئاً، لكن سام  
كان يامكانه أن يلمس اضطرابها، فكرر مرة أخرى: «آسف».  
ثم انقطعت المكالمة.

## الساعة الثانية عشرة وسبع دقائق

توقفت السيارة عند مدخل مانهاتن بسبب الثلوج. كانت السيارات تسير الواحدة تلو الأخرى متلاصقة تقرباً وسط أصوات الأبواق المتعالية. حاول سام أن يتصل ثانية بغريس، لكنّها كانت قد أطفأت الهاتف. نظر إلى ساعته: كان يفصله عن الواحدة بعض الوقت. ففي أسوأ الأحوال إذا لم تتحسن حركة المرور، سينزل إلى إحدى محطات المترو، لكن كان ثمة شيء آخر يزعجه: إذا لم تكن غريس قد عادت لتنتقم، فلماذا وافقت بسهولة بالغة على اقتراحه بأن تأخذه هو عوض جوليست؟

كان يشعر بأنّ جانباً من اللغز يغيب عنه، لكنّه لا يعرف ما هو. وممّا زاد الطين بلّة أنّه شعر بصداع رهيب منذ أن فارق شايك. وضع رأسه بين يديه وسدّ أذنيه بإبهاميه وحاول أن يفكّر. كان يعلم أنّ الشرّ كله يكمن في التفاصيل. استرجع بائنة أبرز الأحداث التي وقعت في الأيام الأخيرة: لقاءه الأول مع غريس في سانترال بارك ثم المقال الذي نُشر في اليوم الموالي، والذي أعلن عن نجاة جوليست، وحديثهما عن هذا القدر القاسي الذي من العبث الوقوف ضده، ثم هناك الرسالة التي نقلتها له أنجيلا بواسطة رسومها، وحادثة عربة

الكابلات تلك التي أشارت لها برقية إخبارية على ذلك الموقع الإخباري الزائف، وتلك الجملة التي ألتقط عليها غريس: هناك أمور لا نستطيع أن نغير منها شيئاً.

هذا ما كان يزعجه: إذا كان المرء لا يستطيع أن يغير شيئاً في مجرى الأشياء، فلماذا قبلت غريس بأن تعود به هو عوض جولييت؟ إنه أمر لا يستقيم.

وتذكر فجأة شيئاً، لـما أرته غريس صفحة الإنترنت التي تنبأ بحادثة عربة الكوابل، كان وائقاً تقريباً بأنّ الساعة المذكورة في البرقية هي الثانية عشرة والنصف، في حين أنّ غريس ضربت له موعداً على الساعة الواحدة!

ها هي الأمور بدأت تتضح: فقد نجحت غريس في مراوغته بأن ضربت له الموعد في غير ساعة الحادثة لأنّها كانت تعلم بأنه لن يترك جولييت، وأنّه سيفعل ما بوسعه لكي يتجرّب مقتلها. فلكي تشغله، أوهّمته بأنّها تقبل أن يعوض جولييت، فصدقها، لكنّها لم تف بوعدها.

إن جولييت الآن في خطر.

### الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثانية عشرة

إنّ كانت الحادثة ستقع على الساعة الثانية عشرة والنصف، لم يفضل لها بالكاد إلا عشرون دقيقة.

تناول من جديد هاتف السائق دون استشارته . . .

- يا هذا! لقد وعدت بإجراء مكالمة واحدة فقط!

. . . ليركب رقم هاتف جولييت.

رنّ الهاتف للمرة الأولى

والثانية  
والثالثة.

«مرحباً، إنكم تتصلون بهاتف جولييت بومان، اتركوا لي رسالة  
و...»

اللعنـة، إنه جهاز الرد الأوتوماتيكي.

## الساعة الثانية عشرة وأربع عشرة دقيقة

نظر إلى ساعته من جديد. فات الأولان. لن تكفيه أبداً ربع ساعة  
ليكون هناك في الموعد، حتى وإن استقل المترو.

كانت سيارة الأجرة لا تزال عالقة، ولم تكن قد تجاوزت ساحة  
أستور بسبب الثلج الذي كان يسقط بغزاره متزايدة، وهو ما أصاب  
سام بالذعر والإحباط، ولم يُعُد يدرِّي ما يفعل. مدّ ورقة خمسين  
دولاراً للسائق، وترجّل ليمشي على الرصيف. عندئذٍ أومض البرق  
عدة مضات في السماء، وعقبه هدير الرعد. رفع بصره مندهشاً من  
هذا الرعد الثلجي. حتى الجو جنّ جنونه هذا اليوم!

نظر حواليه، كان عليه أن يفعل شيئاً ما، ولكن ما هو؟ فلفت  
انتباهه دراجة نارية صغيرة قادمة تنزلج متعرجة بين السيارات، ودون  
أن يفكّر، ارتمى وسط الطريق، فوقف سائق الدراجة أمامه تماماً،  
بحيث انزلقت عجلة سوزوكي الخلفية، وسقطت. فصاح به السائق:  
- أنت مخبل؟!

تقدّم منه سام، ولكن عوض مساعدته، دفعه إلى الخلف ليفقد  
توازنه، وقال له معتذراً:

- أنا آسف حقاً، لا وقت لدى لكي أشرح لك.  
وفي رمشة عين، ركب الدراجة وشغّلها ثم انطلق.

فصاح به السائق:

- إنها لا تزال في طور الترويض أيها الأبله.  
لكن سام كان قد ابتعد.

### الثانية عشرة وسبع عشرة دقيقة

كانت الدراجة خفيفة وسهلة القيادة، تتسلل بين السيارات بسرعة مذهلة. كان سام ينظر يمنة ويسرة بتركيز محاذراً من وقوع أي حادثة. فقد صار يحسب منذئلاً حساب كلّ ثانية، وراح يفكّر فيما سيفعل وهو منتبه للقيادة. لم تُعد أمامه إلا فرصة واحدة لإنقاذ جولييت، لكن بشرط أن يعثر عليها فور وصوله.

### الثانية عشرة وتسع عشرة دقيقة

قالت له إنها ستبقى مع كولين حتى بداية الظهيرة. ينبغي إذن أن يبحث عنها هنالك. تذكر العنوان الذي أعطته إياه: بناية صغيرة في طرف حديقة مورنينج سايد. نظر في المرأة، ثم شغل الوامض وزاد من السرعة ليتجاوز العديد من السيارات وينطلق نحو الشمال. لما كان في السادسة عشرة من عمره، اشتري شايك دراجة نارية 125 قديمة، فساعدته سام في تصليحها، وبذلك قضيا الصيف كله وهما يركبانها وي giovan الحي.  
هذا ما كان يفكّر فيه وهو يعبر برودواي مستديرة كولمبوس وسانترال بارك.

### الثانية عشرة وواحدة وعشرون دقيقة

لما بلغ مورنينج سايد، لم يجد صعوبة في التعرّف على العمارة

التي تقطن بها كولين. ألقى نظرة لكي يفحص الأسماء المسجلة على صناديق البريد، فوجد أنها تسكن في الطابق السادس. هل هناك مصعد؟ كلا، ينبغي أن يصعد الدرج. ارتفع السلم رغم إصابته بسرعة فائقة، مستعيناً شيئاً فشيئاً بالأمل. ولما وصل إلى الشقة، طرق طرقاً شديداً كما لو أصابه مس، ففتحت كولين الباب وهي تحمل في يدها فرشاة. كانت ترتدي قميصاً ووزرة جينز، وتتدلى من تحت قبعة البيسبول الموضوعة فوق رأسها ضفيرة شقراء.

صاح بها وهو يمسك بكتفيها:

- أين جولييت؟

فنظرت إليه باستغراب:

- ماذا أصابك يا سام؟

فكّر وهو يهزّها:

- أين جولييت؟

رددت وهي تدفعه:

- لقد ذهبت.

- متى؟

- لست أدري... لحقت بها امرأة يبدو أنها تعرفها، وذهبتا معاً.

- كيف هي تلك المرأة؟

- سمراء في حوالي الخامسة والثلاثين من عمرها، ترتدي ستة جلدية ...

إنها غريب!

- إلى أين ذهبتا؟

- لا علم لي .

اللعنة !

## الثانية عشرة وأربع وعشرون دقيقة

نزل السلم بسرعة أكبر من صعوده . ركب الدرجة النارية وهو يلهث ، وتوجه صوب العربات ذات الكوابيل .

لقد تأكّدت مخاوفه : جاءت غريس تبحث عن جولييت لكي تأخذها معها . كانت يداه متصلبتان على المقود وهو يقود بأكبر سرعة يستطيعها . كان قد تخلّص من معطفه ، فشعر بالبرد القطبي ينفذ إلى عظامه . وكانت تعلق في شعره ندف الثلج وتدور في دوامات أمام عينيه . كان وهو يقود يخمن الطريق أكثر مما يراها .

## الثانية عشرة وخمس وعشرون دقيقة

التفّ على سنترال بارك شمالاً ، ثم نزل على طول الشارع الخامس . تجاوز «موما» ثم انعطّ لكي ينخرط في طريق ظنه مختصرًا ، لكنه اكتشف أنه أحادي الاتجاه . هكذا نزل الشارع في الاتجاه المعاكس على مدى بضع عشرات من الأمتار وهو يسير مرات عديدة على الرصيف ، مما جعل السائقين ينبهونه بأبواق سياراتهم ، قبل أن يعود إلى سرعته الجنونية .

كانت أرضية الطريق زلقة كحلبة تزلّج ، مما جعله يخشى الفرملة .

## الثانية عشرة والدقيقة السادسة والعشرون

وصل إلى ساحة غراند آرمي وهو يسير بسرعة تتعدّى مائة كيلومتر في الساعة ، وهناك دفعه الريح دون أن يفقده توازنه . شرعت

سيارة شرطة تلاحقه، لكنه قرر عدم الوقوف. كان على وشك الوصول. وما كاد ينحرف إلى الشرق عند ترامب تاوير حتى شرع يسقط على المدينة وابل من البرد، وما هي إلا دقائق حتى تراكمت على الأرض كميات من الجليد، بعجت هياكل السيارات، وكسرت زجاج واقياتها الأمامية، وأحدثت خسائر كبيرة بمصابيح الإنارة العمومية وواجهات المحلات التجارية.

هكذا تحول الشارع في دقيقة إلى ميدان تزلج، وهو ما لم يتحمله توازن الدراجة النارية. حاول سام أن يفرمل، فانزلت الدراجة على مدى بضعة أمتار قبل أن يصطدم بسيارة متوقفة.

## الثانية عشرة وسبعين وعشرون دقيقة

قام من سقطته. كان سرواله ممزقاً، وهو يتلوى من الألم بمرفقه وكتفه اللذين أخذنا ينزفان، لكنه كان لا يزال قادرًا على المشي. ترك الدراجة النارية مرمية على الرصيف وقطع المائة متر الأخيرة بأقصى ما تسمح به قدماه من سرعة.

## الثانية عشرة وثمانون وعشرون دقيقة

نزل سام بسرعة إلى رصيف عربة الكوابل عند ملتقى الشارع الثاني والشارع الستين.

في الأوقات العادية، يربط ترام روزفلت آيلند المعلق بين مانهاتن وجزيرة روزفلت الواقعة في وسط نهر إيست ريفير. لكنهم أقاموا شريطاً أمنياً حول المنصة، مع لوحة عريضة صفراء رسمت عليها جمجمة.

ومع ذلك كانت ثمة عربة أخيرة تتأهب للانطلاق في الأجواء...

## الثانية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرون

استطاع سام أن يميز بوضوح، انطلاقاً من المكان الذي كان يقف فيه طيف راكبيـنـ، فصاح وهو يتقدم نحو الرصيف:

- جوليـتـ ! غـرـيسـ !

لكن الأوان كان قد فات، إذ انغلق البابان الآليـانـ، وشرعت العربية في الارتفاع.

صرخ محاولاً التغلب على ضجيج الريح والبرد:

- ينبغي وقف هذه العربية !

لكن لا أحد سمع نداءـهـ .

تملـكـهـ الشعور بالعجز فجـئـناـ على ركبـيـهـ وهو يراقب العربية التي راحت ترتفع في السماء . . .

وهدر الرعد بعد ومضات البرق، وامتزجت على نحو غـرـيبـ نـدـفـ الثـلـجـ بـحـبـاتـ البرـدـ التي كانت لا تزال تسقط بغـزـارـةـ. حلـقـ التـرـامـ فوق إـيـسـتـ سـاـيـدـ ليـصـلـ إـلـىـ عـلـوـ سـبـعـيـنـ مـتـرـاـ فوق مـقـرـ الأمـمـ المتـحـدةـ.

كان قلب سام يتـقـافـزـ في صـدـرـهـ، وحاول للحظة أن يطمئـنـ نفسهـ. ماـذـاـ لوـ أـنـ غـرـيسـ اختـلـقـتـ كـلـ هـذـهـ الحـكاـيـةـ؟ ثـمـ، لـمـاـذـاـ سـتـقـعـ الحـادـثـ لهـذـهـ العـرـبـةـ بـالـذـاتـ؟ إـنـهـ أـمـرـ لاـ معـنـىـ لـهـ. لاـ أـحـدـ يـسـتـطـيـعـ التـنبـؤـ بالـمـسـتـقـبـلـ، وـبـذـلـكـ لـنـ يـحـدـثـ شـيـءـ . . .

## الثانية عشرة وثلاثون دقيقة

وبـينـماـ كانتـ تـجـولـ بـذـهـنـهـ هـذـهـ الـخـواـطـرـ، نـفـختـ هـبـةـ رـيـحـ عـاتـيةـ هـزـتـ العـرـبـةـ وـأـفـقـدـتـهاـ تـواـزنـهاـ، مـزيـحةـ إـيـاهـاـ عـنـ سـكـةـ الـكـوـابـلـ التيـ

تحملها لتطوّح بها على برج أسلاك في الأسفل، محدثة بذلك ضجة صاحبة.

تطاير الشرر، وانطفأ النور داخل العربية، وبدت لبرهه كما لو أنها توقفت تماماً، لكن عصفة ريح جديدة حركتها وألقت بها في النهر.

ما العالم سوى جسر، اعبره دون أن تبني فيه مسكنك.  
هين، الأنجل المحنولة، 35.

كان الثلج الذي يتتساقط بلا انقطاع يختنق المدينة تحت رداء من  
البياض الناصع.

وهام سام على وجهه في الشوارع مسحوقاً تحت وزر الندم  
والشعور بالذنب. لقد أخفق للمرة الثانية في إنقاذ المرأة التي يحبّ،  
وهذه المرة لا عذر له لأنّ الموت لم يباغته، بل كان يملك ما يكفي  
من الوقت ليراه قادماً.

وبينما كان يشق طريقه في بارك أفينيو، لمح صورته في واجهة  
أحد المتاجر، فراعه ما رأى: سرواله ممزق وقميصه مطلية بالدم  
ووجهه الذي ازرق من البرد صار أشبه بقناع شاحب.

استأنف مسيره متالماً ومرتعشاً من البرد وهو يفكّر في المساء  
الذي استعرض فيه رسوم أنجيلا لما تراءى له ذلك التحذير: غريس  
تقول الحقيقة.

فعلاً، لقد قالت غريس الحقيقة: لن تعود إلا مصحوبة  
بجوليت، وهذا ما وقع.

أخلت العاصفة والبرد الأحياء من المارة. وتنبه سام في هذا

الفضاء الأبيض إلى أنه يترك وراءه خطأ من الدم، وأرغم نفسه على تفحص جرحه. ذلك أنه لـما سقط بالدراجة النارية، انفرز مسند القدم الحديدية في ساعده. فـما كان يظنه مجرد جرح سطحي هو في الحقيقة جرح غائر مزق العضلة وبلغ العظم.

لكن جسمه الجريح لم يكن شيئاً أمام تحطم روحه. كان يشعر بفراغ بداخله، ويعلم أنه لن يستطيع تجاوز هذه المحنـة، وأنه لم يعد ثمة شيء يشـدـه لهذه الحياة الدنيا.

مرّ أمـام المـقـمـى الفـرنـسي الصـغـير بـ«يونـين سـكـوار» حيث رـافـقـته جـولـيـتـ بعد أول لـيلـة قـضـيـاـها مـعـاـ. فـفي هـذـه القـاعـة ذات الطـابـع العـتـيق تـماـزـحاـ وأـكـلاـ الخـبـزـ المـدـهـونـ، وهـنـا تـعلـقـ بها حـقـاـ.

لـمـ رـآـها تـضـحـكـ وتـترـنـمـ بـالـأـغـانـيـ الـقـدـيمـةـ، تـأـكـدـ منـ أـنـهـاـ هيـ: المـرـأـةـ التـيـ كـانـ يـحـلـمـ بـالـعـيـشـ مـعـهـاـ إـلـىـ الأـبـدـ، المـرـأـةـ التـيـ سـيـبـذـلـ ماـ فـيـ وـسـعـهـ لـيـحـمـيـهاـ، وهـيـ أـيـضاـ سـتـحـمـيـهـ بـدـورـهـاـ. كـانـ الـأـمـرـ كـمـاـ لوـ أـنـ السـمـاءـ بـعـثـتـ لهـ بـمـلـاـكـ يـخـلـصـهـ مـنـ عـذـابـاهـ.

ثـمـ اكتـسـحـهـ شـعـورـ جـارـفـ بـالـيـأسـ وـهـوـ يـتـذـكـرـ مـقـدـارـ السـعـادـةـ التـيـ شـعـرـاـ بـهـاـ طـيـلـةـ عـطـلـةـ الـأـسـبـوعـ تـلـكـ. لـمـاـ يـطـلـبـ الـقـدـرـ هـذـاـ التـعـويـضـ القـاسـيـ بـعـدـ أـنـ وـهـبـهـ تـلـكـ السـعـادـةـ؟

لـكـتـهـ كـانـ يـعـلـمـ تـمـاماـ بـأـنـهـ لـنـ يـتـلـقـىـ جـوابـاـ عـنـ هـذـاـ السـؤـالـ. وـهـكـذـا استـسـلـمـ بـعـدـ أـنـ شـعـرـ بـالـإـنـهـاكـ وـالـهـزـيمـةـ، فـانـهـارـ فـيـ الثـلـجـ عـلـىـ بـعـدـ أـمـتـارـ مـنـ بـيـتـهـ وـلـمـ يـحـاـولـ النـهـوضـ، وـصـارـ مـنـذـئـذـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـموتـ مـنـهـ للـحـيـاةـ.

كم بـقـيـ مـسـتـلـقـياـ هـكـذـاـ عـلـىـ الثـلـجـ؟  
طـوـيـلـاـ... .

إلى أن أبصرها في الطرف الآخر من الشارع، شفافة وخيالية.  
جولييت.

خطت بعض خطوات مختربة سحابة ندائف الثلج السميكة  
المتساقطة، ثم رأها تجري نحوه في صمت.  
كان الأمر كما لو أن السماء بعثت له ملاكاً لينتزعه من  
عذاباته . . .



## خاتمة

بعد مرور يوم . . .

بعد أربع وعشرين ساعة من الجو العاصف، زالت العاصفة بالسرعة نفسها التي حلّت بها. تلاشى الضباب فأرسلت شمس العشي أشعتها من خلال ناطحات السحاب.

وبدأت الحياة تسري من جديد في كلّ مدينة نيويورك. راحت كاسحات الثلوج تزيل الثلوج من الشوارع، وتسلح الناس بالمجارف لكي يزحفوا الثلوج من مداخل منازلهم، وأخرج كثير من الأطفال ألواح التزلق.

كان ثمة طائر فضي الريش، آتٍ من العدم، يحلق فوق ميدتاون، ثم نزل عمودياً في غمرة الضوء البرتقالي المنعكس على ناطحات السحاب، ثم حطَّ على حافة نافذة من نوافذ مستشفى سان ماتيوس. هناك، في الغرفة 606 كان يرقد سام، مستلقياً على السرير ورجله مثبتة في طبقة من الجبس، وكتفه محاط بطبقة سميكة من الضمادات، وإلى جواره تكوت جولييت على الأريكة تراقب أبسط حركاته وسكناته. لما استعاد وعيه، كان ثمة مذيع على منضدة السرير يسرد آخر الأخبار بصوت خافت.

يبدو أنَّ العاصفة العنيفة التي ضربت مانهاتن هدأت، واستعادت

مدينتنا سكينتها، لكن الخسائر ثقيلة. فقد سقطت العديد من الأشجار بـ سنترال بارك، وامتلأت الشوارع بشظايا الزجاج، والسيارات المتضررة لا يحصرها العدد...

استسلم سام لعذوبة الصوت، ولمّا فتح عينيه أخيراً، لمح جولييت إلى جواره تبسم له.

انتصب جالساً وهو متربّد بين الأمل واليأس، غير قادر على فهم ما يقع له. وضعت جولييت يدها على خدّه وانحنت عليه لتلامس شفتيه. وسمع صوت المذيع يسترسل قائلاً:

... ظلت فرق الإنقاذ تستغل طيلة اليوم، وامتلأت المستشفيات...  
وازدحمت الأسئلة في رأس سام.

- ألم تكوني في العربية ذات الكوابيل؟  
حرّكت جولييت رأسها بالنفي.

شعر سام بالارتياح، لكن ثمة شيء ما زال لم يستوعبه. فهو واثق من أنه رأى طيفين في العربية. فإذا كانت غريس قد عادت من دون جولييت، فمن كان يرافقها إذن؟  
وجاءه الجواب عبر الأثير:

...على إثر حادثة أمس المؤسوية، سيظلّ ترام روزفلت آيلند المعلق مغلقاً لعدّة أيام قصد إجراء الإصلاحات الضرورية. وحسب الشهود، كان بالعربة شخصان لحظة الحادثة، وما زال الغطاسون يجوبون النهر بحثاً عن الجثتين، ولكن دون نتيجة حتى اللحظة. فقد تمكّنا من إخراج العربية، لكن المحققين لم يعثروا فيها إلا على شارتي شرطة، إداهما للضابط مارك روتييلي من الدائرة الواحدة والعشرين، والثانية لمفتشة ماتت منذ عشرة أعوام...

لم يستطع سام إخفاء ألمه. لقد اختار روتييلي الموت برفة

غريس تعبيراً منه على تعلقه بها. تناولت جولييت يده وسألت:

- يتعلّق الأمر بغريس كوستيللو، أليس كذلك؟

حدّجها بنظرة استغراب.

- كيف عرفت ذلك؟

- لأنّها زارتني لدى كولين، وتركت لك هذا.

مدّت جولييت يدها نحو المنضدة وتناولت ظرفاً أخرجت منه

رسالة ومدّتها له.

## سام

لما شاءت الأقدار أن نلتقي للمرة الأولى قبل عشر سنوات، انتهى لقاونا بمساعدة رهيبة، لكنّك لم تكن مسؤولاً عن ذلك، بل أعتقد أنتا لو التقينا في سياق آخر غير ذاك، لكنّا صرنا صديقين.

أشكرك على تسلیطك الضوء على لغز وفاتي، فأنا أعرف الآن جواب الأسئلة التي كانت تعذبني.

على أنتي لم أعد واثقة من المعنى العميق لمهمّتي. ماذا لو أنتي أخطأت منذ البداية بخصوص ما كان منتظراً منّي؟ أكانوا يرغبون فعلاً في أن أعود بجولييت أم أنهم بعثونني لأنقذ ابنتي وأتصالح معك؟ أسئلة ليس عندي جوابها.

كلّ ما أعرفه هو أنتي لن أحرمك من المرأة التي تحبّ. وإذا ما ذكرتني أحياناً، فاذكرني من دون ألم ولا شعور بالذنب.

قل إنّي لست ربّما بعيدة، ولا تقلق علىّ.

بالمقابل توجد في إحدى غرف المستشفى الذي تشتبّغل به مراهقة في الخامسة عشرة من عمرها قسّت عليها الحياة. لها جسد امرأة، لكنّها لا تزال طفلاً صغيرة، وهي أعزّ ما لدى في الكون، وقد

أنقذتها مرّة، غير أنها لا تزال بحاجة إلى مساعدتك وثقتك. أرجو أن تستمر في العناية بها.

لقد آن الأوان لكي أنصرف.

لست أعرف ماذا سأجد في الجانب الآخر، ولا ماذا ستكون عواقب أفعالك. لا أخفيك، يساورني شيء من الخوف، ولكن في لحظة انصرافي، أريد أن أعتقد بأنّهم منحوني الاختيار. أنصط إلى قلبي فأمرني بأن أترك لك جولييت.

إلي الحق في اتخاذ هذا القرار؟ لست أعلم، وهو أمر لا أهمية له...  
... مهما يكن، فالسماء تستطيع الانتظار.

غريس



غيوم ميسو

# أنقذني

لا شيء يهمني جولييت وسام للقاء، فكيف بقصة حب!  
كان لقاوهما محدثماً وساحراً. وكانت عطلة آخر الأسبوع  
في نيويورك كافية ليتعلّقا ببعضهما، إلا أن كلاً منهما كذب  
على الآخر. أدعى سام بأنه متزوج، وزعمت جولييت بأنها  
محامية. وعندما جاء وقت عودتها إلى باريس، رافقها إلى  
المطار، وكانت تلك اللحظة كفيلة بتغيير مصيرهما، لكن لا  
أحد منهما تجرأ وباح بالحقيقة.

وما هي إلا نصف ساعة حتى حل الخبر: انفجرت الطائرة  
التي تقل جولييت في الجو، وهو خبر أغرق سام في اليأس،  
لكنه لم يكن يعلم أن قصتهما لم تنته هنا... بل هي أبعد ما  
يكون عن ذلك!

كعادته، يقدم لنا غيوم ميسو في هذه الرواية الجديدة  
حكاية خلابة مليئة بالإثارة والخيال والتشويق والعشق...

ISBN 978-9953-68-692-9



9 789953 686929



المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدينا)  
بيروت: ص. ب. 113/5158  
markaz.casablanca@gmail.com  
cca\_casa\_bey@yahoo.com